



محاضرات في علم المعاني





منشورات جامعة دمشق
كلية الآداب

محاضرات في علم المعاني

د. منيرة محمد فاعور

د. محمد هيثم غرة

جامعة دمشق



فهرس الموضوعات

٧	— تقديم
١١	— لمحة عن تاريخ البلاغة
١٩	— مقدمة في معرفة الفصاحة والبلاغة
٣٦	— تدريبات
٤٢	— لمحة موجزة عن علم المعاني وتطوره
٤٩	— مكانته بين العلوم وموضوعاته
	(الفصل الأول: الخبر والإنشاء)
٥٤	— أولاً: الخبر — تعريفه — أغراضه
٥٧	— أضربه
٦٠	— مؤكداته
٦٤	— تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
٧١	— تدريبات
٧٥	— ثانياً: الإنشاء — تعريفه — أنواعه
٧٨	— الأمر
٨٣	— تدريبات
٨٧	— النهي
٩١	— تدريبات
٩٤	— الاستفهام
١٠٣	— تدريبات
١٠٦	— التمني
١١٠	— تدريبات
١١٣	— النداء
١٢٠	— تدريبات
	(الفصل الثاني: أحوال الإسناد)
١٢٥	— الجملة — المسند إليه — المسند — المتعلقات بالفعل

١٣١	— الحذف والذكر.....
١٤٤	— الذكر.....
١٤٩	— تدريبات
١٥٢	— التعريف والتنكير.....
١٥٢	— التعريف
١٧٠	— التنكير
١٧٥	— تدريبات
١٨١	— التقديم والتأخير.....
١٩١	— أحوال أخرى تعرض للمسند إليه.....
١٩٦	— تدريبات.....

(الفصل الثالث: القصر)

٢٠١	— تعريف القصر.....
٢٠٢	— طرقه.....
٢٠٨	— أقسامه.....
٢١٣	— أغراضه.....
٢١٥	— تدريبات.....

(الفصل الرابع: الفصل والوصل)

٢٢٢	— حالات الفصل.....
٢٣٠	— حالات الوصل.....
٢٣٣	— الجملة الحالية.....
٢٣٦	— تدريبات.....

(الفصل الخامس: الإيجاز والإطناب والمساواة)

٢٤٣	— الإيجاز.....
٢٥٠	— الإطناب.....
٢٥٨	— المساواة.....
٢٥٩	— تدريبات
٢٦٤	— خاتمة.....
٢٦٧	— فهرس لأبرز المصادر والمراجع.....



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا كتاب في «علم المعاني» أحد علوم البلاغة العربية: (المعاني، والبيان، والبديع)، ألقيت محاضراته على طلبة قسم اللغة العربية في جامعة دمشق، وعلى طالبات كلية الدراسات الإسلامية والعربية في دبي، وعلى طالبات مركز الدراسات الجامعية للبنات في جامعة الملك سعود في الرياض.

وقد روعي في هذا الكتاب ما نصت عليه خطة أقسام اللغة العربية في هذه الجامعات من ضرورة أن يصيب طالب اللغة العربية وآدابها قسطاً من معرفة هذا العلم يكون له عوناً على فهم أسرار الإعجاز في القرآن الكريم من ناحية، وبمكّنه من الكشف عن الأسرار الجمالية وتذوقها فيما يقرأ من نصوص أدبية من ناحية أخرى.

وللوصول إلى هذا الهدف سعينا في كتابنا هذا إلى دراسة مباحث هذا العلم ومسائله بأسلوب مضاء بما يأتي:

١ — مقدمة عن تاريخ البلاغة العربية منذ أن كانت ملاحظات يسيرة على
ألسنة الجاهليين إلى أن استوت علماً قائماً بذاته.

٢ — لمحة عن نشأة علم المعاني وتطوره، ثم التعريف به وبمكائنه بين العلوم،
والموضوعات التي يدرسها.

٣ — تقريب مسائل (علم المعاني) من الطلاب الذين ينظر بعضهم إلى البلاغة
على أنها مادة عقيمة ليس لها رواء، وقد غاب عنهم أن البلاغة هي علم العريضة
الذي لم ينهض به علماء العربية الأوائل إلا لخدمة القرآن، وتيسير فهمه، وتذوق
أساليبه، وإدراك مرامييه وأحكامه على الوجه الصحيح، ولم يبرز فقيه أو مفسر أو
دارس للأدب والشعر إلا بعدما وعّاها وأحسن فهمها، وقديماً قال أبو هلال
العسكري: «إن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه
بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما
شحنّ به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتمّ به،
والقارئ المهتدي به، وبالعربي الصليب، والقرشي الصريح ألا يعرف إعجاز كتب
الله إلا من الجهة التي يعرفه منها الزنجي والنبطي والجاهل»^(١)

٤ — الاهتمام بدراسة أصول هذا العلم وقوانينه والقواعد التي تحكمه وتضبط
مساره، دون الإيغال في فلسفة هذه الأصول، فالقاعدة ليست هدفنا إلا بالقدر
الذي تضيء فيه جوانب النص، وتحدد تسميته.

٥ — تذييل كل مبحث بلاغي بنوعين من التدريبات التي اختيرت أمثلته بدقة
وعناية، الأول: هدينا الطالب إلى حله، والآخر رأينا أن يختبر الطالب فيها مدى
فهمه لتلك القضايا التي درسها بما يحفزها على التأمل في النص الأدبي، واستنباط ما
فيه من أحكام وأسرار جمالية.

(١) كتاب الصناعتين / ٩

٦ — الإكثار من تحليل الشواهد القرآنية والحديثية والأمثلة الشعرية المختارة
تمن فصيح لسانه، وصحَّ الاحتجاج بشعره، أو الاستئناس بقوله معنى ومبنى.

٧ — وحتى يتاح للطالب أن يتصل بترائه فقد سعينا إلى التدليل على بعض
القضايا البلاغية بأراء شيوخ البلاغة، وعلى رأسهم عبد القاهر الجرجاني؛ فعلى
كتبهم عولنا، ومن آرائهم أفدنا، ومهداهم اقتدينا.

٨ — إرشاد القارئ إلى أبرز المصادر والمراجع التي استقينا منها مواد كتابنا
وفهرستها آخر الكتاب.

والله من وراء القصد

دمشق في

٢١ / ٨ / ٢٠٠٢ م

المؤلفان

د. محمد هيثم غرة — د. منيرة محمد فاعور



لمحة عن تاريخ البلاغة

العصر الجاهلي:

عنى العرب منذ العصر الجاهلي بالكلمة وأدركوا ما للكلام واللسان من قدرة على التأثير في المخاطب فأخذوا يحذرون من وقوعه ومن بقاء أثره في المدح والمهجو.

قال طرفة:

رأيت القوافي يتلجّن مواجاً تضايقُ عنها أن تولجها الإبر
وقد أفضت عنايتهم تلك إلى أن كان شاعرهم يدع القصيدة حولاً كاملاً
يردّد فيها النظر ويحيل فيها العقل ويحذف ويضيف ويهذب ويغيّر أحياناً في الصور
الفنية أو في الكلمة، وهي فئة منهم تسمى أصحاب الحوليات، وعلى رأسهم زهير
ومن بعده ثمن عرفوا بعبيد الشعر.

والجاهليون كانوا يعرفون كثيراً من الخصائص الفنية والأساليب البيانية التي
تضفي على شعرهم صفات الإبداع والجمال، وكان الشاعر بحسّه الفطري يسلك
هذه الأساليب كلّما انتابه شعور أو معنى وأراد التعبير عنه.

يصف الجاحظ بلاغتهم مشيراً إلى ما يحبون ويكرهون فيقول: «هم وإن كانوا
يحبون البيان والطلاقة والتجوير والبلاغة والتخلص والرشاقة، فإنهم كانوا يكرهون
السلطة والهذر والتخلف والإسهاب والإكثار»^(١).

والشعراء الذين كان شعرهم المادة الرئيسة للحكم على البلاغة في العصر

^(١) البيان والتبيين ١ / ١٩١.

الجاهليّ قد بيّنوا في أشعارهم ما يمدحه العربي وما يذمه من الكلام، يقول زهير بن
أبي سلمى يعيب الخطل ويذم صاحبه:
وذي خطل في القول يحسب أنه مصيبٌ فما يلمّ به فهو قائلٌ
عبأت له حِلماً وأكرمتُ غيره وأعرضتُ عنه وهو بادٍ مقاتلٌ

وكذلك الحكماء والأعراب فقد وصف أعرابيّ أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال:
«كان والله يضع الهناء مواضع النقب»^(١)، وما أشبه هذا الكلام بالعبارة التي غدت
أساس علم البلاغة بعدئذ وهي قولهم: لكلّ مقام مقال.

ويمكن أن نتعرف على طبيعة البلاغة عندهم من خلال الأحكام الذوقية
والنقدية التي كانت تصدر عن كبارهم من الفصحاء لدى تحكيمهم بين الشعراء
وذلك في الأسواق التي كانوا يجتمعون فيها ويتناشدون الأشعار ثم يدور الجدل
حولها استحساناً أو استهجاناً والتي كانت عاملاً مهماً في ترفيق الألفاظ وتدقيق
المعاني.

يروى أن النابغة الذبياني كانت تُضربُ له قُبّة من آدم بسوق عكاظ يجتمع إليه
فيها الشعراء فدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى وقد أنشده شعره،
وأنشدته الخنساء قولها:

قذى بعينك أم بالعين عوّار أم ذرّفت مُدّ خلّت من أهلها الدارُ
حتى انتهت إلى قولها:

وإنّ صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نارُ
وإنّ صخرأ لمولانا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتو لنحارُ

فقال النابغة: لولا أنّ أبا بصير (الأعشى) أنشدني قبلك لقلت إنك أشعر
الناس، فقال حسان: أنا والله أشعر، قال النابغة: حيث تقول ماذا؟ قال حيث

^(١) البيان والتبيين ١ / ١٠٧.

أقول:

لنا الجففاتُ الغرَّ يلمعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجسدة دماء
ولذنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنسبنا ابنما

فقال النابغة: إنك لشاعر لولا أن قلت عدد الجفان وقلت من السيوف
وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك.

ومن ذلك قصة أم جندب التي تحاكم إليها الشاعران امرؤ القيس زوجها
وعلقمة، وقد ادعى كل منهما أنه أشعر من صاحبه فحكمت لعلقمة على زوجها
وذلك في وصفهما للفرس.

وكذا سخرية طرفه من قول المسيّب بن علس:
وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بنجاح عليه الصيعرية مكدم

إذ قال طرفه: استنوق الجمل؛ لأن الصيعرية من سمات النوق^(١).

إن مثل تلك الملاحظات التي كانوا يسوقونها أحياناً هي أصل الملاحظات
البيانية التي دوّنها البلاغيون فيما بعد؛ بل تكاد البلاغة تكون نشأت على أيديهم،
فالعرب الجاهليون لم يكونوا بمعزل عما سمي بعد علوم اللغة العربية، كيف يصحّ
ذلك وهم الذين نشروا بذورها في تربة العلوم التي دوّنت بعدئذ كعلم النحو
والصرف والعروض.

يرى بعض الباحثين أن نشأة البلاغة قديمة سبقت القرآن وتطورت من بعده،
ولكن ذلك كان يجري ببسر وسهولة يقول: «لا يعقل أن يظهر كتاب كالقرآن في
أهميته وبلاغته بين قوم لم يفكروا في الفصاحة والعروض والنقد وطرائق التعبير»^(٢).
لأن أولئك العرب أدركوا عند نزول القرآن مناحي القول المختلفة في بيانه، ولئن

^(١) انظر البلاغة عند المعتزلة / ١٠.

^(٢) النثر الفني في القرن الرابع ٤٧ / ١.

فأفهم الوقوف على المصطلحات البلاغية — التي سميت فيما بعد — فلم يفهم جوهرها، إذ عرفوا بفطرتهم المطبوعة مكان الإيجاز والإطناب، وموضع الحقيقة والمجاز، وموقع الكناية والتصريح.

العصر الإسلامي:

إن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين قد توج فصاحة العرب، ودل في بعض آياته على اقتدارهم على الكلام فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة/ ٢٠٤]، ووصفهم بأنهم كانوا ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم/ ٩٧]، وبأنهم: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف/ ٥٨].

وتحدث القرآن عن البيان وأثره كما جاء على لسان موسى حين بعثه الله تعالى إلى فرعون لتبليغه رسالة ربه إذ قال عن حبسة لسانه ﴿وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ (٢٧) يَقْفَهُوا قَوْلِي ﴿[طه/ ٢٧ — ٢٨] جاء هذا القرآن متحدياً فصاحتهم التي عرفوا بها، وفي الوقت الذي «كان أغلب الأمور عليها وأحسنها عندهم وأجلها في صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به فحين استحسنت لفهمهم وشاعت البلاغة فيهم وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم — نزل القرآن — فتحدهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه فلم يزل يقرعهم بعجزهم وينقصهم على نقصهم حتى تبين ذلك لضعفائهم وعوامهم كما تبين لأقويائهم وخواصهم»^(١).

والآيات الدالات على التحدي في القرآن الكريم كثيرة كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/ ٨٨]، وقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة/ ٢٣].

(١) رسائل الجاحظ ٢٧٩/٣ — ٢٨٠.

ولم يكن القرآن غريباً عن العرب بل جاء على نمط بياهم، وكانوا يفهمون هذا الكلام ويذهبون إلى المعاني التي تكمن وراء الألفاظ، لكنهم مع ذلك لم يستطيعوا معارضته، وقد أجهدوا أنفسهم في سبيلها.

لذلك ارتبطت البلاغة ببيان إعجاز القرآن وكادت غايتها تكون محصورة في ذلك، فكان القرآن أوّل باعث على الدراسات البلاغية فيما بعد. وقد استمدّ منه البلاغيون قواعد البلاغة، وكان تفهّم القرآن مدعاة إلى طرح أهمّ القضايا البلاغية كقضية (اللفظ والمعنى) التي لعلها لم تُثَرَّ إلا بعد الخلاف الذي نشأ حول سحر القرآن وعظمته وهل كان مردّ ذلك إلى ألفاظه أو إلى معانيه، ثم لم تلبث هذه القضية أن انتقلت إلى الأدب بوجه عام، فالآمدي (ت ٣٧٠هـ) كان ينحاز إلى جانب مَنْ يرجع القيمة للمعنى في شعر أبي تمام، وفي الطرف المقابل كان القاضي الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) يميل إلى جانب اللفظ ويعده الأساس الأول في تفضيل الشعر وقيمة الشاعر.

إن النظر في أسلوب القرآن واتّخاذه المقياس البلاغي الأمثل أدى إلى النظر في الأساليب الأدبية^(١)، وإن الموازنة بين أسلوبه وأسلوب غيره قد استدعت التنبيه على الميزات اللفظية والمعنوية والتأمل في طرق البيان، كما أن إثبات حجة الإعجاز لهذا القرآن كان المدخل الأساسي للعلماء إلى مناحي القول في البيان ووضع علوم البيان ومقاييس البلاغة، وكانت أمهات كتب البلاغة هي كتب معاني القرآن ومجازه ونظمه وإعجازه، بمعنى أن الغرض الديني — وهو خدمة القرآن — أدى إلى ظهور البحث البلاغي.

وتطورت البلاغة في العصر الإسلامي، إذ كان المسلمون ينافحون عن الدعوة بالبيان والسيف، وكان المشركون يعدّون لذلك أكبر شعرائهم وخطبائهم، وكان

(١) الموجز في تاريخ البلاغة / ٤٥.

كل فريق ينشد البراعة الفنية والمقدرة البلاغية لقطع الفريق الآخر.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام أفصح العرب، عُرف في أحاديثه كثير من العبارات المبتكرة والمجازات البليغة.

وقد مدح الإيجاز وسمّاه بلاغة عندما سمع رجلاً يقول لرجل: «كفاك الله ما أمّك»، فقال: هذه بلاغة. وفي صحيح البخاري أنه — عليه الصلاة والسلام — قال: «أوتيت جوامع الكلم» أي القليل الجامع للكثير.

ومدح البيان وقال: إن من البيان لسحراً، وذم التكلف، وهجر الغريب الوحشي وقال: إيتاي والتشادق. فهو — عليه السلام — شارك في وضع الأساس لبناء صرح البلاغة، وقد دفعت أحاديثه العلماء إلى التأليف في بلاغتها والبحث في بيانها وصورها.

ومن الخلفاء كان عمر بن الخطاب أعلم الناس بالشعر، ورأيه في شعر زهير مشهور، يقول ابن عباس: «خرجت مع عمر في أول غزاة غزاها، فقال لي ذات ليلة: يا ابن عباس أنشدني لشاعر الشعراء، قلت: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سلمى، قلت: وم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظم من المنطق»^(١)، فقرن الحوشي وهو الغريب إلى المعاظلة التي هي التعقيد، ومعروف أن الغرابة والتعقيد التفقت إليهما رجال البلاغة فيما بعد وعدّوهما من عيوب الفصاحة. وفي أخبار الشعراء ذكر الأصفهاني أنه «اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشدهما الكميت:

هل أنت عن طلب الأيفاع مُنقلبُ

حتى بلغ إلى قوله في هذه القصيدة:

أم هل ظعائنُ بالعلياء نافعةٌ وإن تكامل فيها الأنسُ والشنبُ

(١) الأغاني ١٠ / ٢٩٠.

فبعد نصيب واحدة، فقال له الكميّ: ماذا تحصى؟ قال: خطأك، باعدت في القول، ما الأنس من الشنب؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة:

لياء في شفيتها حوة لعسّ وفي اللثات وفي أنيابها شنب^(١)
وهذا ما ستمي بعد مراعاة النظر.

أردنا من خلال ذكر الأمثلة التي سقناها لك أن نقول: إن البلاغة بدأت على شكل ملاحظات نقدية يسيرة على لسان العربي يعبر فيها عما يستحسن، ويقدمها بين يدي من ينكر، وبقي هذا حتى العصر العباسي وهو عصر التأليف في البلاغة، ولم تكن قبله تعدو مصطلحات يمكن حصرها بـ (البلاغة والفصاحة والبيان والإيجاز والإطناب والإسهاب والعي والتشديد والتفريق) وما إليها بمعانيها اللغوية على الأغلب.

أهم الكتب التي ألفت في البلاغة بطرائق متفاوتة:

بدأ التدوين في علم البلاغة منذ منتصف القرن الثاني الهجري، ومن أبرز الكتب التي وضعت في ذلك:

صحيفة بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ)، البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ)، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ)، نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧ هـ)، الموازنة بين الطائيين للآمدي (ت ٣٧١ هـ)، النكت في إعجاز القرآن للرماني (ت ٣٨٦ هـ)، إعجاز القرآن للخطابي (ت ٣٨٨ هـ)، الصاحبي لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ)، كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ)، إعجاز القرآن للباقلاني (ت ٤٠٦ هـ)، العملة لابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٤ هـ)، سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ)، دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ)، الكشاف للزمخشري

(١) الأغاني ١/ ٣٤٨.

(ت ٥٣٨ هـ)، مفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦ هـ)، بديع القرآن لابن أبي الإصبع (ت ٦٥٤ هـ)، تلخيص المفتاح للقزويني (ت ٧٣٩ هـ).

إنَّ مَنْ يسعد بقراءة هذه الكتب يدرك أن البلاغة ذات منشأ قرآني بحت، وقد «ترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه، وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علماً مستقلاً يُخصَّصُ بالتأليف»^(١).

واعلم أن تقسيم البلاغة إلى علومها الثلاثة التي تعرف (علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع) إنما جرى على أيدي المتأخرين من البلاغيين، فالسكاكي أعاد البلاغة إلى مرجعين هما المعاني والبيان وأشار إلى البديع إشارة إذ قال: «هاهنا وجوه مخصوصة كثيراً ما يصار إليها لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعرف منها وهي قسمان: قسم يرجع إلى المعنى وقسم يرجع إلى اللفظ»^(٢).

فهو لم ينص صراحة على أن الوجوه المخصوصة التي يصار إليها لقصد تحسين الكلام هي ما عرف بعلم البديع، وإنما دلَّ على أنها محسنات معنوية ولفظية. وجاء ابن مالك بعده (ت ٦٨٦ هـ) فأطلق على هذه المحسنات اسم البديع^(٣).

ونحن نقول هذا الكلام دون أن ننسى أن السكاكي استخلص علم المعاني مما قرأه في (دلائل الإعجاز) للجرجاني و(الكشاف) للزمخشري، واستخلص علم البيان مما قرأه في (أسرار البلاغة) للجرجاني.

وفيه تصحيح لوهم مَنْ ظنَّ أن الجرجاني هو الذي وضع علم البيان في (أسرار البلاغة)، ووضع علم المعاني في (دلائل الإعجاز)، وأن ابن المعتز وضع علم البديع في (البديع)^(٤).

(١) الموجز في تاريخ البلاغة / ٤٨.

(٢) مفتاح العلوم / ٤٢٣.

(٣) الصباح / ١٥٩.

(٤) أثرنا الإيجاز خشية الخروج عن الموضوع الذي نحن بصدده.

مقدمة في معرفة الفصاحة والبلاغة

استأثر موضوع (الفصاحة والبلاغة) بعناية العلماء واهتمامهم؛ فقد احتفلوا بهما احتفالاً كبيراً، وخصوهما بكثير من البحث والدرس؛ ذلك أن مفهوم هذين الفنين يشكل عمدة البحث البلاغي، والأساس الذي يُنطلق منه إلى دراسة الأساليب البلاغية وفنونها المختلفة، لا؛ بل إنهما الغاية التي تبحث عن أسباب الجمال وأسراره في الآثار الأدبية.

وقد شاع استخدام المصطلحين معاً لدى علماء النقد والبلاغة، وعرفهما العرب صنوين مترادفين أحياناً ومتلازمين أحياناً أخرى، لا يفارق أحدهما الآخر، ولكن هذه الحال لم تدم طويلاً، إذ تنبه البلاغيون إلى أهمية إظهار الفرق بينهما، ووضع معايير دقيقة تضبط كلا منهما.

أولاً: الفصاحة

الفصاحة في اللغة تطلق على معان كثيرة تدور جميعاً في فلك الظهور، والبيان، والوضوح، والسلامة من كل ما يشوب الشيء ويكدره، يقال: فَصَحَ اللَّبَنُ إذا أزيلت الرِّغْوَةُ من سطحه فبان وظَهَرَ، وأفصح الصُّبْحُ: إذا بدا ضوءه واستبان، وأفصح الأعجمي إذا أبان وفُهِم عنه، وفصح اللسان إذا استطاع التعبير عما يجول في النفس بأسلوب طلق واضح خال من العثرات^(١).

^(١) لسان العرب (فصح).

أما الفصاحة في اصطلاح البلاغيين فهي وصف يطلق على اللفظة المفردة، وعلى الكلام، وعلى المتكلم؛ فيقال: كلمة فصيحة، وقصيدة فصيحة أو كلام فصيح، وشاعر فصيح أو متكلم فصيح.

١- فصاحة الكلمة

تتحقق الفصاحة في الكلمة بسلامتها من خمسة عيوب:

١- تنافر الحروف.

٢- غرابة اللفظ.

٣- مخالفة الوضع.

٤- الكراهة في السمع.

٥- الابتذال.

أولاً: تنافر الحروف:

«التنافر»: صفة في الكلمة ينجم عنها ثقلها على اللسان وعُسْر النطق

بها، وهو نوعان:

أ - شديد: مثل كلمة (المعجع)^(١)، التي قيل إنها وردت في كلام أعرابي، عندما سئل عن ناقته، فقال: «تركبتها ترعى المعجع». وكلمة (الظش)، التي تعني الموضع الخشن، و(الصممع)، التي تعني صغير الرأس.

ب - خفيف: مثل كلمة (نقنق)، و(ارتخش)، بمعنى اضطرب، و(العسلوج) بمعنى الغصن، وكلمة (الثقاخ) التي وردت في قول الشاعر:

(١) قال الخليل: هذه كلمة شعاء لا تجوز في التأليف الرباعي، وقيل إنها شجرة يتداوى بورقها. قال أعرابي: إنما هو «المعجع». العين ٢/٢٧٤، وانظر لسان العرب (جمع).

وأحق مما يكره الماء قال لي: دَعِ الخمرَ واشرب من ثِقَاخِ مِيرِد
يعني: ماء عذبا صافيا.

ومن هذا النوع كلمة (مستشزرات) في قول امرئ القيس:
غداثُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَى الْعُلَا تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُشْنَى وَمُرْسَلٍ^(١)
ويرجع عسر النطق بكلمة (مستشزرات) إلى تنابع التاء والشين والزاي.
ثانياً: غرابة الكلمة:

هي أن تكون الكلمة وحشية؛ أي غير ظاهرة المعنى، ولا مألوفة الاستعمال
عند العرب الفصحاء لا بالنسبة إلى المولدين، وتعود غرابة الكلمة عند البلاغيين إلى
أمرين:

الأول: تتبع اللغات: ويعنون بذلك الكلمات التي لا يُعرف معناها إلا بعد
بحث وتنقيب في بطون الكتب، ومعاجم اللغة، فمنها ما يُعثر على معناه، ومنها
ملا يُعثر على معناه.

فمثال النوع الأول (الذي يعثر على معناه) كلمة (جر دحل) بمعنى السوادي،
و(الظرموق) بمعنى الطين، و(الاستمصال) بمعنى الإسهال، وكلمة (مشمخر) بمعنى
العالى، التي وردت في قول الشاعر يصف أسداً صرعه:

فَخَسِرَ مُضَرَّجاً بَدَمَ كَأَنِّي هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءَ مَشْمَخَرًا
ومثله قول الشنفرى:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدَ عَمَلَسٍ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٍ وَعَرْفَاءُ حَيْثَالٍ

(١) الغدائر: الثواب. مستشزرات: مرفوعات. العقاص: جمع عقبة: وهو ما جمع من الشعر. المرسل: المسرح غير
الفتول، يريد أن شعر حبيته كيف وطول، وأنه لغزارة وزع على أقسام: بعض مرتفع، وبعضه مرسل، ومنه ما
يُؤر مفتول، ومنه ما ضُم إلى غيره، أما المعقوص فإنه ناله بين المثني والمرسل.

(السيد): الذئب، و(العملس): السريع، و(الأرقط): النمر، و(الزهلول):
الناعم الجلد، أي الأملس، و(العرفاء): الضبع، و(الحيال): من أسماء الضبع.

ومثال النوع الثاني الذي لا يُعثر على معناه كلمة (جحلنجع) التي وردت في
قول أعرابي: «من طَمَحَةٍ صَبِيرُهَا جَحَلْنَجَع»^(١).

الثاني: ترددها بين معنيين أو أكثر بلا قرينة، مثل كلمة (مسرّجاً) في قول رؤبة

بن العجاج:

أَيَّامَ أَبَدَتْ وَاضِحاً مُفْلَجاً أَغَرَّ بَرَّاقاً وَطَرْقاً أَبْرَجاً
وَمَقْلَةً وَحَاجِباً مُزَجَجاً وَفَاحِماً وَمَرْسِناً مُسَرَّجاً^(٢)

فكلمة (مسرّجاً) هنا غير فصيحة؛ لأنه اختلف في تخريجها، فقبل إنها من
السراج؛ أي: إن هذا الأنف (المرسن) يشبه السراج في الريق واللمعان، وهناك من
رأى أنها من قولهم: سيوف سريجة، أي منسوبة إلى قين يدعى (سريجاً) اشتهر
بصناعتها، فيكون المراد تشبيه هذا الأنف بالسيف السريجي في الدقة والاستواء، وفي
كلتا الحالتين تبقى الكلمة غير فصيحة؛ لأنها غير ظاهرة الدلالة على معنى واضح
محدد.

ثالثاً: مخالفة الوَضع: ^(٣)

وهي أن تكون الكلمة مخالفة لما ثبت عن الواضع صرفاً كان أم غيره، فنحو
كلمة (ضننوا) في قول الشاعر:

مَهْلًا أَعَاذَلْ قَدْ جَرَبْتُ مِنْ خَلْقِي أَنِّي أَجُودُ لِأَقْوَامٍ وَإِنْ ضَنَّوْا

(١) الطمحة: النظرة. الصبر: السحاب المتراكم.

(٢) واضح: أي ثمر واضح، يريد أسنانها بيضاء. المفلج: الأسنان المتباعدة. الأغر: الأبيض. طرف أبرج: شدة البياض

في العين مع سعتها. المزعج: الطويل. المرسن: الأنف.

(٣) كلمة الوضع هنا أعم وأشمل من كلمة القياس؛ لأن الأولى تعني مخالفة القياس الصرفي، ومخالفة ما ثبت عن

إضاح الألفاظ للمعاني.

فالقِياس أن يقول: (ضنوا) بالإدغام لا بفكه.

ومنه قول الشاعر:

والقوم في أعيانهم خَزَرُ والخيل في أعيانها قَبْلُ^(١)

الشاعر هنا وافق القياس، لكنه خالف الوضع عندما جمع (عين). بمعنى العين الباصرة على (أعيان)، والصحيح أن تجمع على عيون، أما الأعيان فهي من قولهم: عين الناس بمعنى المشهور صاحب السيادة.

ومن مخالفة الوضع جمعهم (ناكس) على (نواكس)، و(مدير) على (مصدراء)، و(مشكلة) على (مشاكل)، والأفصح: ناكسو، مديرون، مشكلات.

ومنه أيضاً استعمال همزة القطع بدلاً من همزة الوصل، أو العكس. ويكثر هذا النوع في الشعر مراعاة للوزن، نحو قول جميل بثينة:

أَلَا لَا أَرَى إِنْثَيْنَ أَحْسَنَ شَيْمَةً عَلَى حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمْلٍ
فقطع همزة (انثين) مع أنها همزة وصل.

رابعاً: الكراهة في السمع:

ويعني بذلك أن تكون الكلمة وحشية مجحوة في الأسماع، خشنة على الطباع، يُتْرَأ من سماعها كما يُتْرَأ من سماع الأصوات المنكرة، لأن اللفظ — كما قال القزويني — من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه، ومنها ما تكره سماعه^(٢).

مثال ذلك كلمة (بُعاق) بمعنى السحابة الممطرة، فهي غير فصيحة لما فيها من كراهة في السمع، بخلاف كلمتي (المزنة) و (الدرمة) اللتين بمعناها، إلا أنهما فصيحتان تسكن إليهما النفس وتستلذ بسماعهما.

^(١) الخزر: ضيق العين. القبل: إقبال إحدى العينين على الأخرى، وعادة تقوم الخيل بذلك لمة في نفسها..

^(٢) انظر الإيضاح / ٢٧.

ونظير ذلك قول تأبط شراً:

يظل بمومة ويُمسي بغيرها جحيشاً ويغروري ظهوراً المسالك

فكلمة (جحيشاً) غير فصيحة يأنفها السمع، وينبو عنها الذوق.

خامساً: الابتذال:

وهو أن تكون الكلمة سوقية ابتذلت على ألسنة العوام، أو منه ما يكون قد ولده العوام أنفسهم، وأداروه على ألسنتهم حتى بدا باهتاً غريباً على أي استعمال أدبي، نحو قولهم: (بَلَّش) بمعنى بدأ، و(شاف) بمعنى نظر. وعليه كلمة (تفرعن) في قول أبي تمام:

جَلَيْتَ والموتُ مُبْدٍ حُرٌّ صَفْحَتِهِ وقد تَفَرَّعَنَ في أفعالِهِ الأَجَلُ

فكلمة (تفرعن) من الكلمات المبتذلة التي اشتقها العامة من اسم (فرعون)؛ فيقولون (تفرعن فلان) إذا أرادوا وصفه بالطغيان والاستبداد.

٢- فصاحة الكلام

تعني فصاحة الكلام سلامته من ثلاثة عيوب، مع فصاحة كل مفردة منه، وهي:

١- تنافر المفردات، ولو كانت مفرداتها فصيحة.

٢- ضعف التأليف.

٣- التعقيد بنوعيه: اللفظي والمعنوي.

أولاً: تنافر الكلمات:

هو أن تكون الكلمات مجتمعة متناهية في الثقل على اللسان، مما يؤدي إلى عسر النطق بها، وإن كانت كل مفردة منها صحيحة وفصيحة.

والتنافر ضربان: أحدهما شديد، والآخر دون ذلك.

فمثال الأول قول الشاعر:

وَقَبِيرُ حَرْبٍ يُمْكِنُ قَفْرُ وَلَيْسَ قُرْبُ قَبِيرِ حَرْبٍ قَبِيرُ

فالتنافر واقع بسبب تكرار الكلمات المتماثلة في الشطر الثاني، ولو أخذنا كل كلمة بمفردها لوجدناها جميعاً كلمات فصيحة سهلة النطق لا عيب فيها، لكن ضم بعضها إلى بعض على هذه الشاكلة مع تقارب حروف كلماتها أكسبها الثقل.

ومن هذا النوع قول المتنبي:

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا قَلَاقِلَ عَيْسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلٌ^(١)

أما التنافر الخفيف فيستدلون عليه بقول أبي تمام:

كَرِيمٌ مَنَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالسُّورَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَخَدِي

فالتنافر ناشئ هنا من تكرار كلمة (أمدحه)، مع ما فيها من ثقل؛ لأن الحاء والهاء مخرجهما واحد، وهو الحلق، لكنه يبقى أخف ثقلًا من البيتين السابقين

ومن قبيل التنافر الناشئ عن التكرار قول المتنبي:

عَظُمَتْ فَلَمَّا لَمْ تُكَلِّمْ مَهَابَةً تَوَاضَعَتْ وَهُوَ الْعُظْمُ عُظْمًا عَنِ الْعُظْمِ

ثانيًا: ضَعْفُ التَّأْلِيفِ:

هو أن يكون تأليف الكلام مخالفًا لما اشتهر من قواعد النحو من ذلك — مثلاً

— الإضمار قبل الذكر لفظاً ومعنى وحكماً، نحو قول زهير:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَلُومُنَّ قَوْمُهُ زُهَيْرًا عَلَى مَا جَرَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؟

(١) القلقلة: التحريك. الحشا: ما في الجوف. و(القلال) الأولى: جمع قلقل، وهي الناقة الخفيفة. و(القلال) الثانية: جمع قلقلة، وهي الحركة. بقول: حركت بسبب الهم الذي حرك نفسي إبلاً خفلاً في السر، يعني سافرت ولم أخرج بالمقام الذي يلحقني فيه الضيم. ويجوز أن تكون (القلال) الثانية أيضاً بمعنى الأولى... انظر ديوانه بشرح الرفوقى ٢٩٣/٣.

فالضمير في (قومه) عائد على (زهيراً)، وهو متأخر لفظاً ومعنى وحكماً.

ومنه وصل الضمير بعد (إلا)، كما في قول الشاعر:

وما علينا إذا ما كُنْتَ جَارَتْنَا أَلَا يُحَاوِرُنَا إِلَّا كِدْيَارُ

فالأصل أن يقول: إلا إياك، لكنه خالف القاعدة مراعاة للوزن.

وعليه أيضاً القول: (في الجامعة الطالب) فهو تركيب غير فصيح لما فيه من ضعف التأليف، لأن المبتدأ لا يجوز تأخيره ما لم يكن نكرة، وهنا جاء معرفة.

ثالثاً: التعقيد:

هو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المقصود، ولذلك سبيان:

الأول: لفظي، ومعناه: أن يختل نظم الكلام، فلا يدري السامع كيف يتوصل إلى معناه، لخلل واقع في ترتيب كلماته، بسبب ما يحصل فيه من تقدم، أو تأخير، أو حذف، أو إضمار، أو تقدم الصفة على الموصوف، أو الصلة على الموصول... أو غير ذلك.

مثال ذلك القول: (ما اشترى إلا واحداً زيد مع كتاباً صديقه)، فهذا كلام غير فصيح لما فيه من تعقيد لفظي شديد، إذ أصل الكلام: (ما اشترى زيد مع صديقه إلا كتاباً واحداً)، فقدّمت الصفة على الموصوف، وفُصل بين المتلازمين، وهما أداة الاستثناء والمستثنى، وبين المضاف والمضاف إليه.

ومن هذا النوع قول المتنبي:

أَنْسَى يَكُونُ أَبَا الْبَرِّئَةِ آدَمَ وَأَبُوكَ وَالثَّقَلَانِ أَنْتَ مُحَمَّدُ

فالشاعر لم يوفق — هنا — في ترتيب كلمات البيت وفق ترتيب المعاني في النفس، فتعقد لفظه، وغمض معناه؛ لأن أصل الكلام: (أنى يكون آدم أبا البرية، وأبوك محمد، وأنت الثقلان؟)، ففصل بين المبتدأ والخبر (أبوك محمد)، وقدم الخبر على المبتدأ تقديماً قد يدعوا إلى اللبس في قوله: (والثقلان أنت).

ولمة نوع آخر أقل تعقيداً، نحو قول الفرزدق يصف ذئباً:
تعال، فإن عاهدتني لا تنفوني نكن مثل من يا ذئبُ يصطحبان
فأصل الكلام أن يقول: (نكن يا ذئب مثل من يصطحبان)، ففصل بين
الموصول وصلته، فأصاب التركيب نوعاً من التعقيد اللفظي.

الثاني: معنوي، ومعناه: أن يكون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد بسبب
ما اعتراه من كثرة اللوازم أو الكنايات، فيصبح انتقال الذهن من المعنى الأول إلى
المعنى الثاني عسيراً. وقد استدلوا على هذا النوع بقول العباس بن الأحنف:
سأطلبُ بعدَ الدارِ عنكمَ لتَقْرُبُوا وتَسْكُبُ عَيْنَيِ الدُمُوعِ لِتَجْمُدَا
يقول القزويني معلقاً على هذا البيت: «كنى بسكب الدموع عما يوجبه
الفراق من الحزن، وأصاب؛ لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عنه، كقولهم:
أبكائي وأضحكني، أي أساءني وسرّني، ثم طرد ذلك في نقيضه، فأراد أن يكني عما
يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود لظنه أن الجمود خلّو العين من البكاء في
حال إرادة البكاء؛ فلا يكون كناية عن المسرة، وإنما يكون كناية عن البخل، ولو
كان الجمود يصلح أن يُراد به عدم البكاء في حال المسرة لجاز أن يُدعى به للرجل،
فيقال: لا زالت عينك جامدة، كما يقال: لا أبكى الله عينك، وذلك مما لا يُشك
في بطلانه»^(١).

هذه هي عيوب فصاحة الكلام التي استقرت عند البلاغيين، لكن لمة عيوب
أخرى أضافها بعضهم مثل: كثرة التكرار، وتتابع الإضافات.
وفي ذلك نظر؛ لأنهما إن ثقل هما اللسان، فقد حصل الاحتراز عنهما
بالتنافر، وإلا فلا يخلو بالفصاحة. كما أن تتابع الإضافات^(٢) لا يخل دائماً بفصاحة

^(١) الإيضاح / ٣٤.

^(٢) استدلوا على هذا النوع بالشطر الأول من بيت ابن بابك

حماسة جرّعى. تومّة الجندل اسجعي.

الكلام؛ بدليل أنهما اجتماعا في قول سيد الفصحاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم».

ثالثاً: فصاحة المتكلم:

هي ملكة يُقْتَدَرُ بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح. وهذه الملكة صفة راسخة في نفس المتكلم تمكنه من إنشاء كلام فصيح في شتى ضروب الكلام: من مدح وهجاء، وفخر ورثاء، وهتان ومراث، ورسائل وخطب... وما إلى ذلك. ولن يبلغ الفصيح هذه المرتبة إلا إذا أكثر من الاطلاع على كلام العرب شعرهم ونثرهم، وسير ما فيها من أسرار وخفايا، وألمَّ بقواعد النحو والصرف، واطلع على كتب الأدب، وحفظ أقوال الفصحاء وحكمهم وأمثالهم، وكانت له دراية بأشكال التعبير من مجازات وكنائيات وغيرها، واهتم بمحاكاة أساليب البلاغيين، وأكثر من التدريبات والتطبيقات حتى يكتسب مهارة التعبير عن مقاصده، وما يجوز في خاطره بأيسر السبل وأفضلها.

ثانياً: البلاغة

البلاغة — لغة — تعني الوصول والانتهاء، يقال: بلغت المكان بلوغاً: وصلت إليه، وبلغ الركب المدينة إذا انتهى إليها. وبلغت النخلة وغيرها من الشجر: حان إدراك ثمرها. يقال: رجل بليغ: حسن الكلام فصيح، يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه. ^(١)

والبلاغة — اصطلاحاً — تقع وصفاً للكلام والمتكلم، ولم يُسمع وصف الكلمة بما لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه.

أولاً: بلاغة الكلام

هو مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، ويُقصد به — (الحال): الأمر الداعي للمتكلم إلى أن يراعي مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، هذه الخصوصية التي راعاها مع الكلام هي (مقتضى الحال)، فإذا كان المخاطب — مثلاً — ينكر حضور زيد، فإنكاره حال تدعو المتكلم إلى أن يخبره بحضوره مؤكداً؛ فيقول: (إن زيدا حاضر)، فتأكيد الخبر هو مقتضى الحال.

ومقتضى الحال مختلف؛ لأن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يغير مقام التعريف، ومقام الخبر يغير مقام الإنشاء، ومقام التقديم يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف... وهكذا، فإن لكل كلمة مع صاحبها مقام، وهذا

^(١) انظر لسان العرب / بلغ.

المقام يفرض على المتكلم أن يخاطب الناس وفق عقولهم ومقاماتهم في الفهم؛ لأن لكل مقام مقالاً، ولأن لكل مخاطب أسلوباً يتناسب وأوضاعه الثقافية، أو الاجتماعية، أو العقلية، فينبغي تلوين الأحاديث تبعاً لظروف المخاطبين وأحوالهم، فيختصر عندما يتطلب المقام الإيجاز، كما في مقامات التعزية، وإرسال البرقيات، ومخاطبة الحكام... وما إلى ذلك، ويُسهب في المقام الذي يتطلب الإطالة والشرح، كما في مقام التعليم والتدريس، وإلقاء الخطب، ومخاطبة العامة، ومن لم يؤت كثيراً من الذكاء وسرعة الإدراك... وغير ذلك.

وقد أجاد العرب في هذه المقامات فألبسوا كل حالة لبوسها الخاص بها، وقد عبر عن ذلك الخطيئة حين خاطب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قائلاً:

تَحْنَنُ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً
وقال غيره واصفاً حال العرب:

يرمون بِالخُطْبِ الطَّوَالَ وتارةً وحي الملاحظِ خيفة الرقباء

وإذا ما قارنا بين قول بشار يتحدث عن جاريته (ربابة):

رَبَابَةُ رُبَّةُ الْبَيْتِ نَصَبُ الْخُلِّ فِي الرِّبِّ
لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ
وقوله مفتخراً:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضَرِّيَّةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمًا
إِذَا مَا أَعْرَضْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَّا مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمًا

نرى البون شاسعاً بين القولين؛ من حيث قوة الأسلوب وجزالته، وطبيعة اختيار الألفاظ، وتخير الوزن المناسب لكل قول، وسر ذلك أن الشاعر اختار لكل مقام الحال التي تستدعيها، فعندما خاطب جاريته آثر أن يأتي كلامه سهلاً واضحاً لا يعسر عليها فهمه واستيعابه؛ لأنه لو خاطبها بغير هذا لكان خالف المألوف

فخرج — بذلك — على مقتضى الحال.

لكنه عندما أراد التفاخر والتباهي والاعتداد بنفسه ويقومه، واستنهاض الهمم إلى الحرب، استدعى منه ذلك أن يتخير ألفاظه ومعانيه، وأن يلبسها لبوساً آخر يناسب واقع الحال، فجاء أسلوبه قوياً رصيناً حافلاً بصور الشجاعة والبأس.

ثانياً: بلاغة المتكلم

هي ملكة يُقْتَدَرُ بها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال في شتى فنون الكلام وأغراضه، مع فصاحته. وهذه الملكة لا يصل إليها إلا من تبحر في كلام العرب، وخاض في سنن تخاطبهم، وأجاد التصرف في أغراض الكلام وفنونه، وأحسن التعبير عن خلجات نفسه ومكونات صدره برائع القول، وساحر البيان، مما يأخذ بألباب السامعين ويوقفهم على غاية ما يريد بدقة ووضوح.

والبلاغة — بهذا — تقوم على ثلاث دعائم:

١ — حسن اختيار الكلمة والتركيب.

٢ — حسن تركيب المعاني والتأليف فيما بينها.

٣ — الدقة في اختيار الأسلوب الذي يصلح للسامعين، والنزعة النفسية التي تسيطر عليهم.

فَرُبَّ كلام كان في نفسه حسناً رائعاً، لكنه إذا ما خالف المقام جاء في غير محله، وحلَّ غير موقعه، فخرج عن حد البلاغة، وأصبح عرضة لسهام الناقلين. وتزخر كتب الأدب والبلاغة بشواهد وأمثلة كانت في نفسها فصيحة متينة مؤثرة، لكنها خرجت عن حد البلاغة؛ لأن أصحابها أخفقوا في مراعاة المقام، أو لم يراعوا ما يجب مراعاته.

من ذلك — مثلاً — ما أنشده أبو النجم العجلي عندما دخل على هشام بن عبد الملك قائلاً:

صفراء قد كادت ولما تفعل كأنها في الأفق عينُ الأحولِ
وكان الخليفة أحول فأمر بسجنه.

وحمل علماء الذوق على المتنبي قوله مادحاً:
وما طَرَبِي لِمَا رَأَيْتُكَ بِدَعَاةٍ لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَرَاكَ فَاطْرَبُ
لأنه أنزل ممدوحه منزلة ما يُضحك.

كما استقبحوا افتتاح المتنبي أيضاً عندما خاطب كافوراً بقوله:
كفى بك داءً أن ترى الموت شلفياً وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانياً
وعابوا إسحاق بن إبراهيم عندما قال في وصف قصر المعتصم مادحاً:

يا دار غيَّرَك البلى فمحاكِ يا ليت شعري ما الذي أبلاكِ
فتطير الخليفة، وضاحت صدور السامعين، إلى حد أنه قيل: إن الخليفة لم يطأ
ذلك القصر لاحقاً، كل هذا بسبب إخفاق المتكلمين في مراعاة الأسلوب الذي
يناسب الموضوع أو الحال.

وأخذ عبد الملك بن مروان على نصيب قوله: ^(١)

أهيمُ بدْعدي ما حييت فإن أُمْتُ فواحرنا من ذاهيمُها بَعدي؟
وقيل إن بعض من حضر قد قال: أساء القول، أيحزن لمن يهتم بها بعده؟ فقال
عبد الملك: فلو كنت قائلاً، ما كنت تقول؟ فقال:

أهيمُ بدْعدي ما حييت فإن أُمْتُ فلا صلحت دَعْدُ لذي خُلَّة بَعدي

ولكن — في مقابل هذا — فإن كتب البلاغة تزرخ بالشواهد والأمثلة التي

(١) انظر كتاب الصناعتين / ١١٩ — ١٢٠.

أبدع أصحابها فيها، فكانوا — بحق — أسياد البلاغة ورموزها. من ذلك — مثلاً — كتاب سيد الفصحاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي أرسله إلى أهل فارس، قال فيه: «من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، فأدعوك بداعية الإسلام، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة، ليُنذِر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن آتيت فإنما عليك إثم الجحوس».

ثم كتب إلى وائل بن حجر الحضرمي وقومه، فألبس تعابيره لبوساً أخرى مغايرة للأولى، قائلاً: «من محمد رسول الله إلى الأقيال العاهلة من أهل حضرموت، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة على النية الشاة، والنية لصاحبها، وفي السيوب الخمس لاخلاط ولاوراط، ولاشناق ولاشغار، ومن أجى فقد أربى، وكل مسكر حرام»^(١).

ولعله قد وضع لنا من الأمثلة السابقة أن الكلام لا يمكن أن يوصف بالبلاغة إلا بعد أن يستوفي شروط الفصاحة، ويكون موافقاً للمقام، ولذلك قالوا: إن كل كلام بليغ فصيح، وليس كل كلام فصيح بليغاً.

وهذا ما أكدته ابن الأثير عندما حدد مفهوم كل من الفصاحة والبلاغة بقوله: «إن الكلام الفصيح هو الكلام الظاهر البين. وأعني بالظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة بحيث لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتاب لغة، بينما البلاغة شاملة الألفاظ والمعاني، وهي أخص من الفصاحة كالإنسان من الحيوان، فكل إنسان حيوان، وليس كل حيوان إنسان. والبلاغة لا تكون إلا في اللفظ والمعنى معاً،

^(١) (الأقيال): واحده قِيل وهو الملك. و(العاهلة): الذين أفروا على ملكهم. و(النية): الأربعمون من الغنم. و(النية): الشاة الرائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى. و(السيوب): المعادن. و(خلاط): هو أن يخلط رجل إبله بإبل غيره أو بقره أو غنمه؛ ليمنع حق الله تعالى فيها، ويخص المصدق فيما يجب له. و(الوراط): الفش، و(الشناق): ما بين الفريضتين حتى تتم. و(الشغار): هو أن يزوج كل واحد صاحبه امرأة على أن يزوجه أخرى بلا مهر. و(أجى): من الإجباء وهو بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه. انظر علوم البلاغة للمراغي/ ٣٩.

بشرط التركيب، لأن اللفظة الواحدة لا يُطلق عليها اسم البلاغة، بينما يطلق عليها اسم الفصاحة؛ إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحُسْنُ، وأما وصفُ البلاغة فلا يوجد في اللفظة الواحدة لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم الكلام»^(١).

واعلم أن المتأخرين من البلاغيين جعلوا البلاغة في ثلاثة علوم، هي: علم البديع وعلم البيان وعلم المعاني.

أما علم البديع فهو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة، أي هو علم يدرس طرق تزيين الكلام وتحسينه وتنميته سواء كان ذلك في ألفاظه من جناس أو سجع أم في معانيه كالمطابقة ومراعاة النظر وغير ذلك.

وأما علم البيان فهو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بعد رعاية المطابقة ومقتضى الحال؛ أي هو علم يدرس الصورة الفنية من تشبيه واستعارة وكناية.

وأما علم المعاني — وهو موضوع هذا الكتاب — فهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، يُعنى بدراسة العلائق بين الكلمات في الجملة المفيدة وأحوال تلك الكلمات، ويمكن القول: إنه علم يدور حول تحليل الجملة إلى عناصرها والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان العربي ومواقع ذكره وحذفه وتقديمه وتأخيرها، ومواقع التعريف والتنكير والتقيد والإطلاق والتأكيد وعدمه ومواقع القصر، واقتران جملة بجملة، ومواقع العطف والإيجاز والإطناب وما إلى ذلك.

وقد رأيت أن الشق الثاني من التعريف في كل علم من علوم البلاغة المشار

(١) انظر المثل السائر ٨١/١، ٨٤ — ٨٥.

إليها هو وجوب مراعاة مقتضى الحال أو وجوب مطابقة الكلام للمقام، وهذا أمر قد بنيت عليه البلاغة كلّها، فلا يستحق كلام أن يوصف بالبلاغة حتى يكون مطابقاً لمقتضى الحال، وقد سئل أعرابي في العصر الجاهلي — عن بلاغة أعرابي آخر فقال: كان والله يضع الهناء مواضع النقب، أي أنه كان يعرف أين يضع كلمته في العبارة وأين يضع عبارته في المقام.



تدريبات محلولة على فصاحة الكلمة

أولاً: بين ما أدخل بفصاحة الكلمات فيما يأتي:

١- قال أبو تمام:

نَعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ أَرَوْعُ لَا جَيْدَرُ وَلَا جَبَسٌ^(١)

كلمة (جيدر) غير فصيحة لغرابتها؛ إذ هي قليلة الاستعمال وغير مأنوسة.

٢- قال الشاعر:

يَا تَرْجِسُ الدُّنْيَا أَقِمِ أَبَدًا لِلْإِقْتِرَاحِ وَدَائِمِ التَّنْخَبِ

كلمة (للإقتراح) غير فصيحة؛ لمخالفتها الوضع، والصواب أن تكون بلا همزة، لأن همزها همزة وصل لا قطع.

٣- وقال آخر:

وَأَجِدْ طَعْمَ السَّقَاءِ سَامِطٍ وَخَائِرَ عَجَالِطٍ عَكَالِطٍ^(٢)

كلمتا (عجالط) و(عكالط) غير فصيحيتين، لغرابتهما، ولكراهتهما في السمع.

٤- قال المتنبي:

وَلَا يُتَرَّمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلَا يُخْلَلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ مُتَرَّمٌ

كلمتا (حالل) و(يخلل) غير فصيحيتين لمخالفتهما الوضع؛ إذ القياس الإدغام؛

أي (حال) و(يحل).

(١) الأروع: الذي يعجبك حسنه. جيدر: القصير. الجبس: الثقيل.

(٢) البيت في وصف اللين. والسقاء: نوع من الجلد يكون للماء واللين، والسامط: اللين الذي ذهب حلاوته.

والعجالط والعكالط: اللين الخائر.

٥- وقال أيضاً:

جَفَحَتْ، وَهُمْ لَا يَجْفَحُونَ هَا، بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغْرَ دَلَائِلُ^(١)
كلمتا (جفحت) و(يجفحون) غير فصيحيتين لغرابتهما وكراهتهما في السمع.
كما أن في البيت تعقيد لفظي؛ لأن نظام البيت: جفحت هَا شيم دلائل على
الحسب الأغر وهم لا يجفحون هَا.
٦- شراب مُهْضِم.

كلمة (مهضم) غير فصيحة لمخالفتها الوضع؛ لأن اسم الفاعل من الفعل
الثلاثي هو على وزن فاعل، أي هضم هاضم.
٧- قال الشاعر:

فَأَيَقَنْتُ أُنَى عِنْدَ ذَلِكَ ثَائِرَ غَدَائِمٍ أَوْ هَالِكٍ فِي الْهَوَالِكِ
كلمة (الهالك) غير فصيحة، لمخالفتها الوضع، لأنها تجمع على (الهالكين).
٨- قال زهير بن أبي سلمى:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكْثَرْ غَنِيمَةً بِنَكْهَةٍ ذِي قُرْبَى وَلَا بِحَقْلٍ^(٢)
كلمة (حقلد) غير فصيحة؛ لغرابتها وثقلها على السمع.
٩- قال الشاعر:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْأَجَلِّ أُنْتُ مَلِكُ النَّاسِ رَبًّا فَاقْبَلِ
كلمة (الأجل) غير فصيحة لمخالفتها الوضع، والصواب أن تكون (الأجل)
بالإدغام.

١٠- قال الشاعر:

^(١) جفحت: فحرت وتكرت.

^(٢) الحقلد: البحيل السيء الخلق.

مُشْمَخِرٌ تَعْلُو لَه شُرْفَاتٌ رُفَعَتْ فِي رُؤُوسِ رَضْوَى وَقَلْنَسٍ

كلمة (مشمخر) غير فصيحة لغرابتها وثقلها على السمع.

١١ — قال الفرزدق:

وَإِذَا الرِّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ خَضَعَ الرِّقَابَ نَوَاكِسَ الْأَبْصَارِ

كلمة (نواكس) غير فصيحة لمخالفتها الوضع، فهي تجمع على (ناكسو)؛ لأنها وصف لمذكر عاقل، فيجمع فاعل على فواعل.

ثانياً: بَيِّنْ مَا أَخْلَ بِفَصَاحَةِ الْكَلَامِ فِيمَا يَأْتِي:

١ — قال المتنبي:

لَكَ الْخَيْرُ غَيْرِي رَامَ مِنْ غَيْرِكَ الْغِنَى وَغَيْرِي بَغِيرِ اللَّادِيقَةِ لَا حِقْ

في البيت تنافر في الكلمات سببه تكرار كلمة (غير).

٢ — قال سليط بن سعد:

حَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغِيلَانَ عَنْ كِبَرٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا جُوزِي سِنِمَارٌ^(١)

في البيت ضعف التأليف؛ لأن الهاء في (بنوه) تعود على متأخر في اللفظ والرتبة، وهو (أبا الغيلان).

٣ — قال الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ بَعْدَ خَطِّ هَجَّتِهَا كَانَ قَفْرًا رُسُومَهَا قَلَمًا

في البيت تعقيد لفظي شديد، والأصل: فأصبحت بعد هجتها قفراً كأن قلماً خطَّ رسومها.

(١) في البيت مثل يضرب لمن يجازي على الخير بالشر. و(سنمار) هذا اسم الرجل الذي بنى للنعمان بن امرئ القيس قصراً عظيماً، لكن ما إن انتهى من بنائه حتى أمر النعمان بإلقائه من أعلاه، خشية أن يبني مثله لغيره؛ فقال الشاعر هذا البيت يدعو فيه على أبي الغيلان بأن يجازيه أولاده — مع حسن رعايته لهم — شر جزاء، كما جُوزي سنمار.

٤- قال المتنبي:

خَلَّتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَا اللَّهُ كَيْ لَا تَحْزَنَا
في البيت ضعف التأليف؛ لأن المتنبي وصل بين الضميرين، وقدم غير الأعراف،
وقد أخطأ في هذا؛ لأنه في حال اجتماع ضميري المخاطب والغائب فالواجب
تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب، فكان الأولى أن يقول: (فأعاضها الله
إياك) أو (فأعاضكها) بتقديم الأخص.

٥- وقال آخر:

مَالِي فَتَنَتْ بِلَحْظِكَ الْفَتَاكَ وَسَلَوْتُ كُلَّ مَلِيحَةٍ إِلَّاكَ
في البيت ضعف التأليف؛ إذ جاء بالضمير متصلاً بعد أداة الاستثناء،
والصواب أن يأتي منفصلاً، فيقول: إلا إياك.
٦- قال الشاعر:

حَزَى رَبِّهِ عَنِّي عَدِي بْنُ حَاتِمٍ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ
في البيت ضعف التأليف، حيث عاد الضمير في قوله (ربه) على متأخر لفظاً
ورتبة، وهو (عدي...)، والأفصح أن يقول: حَزَى عَدِي بْنُ حَاتِمٍ عَنِّي رَبِّهِ...
٧- قال امرؤ القيس:

أَلَا إِنِّي بَالٍ عَلَى جَمَلٍ بَالٍ يَقُودُ بِنَا بَالٍ وَيَتَعْنَا بَالٍ
في البيت تنافر في الكلمات سببه تكرار كلمة (بال).

٨- قال الفرزدق:

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إِلَّا مُمْلِكًا أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهُ
في البيت تعقيد لفظي شديد، والأصل فيه أن يقول: وما مثل المدوح في
الناس حي يقاربه (في المكارم) إلا مملكاً، أبو أم ذلك المملك أبو المدوح، أي لا

يحاكيه أحد إلا ابن أخته.

٩- قال المتنبي:

أَرْضُهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلُهَا لَوْ كَانَ مِثْلُكَ فِي سِوَاهَا يُوجَدُ

في البيت تنافر سببه تكرار كلمتي (مثل) و(سواها).

١٠- قال امرؤ القيس:

وَأَرْكَبُ فِي الرَّوْعِ خَيْفَانَةً كَسَا وَجْهَهَا سَعَفٌ مُتَشِيرٌ^(١)

في البيت تعقيد معنوي؛ إذ شبه الفرس بالجرادة، ثم وصف هذه الفرس بأن شعر ناصيتها طويل كسعف النخل يغطي وجهها، وهذا الوصف مرفوض؛ لأن الشائع عند العرب أن الفرس لا توصف بالأصالة إذا كانت على هذه الصورة.

(١) الخيفانة في الأصل: الجرادة، ويقصد بها هنا الفرس الخفيفة.

تدريبات يطلب حلها

— بيّن ما أخل بفصاحة الكلمة أو الكلمات فيما يأتي:

- ١— احرنجم^(١) القوم في ساحة الجامعة
- ٢— كيف ترثي التي ترى كل جفن
- ٣— مبيق من دمشق على فراش
- ٤— ومن جاهل بي وهو يجهل جهله
- ٥— شربة شمطاء من يرتمي بها
- ٦— قد قلت لما اطلحتم الأمر وابتعثت
- ٧— إن بني للام زهده
- ٨— فإن يك بعض الناس سيفاً للدولة
- ٩— وقد غلوت إلى الخانوت يتبعني
- ١٠— كسا جلته ذا الحليم أثواب سؤدد
- راءها غير جفنها غير راقبي
- حشاه لي بحر حشاي حاش
- ويجهل علمي أنه بي جاهل
- ثنيته، ولو بين الخماسي والطفل
- عشواء تالية غبسا دهايسا^(٢)
- مالي في صدورهم من مودده
- ففي الناس بوقات لها وطبول
- شاو مثل شلول شلشل شول
- ورقي نلاه ذا التدي في ذرى المجد

^(١) احرنجم: اجتمع.

^(٢) اطلحتم: اشتد وعظم. عشواء: مؤنث الأعشى، وهي الناقة الضعيفة البصر. غبسا: جمع غبساء أو أغبس: وهي المظلمة. دهايسا: الدواهي.

لمحة موجزة

عن نشأة علم المعاني وتطوره

(علم المعاني) أحد علوم البلاغة الثلاثة المعروفة: المعاني، والبيان، والبديع. وقد سبق أن أشرنا إلى تعريفه بأنه: «العلم الذي يعرف به أحوال اللفظ العربي التي لها يطابق مقتضى الحال»^(١).

و(علم المعاني) من المصطلحات التي أطلقها البلاغيون على مباحث تتصل بالجملة، وأحوال تركيبها، وحسن تأليفها على نحو يؤدي إلى الوفاء بالمعنى. وقد حصر علماء البلاغة أحوال اللفظ بثمانية أبواب: أولها: أحوال الإسناد الخيري، وثانيها: أحوال المسند إليه، وثالثها: أحوال المسند، ورابعها: أحوال متعلقات الفعل، وخامسها: القصر، وسادسها: الإنشاء، وسابعها: الفصل والوصل، وثامنها: الإيجاز والإطناب والمساواة^(٢).

ومن المعروف أن علم النحو درس هذه الأحوال والتراكيب، ولكن دراسته لها اتخذت بُعداً آخر، فهو — على سبيل المثال — يدرس التقديم والتأخير؛ فيبين وجوب التقديم، أو جوازه، أو امتناعه، ويدرس التعريف والتنكير، وأنواع الحذف ومواقعه، ويتناول المبتدأ والخبر فيدرس أحوالهما وأحكامهما. لكنه لا يبعد أكثر من ذلك، فلا يدرسهما من حيث وقوعهما مطلباً بيانياً يقتضيه الحال، ومعنى ذلك أنه

(١) الإيضاح / ٥٢.

(٢) انظر أسباب ترتيب هذه الأبواب على هذه الصورة في البلاغة العربية قراءة جديدة / ٢١٥.

لا يجوز الفصل بين النحو والبلاغة؛ فالعلاقة بينهما وثيقة متينة، والصحة النحوية هي شرط للصحة البلاغية. نقول هذا انطلاقاً من مفهوم البلاغيين لعلم المعاني الذي يدرس ويبحث ما وراء الإفادة الأصلية التي تهتم بها مباحث النحو واللغة.

وتقتضي طبيعة البحث أن ندرس النشأة الأولى لهذا العلم، والروافد التي رفدت مسيرته، وساعدت على نضجه في تراثنا العربي.

فقد مرَّ علم المعاني بمراحل كسائر علوم العربية الأخرى، حتى استوى على ما هو عليه الآن، وأصبح الركن الأول في علم البلاغة العربية، وقد أسهمت جهود كثيرة في نشأته؛ إذ تضافرت جهود النحاة مع جهود المفسرين والباحثين في إعجاز القرآن، فكان لكل منهم دوره البارز في نشأة هذا العلم وتطويره.

فإذا ما ذهبنا نستقصي بحث هذا الباب في كتب الأوائل نجدهم لا يشيرون إلى اسمه هذا، أو إلى الاسم الآخر الذي عرف به بعد ذلك وهو (النظم)، وإن كانت معالم هذا العلم واضحة في كتاباتهم.

فقد تحدث سيويه (ت ١٨٠ هـ) مثلاً عن النظم،^(١) وحسن تأليف الكلام، وتأليف العبارة وما فيها من حسن أو قبح أو استقامة، والمعنى وما فيه من صدق أو كذب، مؤكداً ارتباط النظم بأحوال النحو. وقد دفعه ذلك إلى التوقف عند بعض الأساليب التي حدث فيها تصرف بلاغي: كالنداء،^(٢) والاستفهام،^(٣) والتقديم، والتأخير،^(٤) والحذف،^(٥) وغير ذلك.

وفي القرن الثالث ألف أبو عبيدة (ت ٢١٠ هـ) كتابه (مجاز القرآن)، وفيه

(١) انظر الكتاب، باب الاستقامة من الكلام والإحالة ٢٥/١ - ٢٦.

(٢) نفسه ٢/٢١٥.

(٣) نفسه ٩٨/١ - ١٠١، ١٢٧، ٣٤٣.

(٤) نفسه ٣٤/١ - ٨٠، ٨١.

(٥) نفسه ١/٢٨٠، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٤٥/٢.

تناول كثيراً من المباحث البلاغية، ومن ضمنها فنون يقوم علم المعاني بدراساتها؛ كالالتقديم والتأخير،^(١) والحذف،^(٢) والاستفهام،^(٣) والأمر،^(٤) والإطناب،^(٥) وغير ذلك.

ونجد نظير ذلك عند الفراء (ت ٢٠٧ هـ)^(٦). وهكذا أسهم هؤلاء العلماء في وضع حدود هذا العلم لكنهم، مع هذا لم يسموا هذه المباحث نظماً، وإنما هي قواعد تسلكها العرب في كلامها وتعبيرها.

ثم جاء الجاحظ (٢٥٥ هـ) فكتب كذلك في موضوعات علم المعاني، ودرسها دراسة دقيقة، مشيراً إلى أن النظم يتمثل في تلاحم أجزاء الكلام، ومشاكلة اللفظ للمعنى، مع مطابقته للحال. يقول: «ومنى شاكل ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لِفَقاً، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قميناً بحسن الموقع، وباتساع المستمع»^(٧).

لكن مفهوم «النظم» بدأ يأخذ بعداً أدق على يدي المبرد الذي صرح بمصطلح (النظم)، إلا أنه لم يبعد كثيراً عما ذكره الجاحظ. يقول: «فحق البلاغة إحاطة القول بالمعنى، واختيار الكلام، وحسن النظم، حتى تكون الكلمة مقاربة أختها، ومعاضدة شكلها»^(٨).

(١) انظر مجاز القرآن ١/١٢، ١٤٥، ١٧٣، ١٨٥، ٣٦٤، ٣٦٨.

(٢) نفسه ١/١١، ١٠٠، ١٦٥، ٢٨٥، ٦٣/٢، ١٤٣، ٢٢٧.

(٣) نفسه ١/٣٥، ٦٣، ١٨٣، ٢٨٧، ١١/٢، ١٥٠، ١٨١، ٢٣١، ١٤٩.

(٤) نفسه ٢/١٩٧.

(٥) نفسه ١/١٢، ٧٠، ٣٠٤، ٣٠٤/٢.

(٦) انظر جهود المفسرين في البحث البلاغي (رسالة ماجستير) ١١٧/ — ١٧٠.

(٧) البيان والتبيين ٧/٢ — ٨.

(٨) البلاغة ٨١/.

وإذا ما وصلنا بالنظم إلى أبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) نرى أن عملة التطور قد وسعت من أبعاد هذا المصطلح؛ فبدأ يستقل بأبحاث خاصة به، فهذا هو ذا العسكري يفرد الباب الرابع «للبیان عن حسن النظم وجودة الرصف والسبك» لكنه، مع هذا، لا يفرق بين هذه المصطلحات. يقول: «فحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يغمي المعنى، وتضم كل لفظة منها إلى شكلها، وتضاف إلى لفظها، وسوء الرصف تقدم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها عن جوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها»^(١).

وقد كان لقضية إعجاز القرآن أثرها في تطوير هذا العلم، فقد استرعت فنون التعبير في القرآن انتباه العلماء لمعرفة كنه هذا الإعجاز القرآني وأسلوب نظمته، وسماته وخصائصه التي تفوق أساليب العرب ونظمها، فكان هذا الأمر دافعاً لظهور كثير من التأليف والدراسات البلاغية حول إعجاز القرآن.

ومن هذه الكتب «النكت في إعجاز القرآن» للرماني (٣٨٦ هـ) الذي تناول فيه مؤلفه كثيراً من القضايا التي تدخل في نطاق علم المعاني؛ كالإيجاز، والإطناب،^(٢) وغيرها، ولم يقتصر المؤلف على هذا، بل تعداها إلى دراسة حسن النظم والتأليف، وما ينبغي أن يكون عليه الكلام حتى يعذب في النطق ويحلو في الاستماع»^(٣).

ومن تحدث كذلك عن النظم محمد بن إبراهيم الخطابي^(٤) (ت ٣٨٨ هـ)، والباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) الذي تحدث عن نظم القرآن إلا أنه لم يفصل القول في أسرار هذا النظم؛ بل اكتفى بالإشارة العامة، والفكرة المبهمة^(٥).

لكن هذه الفكرة لم تبق مبهمة، فقد تلقف هذه الملاحظات والآراء عالم

(١) كتاب الصناعتين / ١٦١.

(٢) نفسه / ٦٧.

(٣) النكت في إعجاز القرآن / ٦٧.

(٤) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن / ٣٦.

(٥) إعجاز القرآن / ٧٥.

بلاغي آخر هو القاضي عبد الجبار (٤١٥ هـ)، الذي استطاع أن يفصح عن معنى (النظم)، فكان له فضل سبق في وضع أسس نظرية النظم، التي تقوم عنده على تلاحم الكلمات والتتام بعضها مع بعض، ومراعاة موقعها، وحركتها. «إذ لا بد من هذا الاعتبار في كل كلمة، ثم لا بد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض؛ لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة، وكذلك لكيفية إعرافها، وحركاتها، وموقعها»^(١). وهكذا مهد القاضي عبد الجبار السبيل أمام عبد القاهر للخوض في تفاصيل هذا العلم، وتفسير معالمه، ورسم حدوده وذلك من خلال نظريته التي عرفت بـ «نظرية النظم».

فقد شرح عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١ هـ) المراد من هذا العلم، وبيّن مفهوم النظم والصلة الوثيقة بينه وبين النحو منتهياً إلى خلاصة هي أن (النظم) ليس شيئاً غير توحي معاني علم النحو وأحكامه فيما بين الكلم^(٢). وهو بهذا لا يقصد بالنحو معناه الضيق وإنما أراد به المعاني الإضافية التي يصورها النحو. فهو بهذا علم نظم الكلم وما يتصل به في ضوء المعنى من نظام ترتيب الكلمات في الجمل، ومقاصد الحذف والذكر، والتقديم والتأخير...^(٣) وغير ذلك مما أطلق عليه (معاني النحو)، أو (النظم)، وهي عنده تعليق الكلام ببعضه، وجعل بعضه بسبب من بعض^(٤). ولما كانت الصحة والمزية في النظم راجعة إلى معاني النحو، فإننا نفهم من كلام عبد القاهر، أن «معاني النحو لديه درجتان: درجة تجري فيها معاني النحو بالمعنى الشائع عند النحاة، ودرجة تجري فيها هذه المعاني في ميدان التأخير، وهو ما يمكن أن نسميه بالنحو البلاغي، الذي يتعدى دائرة الفضائل والمزايا، وهي حسن التلاؤم، والتناسب بين المعاني والألفاظ، مع مراعاة القواعد النحوية، واهتداء الناظم

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل ١٦ / ١٩٩.

(٢) انظر دلائل الإعجاز / ٨١.

(٣) انظره نفسه / ٨٢.

(٤) نفسه / ٨١، و ٩٦.

إلى الأولى والأفضل بما يتناسب والمقام»^(١). وهكذا جعل عبد القاهر من نظريته الميدان الذي تدور في رحابه كل أبواب البلاغة، وقاعدة لدراسة الأساليب البلاغية، وتحليلها تحليلاً دقيقاً يكشف عن ذوقه الرفيع، وذهنه المتوقد في الكشف عن أدق المعاني التي يؤديها كل مبحث. ومن هنا فإن دراسته تعد من أنضج الدراسات الأسلوبية، التي دفعت بالدرس النحوي دفعة جديدة، ولفتت الانتباه إلى أهم الجوانب الفنية التي أغفلها جمهور النحاة في دراسة الجملة، وبهذا فهو يُعد واضح أصول علم المعاني^(٢)، دون أن يطلق عليه هذه التسمية، لأنه استخدم مصطلح «النظم» الذي كان شائعاً في بيئة المتكلمين.

ولعل أول ظهور لمصطلح (علم المعاني) كان على يد الزمخشري (ت - ٥٣٨هـ) في كتابه الكشف^(٣)، وإن كان يُشك في دقة مفهومه لديه؛ «لأنه كان يطلق على مباحث البلاغة جميعها علم البيان»^(٤). وقد تأثر الزمخشري كثيراً بعبد القاهر؛ فسار على نهجه، عندما طبق نظريته في النظم تطبيقاً دقيقاً شمل سور القرآن جميعها.

أما الرازي (ت - ٦٠٦هـ) فإنه لم يفرد لهذا العلم باباً مستقلاً، وإنما نشر بعض أبحاثه بين دفتي كتابه؛ كالخبر، والخطاب بالجملة الاسمية، وبالجملة الفعلية، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والإيجاز،^(٥) وغير ذلك، مقتدياً في معظم ما ورد فيه بآراء عبد القاهر.

ثم جاء السكاكي (٦٢٦هـ). ليتنقل بدراسة هذا العلم، من النظرات

(١) المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني / ٢٤١.

(٢) انظر: البلاغة عند السكاكي / ٣٠٤. والبلاغة العربية تاريخها - مصادرها - مناهجها / ١١٥.

(٣) انظر الكشف / ١.

(٤) انظر المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني / ١٧٤، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، ٢٠٤.

والبلاغة عند السكاكي / ١١٩.

(٥) انظر هذه الأبحاث على الترتيب في نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز / ١٠٠، ١٠٦، ٢١٠، ٢٢٦، ٢٣٨.

التحليلية الفنية التي تعتمد على الذوق المصقول، إلى أحكام المنطق وقواعده وأصوله التي تخضع لمنهجية البحث العلمي؛ فأطلق مصطلح (علم المعاني) على الموضوعات التي سماها عبد القاهر نظاماً، فكان بذلك «أول من استعمل مصطلح (المعاني) وأطلقه على قسم من علوم البلاغة»^(١). و(علم المعاني) عنده: «تبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره»^(٢) فعلم المعاني — بذلك — يقوم على دراسة الجملة فيبحث ما فيها من حذف أو ذكر، أو تقديم أو تأخير، أو تنكير أو تعريف... وغير ذلك، ولا يخرج إلى أكثر من جملة إلا عند البحث في الفصل والوصل، والإيجاز، والإطناب.

كما أن هذا التعريف يقوم على ثلاثة عناصر؛ أولها: تركيب الكلام، وثانيها: مراعاة مقتضى الحال، وهو وضع الكلام المناسب في المقام المناسب، وثالثها: «اعتبار المتلقي العنصر الأساسي في العملية الإبداعية... فقد ضبط معاهد العلم بربط مقتضى الحال بالمتلقي، لأنه: إما خالي الذهن، وإما متردد في الحكم، وإما منكر له. وقد يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيجعل غير السائل — وهو خالي الذهن — كالسائل، وقد يجعل المنكر كغير المنكر، كما أن مقامات الكلام ترتبط هي الأخرى بطبيعة المتلقي...»^(٣). وهكذا استقل علم المعاني بنفسه في بحوث البلاغة المتأخرة، وأصبح علماً في مقدمة علومها الثلاثة.

لكن ما أورده السكاكي هنا لم يستفد منه ابن الأثير (٦٣٧ هـ)، فلم يدرس مباحث علم المعاني كما وردت عند السكاكي، ولم يفرد لها باب مستقل، وإنما تناول بعضها؛ كالخطاب بالجملة الفعلية والخطاب بالجملة الاسمية والفرق بينهما،

(١) البلاغة عند السكاكي / ٣٠٣.

(٢) مفتاح العلوم / ١٦١.

(٣) انظر تفصيل هذه المقامات في مفتاح العلوم / ١٧٠ — ١٧٢.

كما عرض للأسلوب الإنشائي في أثناء كلامه عن التقديم والتأخير مكثفياً بدراسة أداة واحدة من أدوات الاستفهام وهي (الهمزة)، ثم تناول أسلوب الإيجاز، والإطناب، ودرس الالتفات..^(١) وغير ذلك. لكن مما يؤخذ عليه أنه لم ييسط القول في ركني الإسناد، والخبر، ومن هنا نستطيع أن نقرر أن دراسة ابن الأثير — مع أهميتها — لم تستطع أن ترتقي إلى المستوى المتكامل الذي كنا نرجوه منها.

ونخص من بعد هؤلاء العلماء قوم أفادوا ممن سبقهم كثيراً، وكان من أبرزهم القزويني (ت ٧٣٩ هـ) الذي هذب ما وضعه السكاكي وضم إليه تفتاً مما وضعه عبد القاهر الجرجاني وأخرج لنا كتابه الموسوم بـ (تلخيص المفتاح) الذي ما زال الدرس البلاغي عالة عليه منذ عصر مؤلفه.

وكان من بينهم بدر الدين بن مالك الأندلسي (ت ٦٨٦ هـ) في كتابه (المصباح)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) في كتابه (الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلوم البيان)، ويحيى بن حمزة العلوي (ت ٧٤٥ هـ) في كتابه (الطراز) وغيرهم.

ثم شرح العلماء كتاب (التلخيص) المذكور كما فعل السبكي (ت ٧٦٣ هـ) في كتابه (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)، والتفتازاني (ت ٧٩١ هـ) في كتابه (المطول)، والاسفرائيني (ت ٩٤٥ هـ) في كتابه (الأطول)، وابن يعقوب المغربي (ت ١١١٠ هـ) في (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح).

كما اختصر السيوطي (ت ٩١١ هـ) كتاب التلخيص بأرجوزته (الجمان) ثم وضع عليها شرحاً سماه (شرح عقود الجمان).

مكانة علم المعاني بين العلوم:

أما مكانته بين العلوم الأخرى فهي أنه أُلصقها بالقرآن الكريم وبه عُرف

^(١) انظر هذه الأبحاث على الترتيب في المثل السائر ٥١/٢، ٣٥، ٣٨، ٦٨، ١١٩، ٣.

إعجازه؛ بل هو علم يشتمل على سائر العلوم وليس بالضرورة أن يشتمل عليه علم النحو أو الصرف أو البديع مثلاً، فلا يعتدّ فيه بكلام لم يراع فيه الوجه الصحيح لبناء الكلمة في الصرف، ولا بكلام نُصب فيه ما حقّه الرفع، ولا بصورة بديع لم يحسن صاحبها التأني إليها.

إن ثمرة هذا العلم هو الوقوف على الأسرار التي يرتفع بها شأن الكلام ويفضل بعضه بعضاً، ومعرفة إعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن الوصف ولطف الإيجاز وجودة السبك وبراعة التراكيب وجزالة الكلمات وعذوبة الألفاظ ومحاسن الكلام، والوقوف على بديع القول وأسرار البلاغة وأسباب الفصاحة وغير ذلك.

موضوعات علم المعاني:

استقرّت الموضوعات التي يدرسها علم المعاني في ثمانية أبواب هي:

أ — أحوال الإسناد الخيري.

ب — أحوال المسند إليه.

ج — أحوال المسند.

د — أحوال متعلقات الفعل.

هـ — القصر.

و — الإنشاء.

ز — الفصل والوصل.

ح — الإيجاز والمساواة والإطناب.

وقد جعلناها في هذا الكتاب — توطئة للإيجاز وتجنباً للتكرار — في خمسة

فصول هي:

- أ — الخير والإنشاء.
ب — أحوال الإسناد.
ج — القصر.
د — الفصل والوصل.
هـ — الإيجاز والمساواة والإطناب.





الفصل الأول

الخبر والإنشاء

أولاً: الخبر: أغراضه — أضره — مؤكداته — تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر.

ثانياً: الإنشاء:

أ — غير الطلبي: أسلوب التعجب — أسلوب المدح والذم — أسلوب القسم — أسلوب الرجاء — الأسلوب المسمى صيغ العقود.

ب — الطلبي: أسلوب الأمر — أسلوب النهي — أسلوب الاستفهام — أسلوب التمني — أسلوب النداء.

أولاً: الخير

وهو الكلام الذي يحتمل التصديق ويحتمل التكذيب كأن أقول لك: زارني خالد أمس، فهذه جملة يحتمل الخير الوارد فيها أن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً، وكذلك كل ما جرى هذا الجرى من الكلام، ومعنى صدق الخير مطابقته للواقع وكذبه عدمها، وهذا رأي الجمهور من العلماء كالجرجاني والباقلاني والفخر الرازي والقزويني والسكاكي^(١).

أغراض الخير:

عرفت أن الخير هو الكلام الذي يحتمل التصديق أو التكذيب، ولكن وراء إلقاء الخير من قبل المتكلم غرضاً من الأغراض، لأن العرب لا تقول القول عبثاً وإنما يتوخون فائدة أو هدفاً يتغون، وما خلا من الهدف أو الفائدة في كلامهم عدوه ثرثرة لا قيمة لها.

والغرض الأول الذي يتوخاه المتكلم من إلقاء خيره على المخاطب هو إفادة المخاطب حكم الخير أو مضمونه، والمخاطب هنا يجهل الخير كقول ابن مالك في الألفية مثلاً:

كلامنا لفظ مفيدٌ كـ: استقم واسمٌ وفعلٌ ثم حرفٌ الكلم

فالمخاطب (أو القارئ) الذي نظم ابن مالك هذا الكلام من أجله لا يعرف أن

(١) ثمة آراء مخالفة لهذا الرأي كان أصحابها كالنظام والجاحظ من المعتزلة يتكفون عليها لنشيت حجج فرقتهم لا فائدة من ذكرها هنا.

الكلام لا يعتدّ به إلا إذا أفاد، وهو مؤلف من الاسم والفعل والحرف، فقد أفاد الناظم المخاطب بأمر كان الأخير يجهله، ويسمى هذا الغرض فائدة الخير أو إفادة الخير، وخير مثال عليه قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «مَنْ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ وَيُثْنِيَ رَجُلَهُ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ وَالصُّبْحِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يَحْيَى وَيَمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مَرَّاتٍ كُتِبَ لَهُ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَحِيتُ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ».

ألمست ترى أنه ﷺ أخبرنا بما لم نعرف، فأفاد أنّ مَنْ قال تلك العبارات بعد فراغه من تلك الصلاتين مباشرة وهو جالس محلّه الذي صلى فيه عشر مرات فإن الله سيكرمه بكل واحدة من العشر عشرًا من كتابة الحسنات وتكفير السيئات ورفع الدرجات.

والغرض الثاني الذي قد يتوخاه المتكلم من إلقاء خبره على المخاطب إشعار المخاطب بأن المتكلم يعرف الخير ذاته فيكون في ذلك تثبيت أو تأكيد أو تذكير، كأن أقول للعاقب يضرب أباه: هذا أبوك، فأنا لم أقدم له جديداً ولم أفده حكماً يجهله فهو يعرف أنه أبوه، ويسمى هذا الغرض لازم الفائدة أو لزوم الفائدة.

تذكر قول السيدة خديجة للرسول — عليه الصلاة والسلام — عندما عاد من غار حراء وقد رأى ما رأى، قالت له: «والله إنك لتصل الرحم وتقرّي الضيف وتؤدّي الأمانة» فهي لم تخبره بأمر يجهله وإنما أدخلت الطمأنينة إلى قلبه من خلال تذكيرها بإياه بمضمون هذه الأخبار.

ويلحق بالغرض الثاني أغراض أخرى تفهم من خلال سياق الكلام فيها، منها:

الوعظ: كما في قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران/ ١٨٥].

إظهار الحسرة: قال الحارث بن علة:

قومي هُم قتلوا أميم أحبي فإذا رميتُ يصيبني سهمي
فلئن عفوتُ لأعفونَ جلاً ولئن سطوتُ لأوهنَ عظمي

إظهار الضعف:

كما في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ
إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص/ ٢٤]، وعلى لسان زكريا عليه السلام ﴿ قَالَ رَبِّ
إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ [مريم / ٤].

الفخر: كقول حسان بن ثابت:

أولئك قومي فإن تسألني كرام إذا الضيفُ يوماً ألم
يواسون جارهم في الغنى ويحمون مولاهم إن ظلّم

المدح: كقول المتنبي لسيف الدولة:

طلبتهم على الأمواه حتى تخوف أن تفتشه السحابُ
الرثاء: كقول الخنساء في أخيها:

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

الهجاء: كقول جرير في الأخطل:

إن الذي حرم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا
التحذير: كما في قول الرسول عليه السلام: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق».

الإرشاد والنصح: كقول الشاعر:

وليس أخو الحاجات من بات نائماً ولكن أخوها من يبيتُ على وجلٍ

وهذا النوع من الأغراض لا يكاد ينحصر، وهو متوقف — كما قلنا — على فهم السياق.

أضرب الخبر:

مرّ في تعريف علم المعاني أنه علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال، والمخاطب الذي يراعي علم المعاني حاله لا يعدو أن يكون واحداً من ثلاثة، فهو إما أن يكون ذا ذهن خال من مضمون الخبر تماماً، وإما أن يكون متردداً في قبول الخبر وتصديقه، وإما أن يكون منكراً مكذباً، ولكل أسلوب مناسب في الإخبار.

فمخاطبة خالي الذهن تقتضي إلقاء الخبر إليه مجرداً من التوكيد، كما في قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف / ٤٦]، فإن واحداً من العقلاء لا يمكن أن يتسرّب إليه الشك في ذلك ولا التردد أو التكذيب.

سمّى البلاغيون هذا الضرب من الخبر الخبر الابتدائي؛ لأنك تبتدئ المخاطب به ابتداء وقد كان خالي الذهن منه، مثاله قول أبي تمام:

وطول مقام المرء في الحي مخلّق
لدياجتيه فاغترّب تتجدّد

ومخاطبة مَنْ تقرأ في عينيه شكّاً أو تردداً وأحياناً دهشة واستغراباً تقتضي أن يتحلّى الخبر الملقى إليه بإحدى أدوات التوكيد التي ستعرفها بعد قليل والتي من شأنها أن تزيل تردده ومحو شكّه، اقرأ قوله تعالى: ﴿ إِمَّا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة / ٩٠] تعرف أنّ المخاطبين كانوا يشربون الخمر ويلعبون الميسر، ولما تلا الرسول عليه السلام قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة / ٢١٩]، قالوا: ما حرّم علينا إنما قال: إثم كبير، أي كانوا في حالة من الشك والتساؤل، حتى نزلت ﴿ إِمَّا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ﴾ مصدرةً بأداة التوكيد

(إنما) لتزِيل ما هم فيه من حيرة ولتنصّ على التحريم بقوله (فاجتنبوه).

وقد سمي البلاغيون هذا الضرب الخبر الطلبي، مثاله قول أبي نواس:

عليك باليأس من الناس إن غنى نفسك في اليأس

إذ يغلب على المرء أنه لا يحمل نفسه على اليأس ولا يدع الرجاء والطمع ولا يسلم بأن الغنى في اليأس فكأنه متردد متسائل، فحسن تأكيد الكلام له. ومخاطبة المنكر أو المكذب أو المعتقد عكس ما تقول تقتضي أن يؤكد الخبر الملقى إليه بأكثر من مؤكد، ويكون التوكيد بمقدار درجة الإنكار عند المخاطب، فأنت تقول لمن ينكر سهر طالب العلم: إنّ درب العلم لوعرة طويلة، اقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر/ ٥٩]، تجدد أن المخاطبين منكرون؛ لذلك أكد الكلام — إن واللام.

وقد سمي البلاغيون هذا الضرب الخبر الإنكاري، وخير مثال عليه أن القرآن حينما حدثنا عن أصحاب القرية التي جاءها رسل عيسى — عليه السلام — فقال: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس/ ١٣ — ١٦]، أكد الخبر الأول — إن، فقال: ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ ثم لما أمعنوا في التكذيب وأصرّوا عليه زاد في التأكيد فقال: ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم لَمُرْسَلُونَ ﴾ فأكد —: إن واللام.

ومن الواضح أن علماء البلاغة وهم يجعلون الخبر ثلاثة أضرب كانوا يتكفون على ذلك الحوار الذي دار بين الفيلسوف الكندي وأبي العباس، وهو أن الكندي سأل أبا العباس قائلاً: إني أجد في كلام العرب حشواً، يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، والمعنى واحد، قال أبو

العباس: بل المعاني مختلفة، فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار قيامه^(١).

نقول: إن تقسيم الخبر إلى هذه الأضراب الثلاثة يقتضي أن نفترض مخاطباً يعرفه المتكلم ويعرف سلفاً موقفه مما يسوق إليه من أخبار، وهذا كما قلنا افتراض إذا صحّ في موطن لا يصحّ في آخر، فمن غير المعقول أن نطلق — مثلاً — على كل خبر اشتمل على مؤكد واحد أنه خير طلي، ومن ثم فالمخاطب به يرتاب في حكم الخبر الذي يسوقه المتكلم لذلك تأكّد الخبر.

وفي القرآن الكريم، وفي الشعر العربي وكلام العرب عدد يفوق الحصر من أساليب الخبر تأتي مقترنة بـ **إِنَّ** دون أن تكون موجهة لمخاطب شكّ في مضمون الخبر، ومن شأن العرب في كثير من الأحيان أن يجعلوا (**إِنَّ**) في مطلع شعرهم أو بداية كلامهم عفواً من غير أن يبدو على المخاطب تردد في قبول الحكم كما قلنا منه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر/١] ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر/١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران/٣٣].

وقول الشاعر:

إِنَّ الْكَرَامَ إِذَا صَحِبْتَهُمْ سَتَرُوا الْقَبِيحَ وَأَظْهَرُوا الْحَسَنَ

وقول الآخر:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مَطَهَّرَةٌ الدِّينَ أَوَّلُهَا وَالْعَقْلُ ثَانِيهَا

نريد أن نقول: إن وجود أداة تأكيد واحدة في الخبر ليس دليلاً وحيداً على كون المخاطب مرتاباً في حكم الخبر طالباً توكيده.

^(١) ورد هذا الحوار في الإيضاح ٧١/١.

مؤكدات الخبر:

التوكيد تمكين الشيء وتثبيتته في النفس لإزالة ما قد يعتريها من شك في تصديق الخبر، وهو أفصح من التأكيد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النحل/ ٩١]، والقصد منه الحمل على ما لم يثبت في ذهن المخاطب ليصير ثابتاً.

ولن نتحدث هنا عن التوكيد اللفظي أو المعنوي الذي عرفته في النحو، لأن هذا يؤكد المسند إليه أو المسند أو غيرهما من ألفاظ العبارة أو يؤكد الجملة كلها، وهو يتناول الكلام خيره وإنشاءه، أما التوكيد المقصود هنا فهو توكيد الحكم الوارد في مضمون الخبر، وإليك أدواته:

إن:

وهي أهم هذه الأدوات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج/ ٧٣]، وكما يقول حسّان بن ثابت في مدح الرسول عليه السلام وهجاء المشركين:

فلنّ أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاءً
وتحتفظ إن بمعنى التوكيد بعد دخول ما الكافة عليها، كما في قول ابن الوردى:

لا تقلّ أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتي ما قد حصل
لام الابتداء:

وهي اللام المفتوحة التي تدخل في الأصل على المبتدأ؛ لذلك سميت لام الابتداء، أو هي كذلك لأنها تقع في ابتداء الكلام، تتصل بالمبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأَمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة/ ٢٢١]، وكما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لله أفرحُ بتوبة عبده من رجل نزل

منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلة عليها طعامه وشرابه... الحديث».

وتتصل باسم إن المؤخر كما في الآية ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾

[آل عمران/ ١٣]، وبخبرها كما في الآية ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾

[الشعراء/ ٥٤]، وقول كثير:

وإني وهامي بعزّة بعدما تخلّيتُ عمّا بيننا وتخلّلت

لكا لمرجحي ظلّ الغمامة كلّما تبوّأ منها للمقيل اضمحلّت

والنحاة يسمونها في مثل هذه الحالة اللام المرحلقة؛ لأنها زحلت إلى الخبر كراهية اجتماع مؤكدين في صدر العبارة وهما إن واللام.

وقد تتصل هذه اللام بالفعل: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة/ ٦٢]، أو

بقد ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/ ٢١].

قال الزجاجي: «وهذه اللام لشدة توكيدها وتحقيقها ما تدخل عليه يقدّر

بعض الناس قبلها قسماً، فيقول هي لام القسم، كأنّ تقدير قول (لزيد قائم): والله

لزيد قائم، فأضمر القسم ودلت عليه اللام»^(١).

نونا التوكيد:

الثقيلة والخفيفة وقد اجتماعتا في قوله تعالى ﴿لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِّنَ

الصَّاعِغِينَ﴾ [يوسف/ ٣٢]. يؤكد هما المضارع الدال على الاستقبال^(٢)، كما في

^(١) اللامات / ٧٨.

^(٢) وفي الإنشاء يؤكد بها الأمر كما في قول عبد الله بن رواحه:

وأنزلن سكينة علينا

والنهي كما في قول كعب في مدح الرسول:

فلا يفرّك ما منّت وما وعدت إن الأمان والأحلام تضليل

قول الشاعر:

لأستسهلن الصعبَ أو أدركَ المني
فما انقادتِ الآمالُ إلا لصابرٍ
ضمير الفصل:

وهو الضمير الذي يتوسط أحياناً بين المبتدأ والخبر أو ما أصله مبتدأ وخبر،
ليدل على أن ما بعده خبر لا صفة كما في قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
[البقرة/ ٥]، فلولا الضمير (هم) لأمكن أن يكون (المفلحون) صفة لـ (أولئك) لا
خبراً لها، والمقصود بالآية الكريمة أن يكون خبراً، فالضمير هو الذي أوجب خبريته
ومنع أن يكون صفة، وكذا في قوله تعالى: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾
[النحل/ ٩٢].

وضمير الفصل إحدى دلالات التوكيد التي خفيت على كثير من الباحثين،
يفيد تأكيد اتصاف المسند إليه بالمسند، وهو حرف لا محل له من الإعراب، سمي
ضميراً لأنه يشبه الضمير في صورته، وفصلاً لفصله بين ما هو خبر أو صفة، من
أمثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾
[المائدة/ ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾
[الشورى/ ٩].

القسم:

ويكون بالواو ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى/ ١-٢]
﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس/ ١]، ويكون بالتاء ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَاكَ
اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف/ ٩١]، ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء/ ٥٧]،
ويكون بالباء ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ [المائدة/ ١٠٦].
أمّا:

بالفتح والتشديد قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾

[البقرة/ ٢٦]، وهي تفيد الشرط بدليل لزوم الفاء بعدها، وتفيد التفصيل بما يدل عليه سياق العبارات التي تضمنتها في قوله تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْفُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ [الكهف/ ٧٩ — ٨٢].

يقول الزمخشري: «فائدة أمّا في الكلام أن تعطيه فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنّ منه عزيمة قلت: أمّا زيد فذاهب»^(١).

قد:

وهي التي للتحقيق تسبق الماضي كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس/ ٩ — ١٠].

الحروف الزائدة:

وهي زائدة في الإعراب لكنها من صميم العبارة العربية لأنها في أكثر الأحيان تؤدي معنى التوكيد وهي:

— الباء الجارة الواقعة في خبر (ليس) كما في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين/ ٨]. أو في خبر (ما) العاملة عمل ليس ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت/ ٤٦]، أو في الفاعل ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء/ ٦]. أو في المفعول ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٢) [البقرة/ ١٩٥].

^(١) انظر المعنى/ ٨٢.

^(٢) لأن الفعل يتعدى بنفسه بدليل ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُسُومًا﴾ [الحجر/ ١٩].

— من الجارة بعد النفي ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران/ ٦٢]، وبعد الاستفهام ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [فاطر/ ٣].

— أن: الواقعة بعد (لما) الظرفية ﴿ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ [العنكبوت/ ٣٣].

— إن: الواقعة بعد (ما) كقول الشاعر:

ما إن ندمتُ على سكوتي مرةً ولقد ندمتُ على الكلامِ مراراً
— لا: كما في قوله تعالى ﴿ لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الحديد/ ٢٩]، أي ليعلم، وكما في قوله تعالى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ ﴾ [الأعراف/ ١٢].

— ما: كقوله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران/ ١٥٩]، وقوله سبحانه ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْجَلُوا نَارًا ﴾ [نوح/ ٢٥]، والتي تكون بعد (إذا) الشرطية كما في قول الشاعر:

إذا ما كنتَ ذا قلب فنوعٍ فأنتَ ومالكُ الدنيا سواءُ
ولمة أدوات أخرى تؤدي معنى التوكيد في الخبر كالسین وسوف في المضارع الذي يحمل معنى الوعد ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق/ ٧]، أو معنى الوعيد ﴿ سَأَرْهَقُهُ صَغُودًا ﴾ [المدثر/ ١٧]، و(لن) الناصبة التي تؤكد النفي ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران/ ٩٢]، وحروف التنبيه: ألا ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف/ ٥٤]، و(أما) كما في قول الشاعر:

أما والذي لا يعلمُ الغيبَ غيره ويحيي العظامَ البيضَ وهي رميمُ

تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر:

الأمثلة التي تناولناها في أضرب الخبر جرى فيها الكلام على مقتضى الظاهر،

فالخير الخالي من التوكيد وجهناه إلى خالي الذهن، والمؤكد للمخاطب المتردد، والأكثر تأكيداً لمن ينكر حكم الخير الملقى إليه، يعني أن الظاهر يقتضي أن يؤكد الخير تارة ويجرد من التوكيد تارة أخرى، وهذا رهن بحال المخاطب التي تحدثنا عنها في تعريف علم المعاني.

إلا أن المتكلم قد يسلك في الكلام مسالك أخرى فيؤكد الخير الموجه إلى غير المنكر وغير المتردد، ويجرد من التوكيد الخير الذي يوجهه إلى المنكر والمتشكك، فيجري كلامه على خلاف مقتضى الظاهر — وفي هذا أيضاً مراعاة لحال المخاطب — وهو ما يسميه علماء البلاغة: «تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر» وأمثله في القرآن الكريم كثيرة.

تأمل قوله تعالى: ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة / ١٦٣]، تجد أن المخاطبين هنا كفار قريش وهم ينكرون وحدانية الله عز وجل، قال ابن عباس: قالت كفار قريش: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص وهذه الآية ﴿وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وكان للمشركين ثلاثمائة وستون صنماً فيبين الله أنه واحد^(١)، ولم يخرج هذا الكلام كما ترى إلى توكيد لأن البراهين كلها تثبت وحدانية الله عز وجل.

نقول: نزل المنكرون منزلة غير المنكرين فلم يؤكد الخير.

وتأمل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [الزمر / ٥٣]، والمخاطب بها قوم من المسلمين أسرفوا على أنفسهم في العبادة وخافوا ألا يتقبل منهم لذنوب سبقت لهم في الجاهلية، تجد أنهم لا ينكرون الغفران لأنهم مؤمنون، وإنما نزلوا منزلة المتردد المتسائل: هل يغفر الله لنا؟ فحسن التوكيد (إن الله يغفر).

^(١) انظر تفسير القرطبي ١٩٠/١ - ١٩١.

وفي سورة (المؤمنون) تقرأ قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون / ١٢-١٥].

فنفهم أن الآيات تخبر عن الموت، والموت لا ينكره عاقل فهو سنة الله في خلقه، إلا أن الناس هنا نزلوا منزلة المنكرين لما لاح منهم من علامات تدل على غفلتهم وإعراضهم وانشغالهم عن الموت، وكأنهم لم يحسبوا له حساباً، فجاء الخبر في (إنكم لميتون) مؤكداً بـ **إِنَّ** وباللام.

ثم إن الخبر قد يؤكد لشرف مضمونه وزيادة تقويته دون أن يكون ثمة إنكار أو تردد كما في قول الرسول ﷺ في حجة الوداع: أيها الناس، إن ربكم واحد إن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب.

ومن خروج الكلام عن مقتضى الظاهر مما لا يتعلق بالخبر وحده الصيغ الآتية: الخبر الذي معناه إنشاء: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [البقرة / ٨٣]، (لا تعبدون) ظاهره خبر ومعناه النهي أي لا تعبدوا.

وكما في قوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة / ٢٣٣]، فـ (يرضعن) ظاهره خبر ومعناه الأمر، أي ليرضع الوالدات أولادهن، وفي ذلك تأكيد للأمر وإشعار بأنه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله^(١).

ويتبع ذلك معنى الدعاء كقول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿ قَالِ لَا تُفْرِبْ

(١) الكشاف ١/ ١٣٧.

عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَقْبِضُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿يوسف / ٩٢﴾، أي اللهم اغفر لهم، وإنما صاغها خيراً إيماناً بطلب المغفرة وحرصاً عليها.

الإنشاء الذي معناه خير: كما في قوله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف / ٢٩]، ف ﴿وَأَقِيمُوا﴾ ظاهره إنشاء ومعناه خير والمراد: وإقامة وجوهكم، فذكرها بصيغة الإنشاء إشعاراً بالعناية بأمر الصلاة لعظيم خطرها وجليل قدرها، أليست عماد الدين؟. وكما في قوله تعالى ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود / ٥٤]. ف ﴿وَأَشْهَدُوا﴾ ظاهره إنشاء ومعناه خير، وهود عليه السلام لم يقل: وأشهدكم، تحاشياً لمساواة شهادتهم بشهادة الله عز وجل.

الالتفات: وهو العدول بالكلام من صيغة إلى أخرى، من صيغة التكلم مثلاً إلى الخطاب، أو من الخطاب إلى الغيبة، وهكذا.

— من التكلم إلى الخطاب كما في قوله تعالى ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس / ٢٢]. والمعنى (أرجع) لكنه قصد إلى الخطاب فقال (ترجعون)، يقول البرقوقي: هذا تلطّف في الإرشاد في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصيح حيث أراد لهم ما أراد لها^(١).

— من التكلم إلى الغيبة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر / ١ — ٣]. والظاهر يقتضي (فصل لنا).

— ومن الخطاب إلى الغيبة قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء / ٦٤]. والظاهر يقتضي (واستغفرت) لكن في ذكر الفاعل هنا (الرسول) صريحاً تفخيم لشأن

(١) شرح التلخيص / ٩٥.

الرسول وتعظيم لاستغفاره.

— ومن الخطاب إلى التكلم قول الشاعر:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروبُ بعيد الشباب عصرَ حان مشيبُ
يكلّفني ليلي وقد شطّ وليّها وعادت عوادٍ بيننا وخطوبُ
والظاهر يقتضي (يكلّفك).

— ومن الغيبة إلى التكلم قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرُ
سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر / ٩]،
ومقتضى الظاهر (فساقه).

— ومن الغيبة إلى الخطاب قول جرير:

مَنْ كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طَلُوحٍ سَقَيْتِ الْغَيْثَ أَيْتَهَا الْخِيَامُ
ووجه حسن الالتفات أن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك
أحسن تطرية لنفس السامع وتحديداً لحسه وأكثر إيقاظاً لإصغائه من إجرائه على
أسلوب واحد^(١).

وضع الضمير موضع الظاهر: كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا
لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧]. فالضمير في (نزله) للقرآن ولم يتقدم ما يعود عليه
هذا الضمير، وكان الظاهر يقتضي ذكر أوصافه دون اسمه الصريح؛ لفخامة شأنه
وإبراز صدقة وهدايته.

وضع الظاهر موضع المضمّر: وذلك إذا قصد التعظيم كما في قوله تعالى
﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء / ٧٨]، والظاهر

(١) انظر الكشف ١٠/١.

يقتضي (إنه كان مشهوداً).

وإذا قصد التصغير والإهانة كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿ [الإسراء / ٥٣] ، والظاهر يقتضي (إنه كان للإنسان).

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي: وهذا يحسن عندما يكون معنى الفعل من الأمور الهائلة العظيمة التي تدب الخوف في النفوس وتزرع المهابة في القلوب كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النمل / ٨٧] ولم يقل (يفزع) ذلك لان الفزع عند النفخ في الصور محقق لا شك فيه. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالِ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَخَشَرَتَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف / ٤٧]. ولم يقل (ونحشرهم).

التعبير عن الماضي بلفظ المستقبل: وهو يحسن إذا كان المراد استحضار صورة الماضي في الذهن، كما في قوله تعالى ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ [الصافات / ١٠٢]، ولم يقل (رأيت) علماً أن رؤيا إبراهيم — عليه السلام — للحلم كانت قبل زمن التكلم، لكن عدل إلى المضارع لاستحضار صورة الرؤيا التي لا تفارق خياله.

وضع المفرد موضع المثنى: كما في قوله تعالى: ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدًا ﴾ [ق / ١٧]، وهما قعيدان، ويحسن هذا عندما يكون الاثنان متلازمين يتصل أحدهما بالآخر أشد اتصال، مثل قول الأعشى:

فرجتي الخيرَ وانتظري إياي
إذا ما القارظُ العنزريّ آبا
وهما قارظان^(١).

وضع المفرد موضع الجمع: كما في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام:

^(١) من أمثالهم: لا يكون ذلك حتى يلوب القارظان، وهما رجلان من عنزة خرجا يبحثان القرظ فلم يرجعا.

وضع الجمع موضع المفرد: كما في قوله تعالى ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء / ٥٤]. والمراد بالناس محمد ﷺ.

وضع الجمع موضع المثنى: كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء / ١٥]. والظاهر يقتضي: معكما.

تدريبات محلولة في بحث الخبر

أولاً: ما أضرب الخبر في ظاهر الأمثلة الآتية وما هي مؤكداته؟

١- قال تعالى: ﴿لَيْنٌ أُنْجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس/٢٢]
الخبر هنا إنكاري لتأكيد به أكثر من مؤكد، ومؤكداته: لام القسم ولام التوكيد
ونون التوكيد الثقيلة.

٢- قال الشاعر:

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهراً
متبسماً عن باطن متجهم
الخبر طلبي، والمؤكد الباء الزائدة في (عن).

٣- قال الرسول عليه الصلاة والسلام «إن من البيان لسحراً». الخبر إنكاري،
ومؤكداته: إن واللام في اسمها (لسحراً).

٤- قال الشاعر:

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتي
والنصح أغلى ما يباع ويوهب
الخبر في الشطر الأول إنكاري، ومؤكداته: لام الابتداء وقد، وفي الشطر الثاني
ابتدائي مجرد من التوكيد.

٥- قال الشاعر:

إن البخيل وإن أفاد غنى
لترى عليه مخايل الفقر
الخبر إنكاري ومؤكداته إن واللام المرحقة.

٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾
[النحل/٩٠] الخبر طلبي، مؤكداته إن.

٧- قال الشاعر:

هي الأمور كما شاهدتها دولٌ
من سره زمنٌ ساءتُه أزمانٌ
ابتدائي لتجرده من التوكيد.

ثانياً: ما الأغراض التي تفهمها من الأخبار الآتية؟

١- قال تعالى: ﴿ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ﴾ [البقرة/ ٢٤٩]
الغرض هنا إظهار الضعف.

٢- قال الشاعر:

فشرُّ الناس قومٌ ذو حمولٍ
إذا فاخرتهم ذكروا الجدودا
غرضه التوبيخ.

٣- قال تعالى: ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا ﴾ [المائدة/ ٦٤] الغرض الدعاء.
٤- قال الشاعر:

ذنوبي إن فكرتُ فيها كثيرةٌ
ورحمةُ ربي من ذنوبي أوسعُ
هو الله مولاي الذي هو خالقي
وإني له عبدٌ أذلٌّ وأخضعُ
غرضه الزهد والتضرع.

٥- قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْظَمْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ [الكوثر/ ١] الغرض التكرم.

٦- قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن/ ٢٦] الغرض الوعظ.

٧- قال الشاعر يرثي ولده:

ولما دعوتُ الصبر بعدك والأسى
أجاب الأسى طوعاً ولم يجب الصبرُ
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه
سيبقى عليه الحزنُ ما بقي الدهرُ
غرضه إظهار الأسى.

ثالثاً: دلّ على المواطن التي خرج فيها الكلام عن مقتضى الظاهر
وفسرها.

١- قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نُزِّلَ﴾ [الإسراء/ ١٠٥]. المواطن:
وبالحق، وضع الاسم الظاهر موضع المضمّر، فلم يقل: (وبه نزل)، وذلك زيادة
في تمكين صفة الحق لما أنزل الله تعالى.

٢- قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه/ ١١٧] ولم يقل
فتشقيان، فقد وضع المفرد موضع المثنى، لشدة التلازم والاتصال.

٣- قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ
فَفَرِّقِ بَيْنَهُمَا كَذِبَ بَيْنِهِمَا وَقَتْلُوا قَتْلُكُمْ﴾ [البقرة/ ٨٧]. عبّر بالمضارع ﴿تَقْتُلُونَ﴾ عن
الماضي لاستحضار صورة الماضي في الذهن.

٤- قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِي﴾ [ق/ ٢٤]. عبّر بلشئ
﴿أَلْقِيَا﴾ عن المفرد، والخطاب لخازن النار.

٥- قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ [الحج/ ٥]. وضع المفرد (طفلاً)
موضع الجمع، والظاهر يقتضي (أطفالاً).

٦- قال تعالى: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس/ ٨٣]. عبّر
بالجمع (ملئهم) عن المفرد، والظاهر يقتضي (وملئه).

*

*

*

تدريبات يطلب حلّها

السؤال الأول: ما الأغراض التي تنطوي عليها الأخبار الآتية:

١- قال تعالى: ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة/ ٧٤].

- ٢- إلهي عبدك العاصي أنا كما مقرّاً بالذنوب وقد دعا كما
- ٣- أصبتُ بسادة كانوا عيوناً بهم نسقي إذا انقطع الغمامُ
- ٤- رأيت سكوني متحرراً فلزمته إذا لم يفذر بحاً فليست بخاسر
- ٥- ومكارمي عند النجوم ومنزلي مأوى الكرام وموئل الأضياف

السؤال الثاني: ما نوع الخبر في الأمثلة الآتية، وما هي مؤكداته؟ وهل

خرج عن مقتضى الظاهر؟

١- قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبا/ ٩].

٢- أما دون مصر للغي متطلبٌ بلى إن أسباب الغنى لكثيرٌ

٣- قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ [المؤمنون/ ١٥].

٤- وإني لحلوّ تعتريني مرارة وإني لتراك لمسا لم أعوّد

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة/ ١٧٩].

الإنشاء

الإنشاء لغة: الإيجاد والإحداث، واصطلاحاً: هو الكلام الذي لا يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب لذاته، لأنه ليس للدلول لفظه قبل النطق به وجود خارجي يطابقه أو لا يطابقه.

وقد ميز البلاغيون بين نوعين من الإنشاء: إنشاء طلي، وإنشاء غير طلي.
أولاً: الإنشاء غير الطلي:

وهو ما لا يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب، وله صيغ كثيرة:

١- أسلوب التعجب: وله صيغتان قياسيتان: (ما أفعله)، نحو قوله تعالى: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس/١٧]، و(أفعل به)، نحو قوله أيضاً: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مرم/٣٨].

٢- أسلوب المدح و الذم: فالمدح نحو قوله تعالى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت/٥٨]، والذم نحو قوله أيضاً: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج/١٣].

٣- أسلوب القسم: له صيغ كثيرة، منها: القسم بالحروف الثلاثة^(١): (الواو) كما في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى/١-٢]، و(الهاء) نحو ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَوْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف/٩١]، و(الباء) كما في قول الشاعر:

^(١) الاسم الواقع بعد هذه الحروف يكون مجروراً بها، وهي مع مجرورها متعلقان بفعل (أقسم) المحذوف.

بِاللّٰهِ يَا ظِيَّاتِ الْقَاعِ قُلْنَ لَنَا لِيَلَايَ مِنْكَ أُمُّ لَيْلَى مِنَ الْبَشَرِ
والقسم بالفعل نحو: أقسم، أحلف، شهد الله، ومنه كذلك: يمين الله، لعمر،
كما في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر/٧٢]،
والغرض من إنشاء القسم تأكيد الجملة الخبرية بما سبق بيانه في مبحث الخبر.

٤- صيغ العقود: بما يدل عليها اصطلاحاً من ألفاظ، نحو: بعْتُ - اشتريتُ
- منحت - وهبت...، ويدخل في هذا النوع الصيغ المتعلقة بعقود الزواج أو
المبايعة، نحو: (زوجتك ابنتي)، و(بايعناك على السمع والطاعة).. وغير ذلك مما
يدل على معنى العقد بين طرفين.

٥- أسلوب الرجاء: هو طلب حصول أمر محبوب قريب الوقوع، والأداة
الموضوعة له (لعل)، أما الأفعال التي تستعمل في هذا الأسلوب فهي: (عسى،
وحرى، واخْلُوقْ)، نحو: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنَّ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة/٥٢].

ومما يدخل في ذلك بعض أفعال المقاربة (كاد، وكرب، ورب)، نحو: رب أخ
لك لم تلده أملك، و(كم) الخبرية، نحو قول المتنبي:

كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْباً فَيَعْجِزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ

وهذا القسم، أي الإنشاء غير الطلبي، أقصاه البلاغيون من دراستهم لعلم
المعاني، لأن صيغته لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها؛ فالتعجب لا يفيد إلا
التعجب، والقسم لا يفيد إلا القسم، أي أنه لا تتعلق به لطائف بلاغيه، هذا من
ناحية، ومن ناحية ثانية فإن أكثر صيغه أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء.

ثانياً: الإنشاء الطلبي:

إلى هذا النوع ينصرف اهتمام البلاغيين وعنايتهم؛ فهو المقابل للخبر، وهو
المقصود عندما يدور الحديث عن الإنشاء.

وقد عرفوه بأنه الكلام الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب. أو

هو ما يتأخر وجود معناه عن وجود لفظه.

فإذا قلنا: (يا أحمد اقرأ دروسك، ولا تتوان في أداء واجباتك)، نكون قد استعملنا ثلاثة أساليب إنشائية، هي: النداء، والأمر، والنهي، إلا أننا لا نستطيع أن نحكم على هذه الجمل بالصدق أو الكذب لسببين:

الأول: إنه لا وجود خارجي له قبل النطق به يطابقه أو لا يطابقه.

الآخر: إن مضمونه لا يتحقق إلا بعد النطق به.

ويندرج تحت هذا النوع من الإنشاء خمسة أساليب: الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والنداء.

١- أسلوب الأمر

الأمر : طلب حصول الفعل على جهة الاستعلاء، حقيقياً كان ذلك الاستعلاء أم ادعائياً، فمثال الأول قول المعلم للطالب: (اكتب كذا)، ومثال الثاني، قول الطالب لأستاذه: (افعل كذا) متعالياً لا متواضعاً.

صيغ الأمر:

للأمر أربع صيغ هي:

١- فعل الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مریم/١٢].

٢- المصدر النائب عن فعله، مثل قوله تعالى: ﴿فَسُخِّقُوا أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك/١١].

٣- المضارع المقترن بلام الأمر، نحو قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة/٢٨٢].

٤- اسم فعل الأمر^(١)، مثل قولهم: «حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح».

خروج الأمر عن معناه الأصلي إلى أغراض بلاغية:

لم يهتم البلاغيون بأسلوب الأمر من حيث كونه مبحثاً نحوياً يعني طلب الفعل على جهة الاستعلاء، وإنما امتدت نظرهم لدراسة ما وراء الأمر من أغراض

(١) جاء منه ما هو سماعي، مثل: صه، ومه، وآمين، وهاك، ودونك، وإليك، وعندك، وإيه، ورويد، وهاك... وغير ذلك. ومنه ما هو قياسي، وهو ما كان على صيغة (فعل)، من كل فعل ثلاثي مجرد تام ومتصرف، مثل: خذاري، ترك، ذراك، نزال.

ولطائف بلاغية، وهذه الأغراض لم تؤدها صيغة الأمر بمفردها، وإنما دلت على ما دلت عليه بمعونة السياق وقرائن الأحوال:

أما أشهر هذه الأغراض وأكثرها شيوعاً، فهي:

١- الدعاء:

هو طلب الفعل من العبد إلى ربه، كما في قوله تعالى: ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرْثَنِي ﴾ [مريم/٥-٦]، وقوله: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [نوح/٢٨].
ومنه شعراً قول يزيد بن معاوية:

فياربّ، سوّ الحب بيني وبينها يكون كفافاً لا عليّ ولا ليّا
ومنه الرجاء وذلك عندما يوجه الأمر إلى من هو أعلى من المتكلم منزلة أو قدراً أو علماً أو غير ذلك، كما في قول الشاعر للأمير:

تَرَفَّقَ أَثْمَها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتابُ

٢- الالتماس:

وهو طلب فعل صادر من شخص إلى مُساويه قدراً ومنزلةً وسناً، نحو قول الشريف الرضي:

يا راكبانِ قفّاي واقضيا وطري وخبراني عن نحمد بأخبار

٣- النصّح والإرشاد:

وهو طلب خلا من كل تكليف، فهو أمر في ظاهره، نصّح وموعظة في حقيقته، ولا يكون أمراً ملزماً، من ذلك قول الأم توصي ابنتها: (يا بنتي: حافظي على بيتك)، وعليه قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُضِيَتْ بَدَنِينَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ [البقرة/٢٨٢]، ومنه قول الشاعر:

شاوَر سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ يوماً وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْمَشُورَاتِ

٤- التهديد:

حين تستعمل صيغة الأمر في معرض عدم الرضا بالمأثور به، نحو قول الأم

لولدها: (الع ب في الشارع)، و(أهمل دروسك)، فهي لا تطلب منه الإذعان لأمرها
أو تنفيذه؛ بل تهدده بأسلوب غير صريح. ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَكَمَّمُوا قَلِيلًا
إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [المرسلات / ٤٦]، وقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ﴾ [فصلت / ٤٠].

وعليه قول جرير في هجاء بني نمير:

فَصَبْرًا يَا تَيْبَسَ بْنَ نَمِيرٍ فَإِنَّ الْحَرْبَ مُوقِدَةٌ شَهَابًا

ولعل مما يفيد في إظهار هذا الغرض هو نبرة الصوت التي ترافق طلب الفعل.

٥- التخيير:

ويكون في مقام يُفرض فيه اختيار أحد أمرين لا الجمع بينهما، نحو: (ادرس في
كلية العلوم أو الآداب)، أو (تزوج سلمى أو أختها)، إذ لا يحق له شرعاً الجمع بين
الأختين، ومنه شعراً:

وَعِشْ إِمَّا قَرِيبًا أَوْ فِي أَمِينِ الْغَيْبِ، أَوْ عِشْ الْوَحَادِ

٦- التسوية:

وترد في مقام تشير فيه إلى أن الأمرين المطلوب فعلهما سواء، وذلك في مقام
توهم المتلقي فيه أرجحية أحد الطرفين المتساويين، نحو قولك: (صدّق أو لا
تصدّق)، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾
[التوبة/ ٥٣] وقوله: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور / ١٦].

٧- التعجيز:

وترد في مقام إظهار عجز المدعي بعمل لا يقوى عليه، إظهاراً لعجزه وضعفه،
ورغبة في التحدي، نحو قوله تعالى: ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة/ ٢٣]،
ومنه شعراً:

أَرْنِي الَّذِي عَاشَرْتُهُ فَوَجَدْتُهُ مُتَغَاضِيًا لَكَ عَنْ أَقْلٍ عَثَارِ

وقول الآخر:

أُرُونِي بِخَيْلٍ طَالَ عُمَرَا يُخْلِيهِ وَهَاتُوا كَرِيمًا مَاتَ مِنْ كَثَرَةِ الْبَذْلِ

٨- التمني:

وهو طلب أمر محبوب لا طمع في حصوله؛ لاستحالته، أو لتعذر تحققه، ويكون في طلب موجه إلى غير العقلاء، نحو قول أبي فراس:

أيا جارتنا ما أَصْفَ الدهرُ بيننا تعالى أَقاسِمُكَ الهمومَ تعالى

وقول ابن زيدون:

ويا نسيم الصَّبَا بَلِّغْ تحيتنا من لو على البُعْدِ حياً كان يحيينا

وقول عنترة:

يا دارَ عَيْلَةٍ بالجِوَاءِ تكلّمي وعِمي صَبَاحاً، دارَ عَيْلَةٍ، واسلمي

٩- التعجب:

ويكون الأمر تعجباً حين تستعمل الصيغة في مقام الاستغراب، نحو قوله تعالى: ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ ﴾ [الإسراء/ ٤٨].

١٠- الإباحة:

ويكون عندما يتوهم المخاطب حظر القيام بالفعل، فيأتي الأمر إذناً له بفعله، ولا حرج عليه في تركه. وهو يختلف عن التخيير من حيث إن الإباحة يجوز فيها الجمع بين الشيئين، ولا يجوز ذلك في التخيير. من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الجمعة/ ١٠]، وقوله: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ [المائدة/ ٢].

وعليه قول الشاعر:

فَقُلْ ما شئتُ في، فلي لسان ملئ بالثناء عليك رطب
وعامِلني بإنصاف وظلم تجدني في الجميع كما تحب

١١- التهكم والإهانة:

ويكونان عندما تستخدم صيغة الأمر في مقام الإهانة والسخرية والتقليل من

شأن المخاطب، نحو قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران/٢١]، وقوله أيضاً: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان/٤٩]. ومن الإهانة قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ [الإسراء/٥٠].

١٢- التحقير:

قيل هو قريب من الإهانة، وقيل هما بمعنى واحد، ومثاله قول الخطيئة: تَنَحَّيْ فَاجْلِسِي مِنَّا بَعِيداً أَرَأَيْتَ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَ

١٣- التسخير:

ويكون إذا وجد المأمور نفسه قد تحول دون إرادة منه إلى ما أمر به، نحو قوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف/١٦٦]، فتحولوا بقدرة الله إلى قردة دون أن يكون لهم يد في هذا التحول. والفرق بين الإهانة والتسخير أن الأولى لا يحصل فيها المأمور به، أما التسخير فيحصل معه المأمور به.

١٤- التذلة:

ويكون في مقام إظهار شدة الحب أو الحزن، فمثال الأول قول ابن الدمينية: قَفِي يَا أَمِيمَ الْقَلْبِ نَقْرًا تَحِيَّةً وَتَقْضِي الْهَوَى ثَمَ افْعَلِي مَا بَدَأَ لَكَ

ومثال الثاني (إظهار شدة الحزن) قول الشاعر في الرثاء:

أَرِيقِي الدَّمْعَ وَاجْتَنِّي الْمَجُوعَا وَصُوبِي شَمْلَ وَجَدِكَ أَنْ يَضِيعَا

ونبهك هنا إلى أن هذه الصيغ ليست على سبيل الحصر، فهناك صيغ كثيرة يمكن أن تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال، كما أن هذه الصيغ قد تتداخل فيما بينها، ويبقى النص وحده هو الكفيل بالكشف عن ذلك.

تدريبات محلولة على أسلوب الأمر

— بين موقع الأمر والأغراض البلاغية التي حققها فيما يأتي:

١— قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ [طه/ ٢٥ — ٢٧]

أسلوب الأمر بالأفعال (اشرح، ويسر، واحلل) معناه الدعاء؛ لأن الخطاب أو الأمر موجه إلى الله سبحانه وتعالى.

٢— قال أبو نواس:

دَع عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
أسلوب الأمر بالفعلين (دع، وداوي) معناه الالتماس؛ لأن المتكلم يخاطب نديمه، وهو ندُّ له في الرتبة والمنزلة.

٣— اعمل لَدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا، وَاَعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا.

أسلوب الأمر بالفعلين (اعمل، واعمَل) أفادا معني النصيح والإرشاد.

٤ — وَقَالَ غَيْرُهُ فِي تَوْبِيخِ آخِرِ مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ:

إِبْكَ مِثْلَ النِّسَاءِ مُلْكًا مُّضَاعًا لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ

أسلوب الأمر في البيت هو الفعل (إبك) معناه التوبيخ، توبيخ المخاطب على ما فرط وأضاع من مُلك وسيادة.

٥— قال ابن الدمينية:

أَبْلَغُ أَمِيمَةٍ أَتَيْتُ نَاسِيَهَا وَلَا مُطِيعًا بَظَهَرَ الْغَيْبِ وَاشْتَبَاهَا

صيغة الأمر بالفعل (أبلغ) معناها التذلة؛ لأن السياق يشير إلى رغبة الشاعر في

إظهار شدة حبه وشغفه بمحبوبته.

٦- وقال آخر:

عرج على الرّوض يا نديمي وميل إلى ظلّ الظليل

أسلوب الأمر بالفعلين (عرج، وميل) يفيدان الالتماس؛ لأن المقام يشير إلى أنه يخاطب صديقاً أو نديماً له، فهو ندُّ له في المرتبة والمنزلة.

٧- قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن/ ٣٣].

أسلوب الأمر في الآية بالفعل (فانفذوا) معناه التعجيز؛ لأنه ورد في مقام يظهر فيه عجز المدعين على تنفيذ ما أمروا به، وهو أن ينفذوا من أقطار السموات والأرض، ورغبة منه — عز وجل — في إظهار ضعفهم وهوانهم.

٨- قال تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور/ ٣٣].

أسلوب الأمر بالفعل (فكاتبوهم) أفاد معنى الإباحة، أي إن الله يأذن لهم بمكاتبتهم، ولا حظر عليهم في ذلك، كما أنه لا حرج عليهم في تركها.

٩- قال عروة بن الورد:

فَسِرْ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمِيسِ الْغَيْ

تَعَشْ ذَا يَسَارِ، أَوْ تَمُوتْ فَتَعَذِّرَا

أسلوب الأمر بالفعلين (فسر، والتمس) أفادا معنى النصيح والإرشاد.

١٠- قال المتنبي:

أَقْلُ اشْتِيَاقاً إِلَيْهَا الْقَلْبُ رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصَنِّفِي الْوُدَّ مِنْ لَيْسَ جَازِياً

أسلوب الأمر بالفعل (أقل) معناه التمني؛ لأنه يخاطب مالا يعقل (القلب)، ويطلب أمراً لا طاقة له به.

١١- وقال آخر:

يا قطرُ عَمّ دمشقَ واحصنْ منـزلًا في قاسيونَ وحلّه بـنياتٍ
أسلوب الأمر بالفعل (عَمّ) أفاد التمني؛ لأنه موجه إلى غير العاقل (القطر)، فهو
يتمنى أن يعمّ خير ذاك القطر دمشق، ومن حلّ بجبلها، جبل قاسيون.

١٢- قال الشاعر القروي (رشيد الخوري):

جودوا على صاحب اللبون وارْتدِعُوا عن عَلِيّه! فأشدّ الفاقة الطمُعُ
أسلوب الأمر بالفعلين (جودوا، وارْتدِعُوا) أفاد السخرية والاستهزاء.

تدريبات يطلب حلها

— بَيِّن المعاني المستفادة من أسلوب الأمر فيما يأتي:

- ١— عش بالشعور وللشعور فإنما دنيالك كون عواطف وشعور
- ٢— اكبري عشرين عاماً ثم عودي إن هذا الحب لا يرضي ضميري
- ٣— خذوا كحلًا ومخمرةً وعطوا فليستُم يا فرزدق بالرجال
- ٤— قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا فَاعْفُ رَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾
[آل عمران/١٩٣].
- ٥— أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعنا يا جريراً المحامعُ
- ٦— أسيئي بنا أو أحسنني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت
- ٧— قال صلى الله عليه وسلم: «فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً».
- ٨— فاسلّم أمير المؤمنين مُمتعاً بتابع الآلاء والإنعام

٢- أسلوب النهي

النهي : طلب الكف عن الفعل على جهة الاستعلاء والإلزام، وله صيغة واحدة هي المضارع المسبوق بـ (لا) الناهية الجازمة، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات/١٢]، ومنه شعراً قول أبي نواس:

لا تَبْلُغْ لَيْلِي وَلَا تَطْرُبْ إِلَى هِنْدٍ واشربْ على الورد من حمراء كالورد

خروج النهي عن معناه الحقيقي إلى أغراض بلاغية:

والنهي — شأنه في ذلك شأن أسلوب الأمر — يخرج عن أصل معناه الذي وضع له إلى تحقيق أغراض بلاغية، إذا تخلف فيه الشرطان السابقان، وهما الاستعلاء والإلزام كلاهما أو أحدهما، وهذه الأغراض يرشد إليها السياق، وتدل عليها قرائن الأحوال، من ذلك:

١- الدعاء:

وذلك إذا كان النهي صادراً من العبد لربه؛ تأديباً في هي الذات الإلهية، نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران/٨]، وقوله أيضاً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس/٨٥].

ويلحق هذا المعنى الرجاء إذا كان النهي موجهاً من الأصغر إلى الأكبر، كقول النابغة في بعض اعتذارياته:

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلي به القار أجربُ

٢- الالتماس:

وذلك حين يصدر عن شخص إلى مساويه قدراً ومنزلة، نحو قوله تعالى
على لسان سيدنا هارون مخاطباً سيدنا موسى عليهما السلام: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي
وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه/٩٤]. ومنه قول ابن زيدون لولادة:

لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيّرنا إذ طالما غيّر النأي المحبينا

٣- التهديد:

وهو هي تلوح فيه معاني الوعيد والإنذار، فالتهديد لأن المتكلم غير راض
بفعل المخاطب. نحو قولك لولدك: (لا تنته عن اللعب)، و(لا تكف عن الشغب).
ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾
[الإسراء/٣٤].

٤- النصيح والإرشاد:

وذلك عندما يكون النهي في مقام الإرشاد وإسداء النصيح، كما في الآيات
الآتية:

إذا نطق السفية فلا تُجبه	فخير من إجابته الشكوت
لسائلك لا تلفظ به عورة امرئ	فكلك عورات وللناس ألسن
إذا غامرت في شرف مروم	فلا تقنع بما دون النجوم
فلا تنطقوا إلا صواباً فإني	أخاف عليكم أن يقال هوروا
لا تعذليه فإن العذل يولعه	قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه

٥- التمني:

ويكثر - كما هي الحال في أسلوب الأمر - في هي غير العاقل، نحو قول أبي

نواس مادحاً:

يَا نَاقُ لَا تَسْأَمِي أَوْ تَبْلُغِي مَلِكاً تَقْبِيلَ رَاحَتِهِ وَالرُّكْنِ سَيِّئَانِ^(١)

وقد يحقق النهي معنى التمني إذا استعملت الصيغة في التعبير عن أمنية يرغب المتكلم في تحقيقها، بصرف النظر عن حال المخاطب إن كان عاقلاً أم غير عاقل، ومثال ذلك قول ابن الدمينية:

فلا تتركني نفسي شعاعاً فإنها من الوجد قد كادت عليك تنوب

فالشاعر، وإن كان يخاطب حبيبته من باب الالتماس، إلا أن في نفسه أمنية يطمح إلى تحقيقها وهي رغبته في ألا تدعه مشتتاً للضياغ، فهو التماس في ظاهره، تمنن في جوهره، وهذا يؤكد أن بعض أغراض أساليب الإنشاء قد تتداخل فيما بينها، ويبقى السياق وحده هو الكفيل بالكشف عن خفاياها وأسرارها.

٦- التحقير:

وذلك إذا كان النهي في مقام الخط من منزلة المخاطب وقدره، نحو قول الخطيئة:

لا تطلب المجد، إن المجد سلمه صعب وعش مستريحاً ناعم البال
وقول الآخر:

لا تحسبوا من قتلتم كان ذا رمق فليس تأكل إلا الميتة الضُّبْعُ
٧- التأنيب والتوبيخ:

وفيه يحمل النهي معاني التوبيخ على ما صدر من المخاطب من سلوك يشين صاحبه ويحط من قدره، فهو هي في ظاهره، تأنيب وتوبيخ في باطنه. ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف/٥٦]، وعليه قول

^(١) الركن: هو ركن الحطيم بالكعبة.

أبي الأسود الدؤلي:

لا تَنَّهُ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمَ

وقول المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أشواقِهِ حتى يكون حشاك في أحشائِهِ

وقول إيليا أبو ماضي:

يا أخي! لا تَمِلْ بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنتَ فَرْقَدُ

٨- التسلية والتصبر:

وذلك في مقام منح المخاطب شيئاً من التصبر والطمأنينة والمواساة، وبيان أن ما يفعله غير جائز، كقولك لمن يعاني أمراً: (لا تقنط من رحمة الله)، و(لا تعذب نفسك). ومنه قول النمر بن تولب:

لا تجزعي إن مُنِفِساً أَهْلَكُكُ فإذا هَلَكْتُ فعند ذلك فاجزعي

٩- التيسيس:

حين تستعمل صيغة النهي في مقام تيسيس المخاطب، وبيان أن ما يطلبه لا يمكن الحصول عليه، نحو قول القائل: (لا تحاول الاعتذار قُضِيَ الأمر)، ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحریم/٧]، وعليه قول المتنبي:

لا تُطْلَبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَيْهِ إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَاخِطُوا

هذه هي بعض الأغراض البلاغية التي يحققها أسلوب النهي، وقد رأينا الاختصار عليها؛ لأن في ذكر بعضها إغناء عن ذكر الباقي.

تدريبات محلولة على أسلوب النهي

— بين الأغراض البلاغية التي حققها أسلوب النهي فيما يأتي:

١— قال جبران خليل جبران:

ولا تَمْنَعَنَّ ذا حاجةٍ جاء راغباً فإنك لا تدري متى أنت راغب
النهي في قوله (لا تمنعن) أفاد النصيح والإرشاد.

٢— قال عمر بن أبي ربيعة:

فلا تقتليني إن رأيت صباي إليك، فإني لا يحلُّ لكم قتلي
النهي في قوله (فلا تقتليني) يفيد الالتماس؛ لأنه موجه إلى حبيبة الشاعر،
والحبيبة في مرتبة تساوي مرتبة الشاعر، ويحتمل — مع هذا — الاستعطاف.

٣— وقال آخر:

لا تُعْرضَنَّ لِجَعْفَرٍ مُتَشَبِّهاً بِنَدَى يَدَيْهِ فَلَسْتُ مِنْ أُنْدَادِهِ
النهي في قوله (لا تعرضن) معناه التئيس، تئيس المخاطب، ومحاولة ردعه عما
ينوي القيام به، لاستحالة تحقيقه.

٤— لا تكن يابساً فتكسر، ولا تكن ليناً فتعصر.

النهي في قوله: (لا تكن) أفاد النصيح والإرشاد.

٥— قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ [الحجر/ ٨٨].

النهي في قوله (لا تمدن) معناه التحقير والتوبيخ؛ لأن هذا العمل مما يشين

صاحبه ويقلل من قدره.

٦- قال الشاعر:

لا تنهين عن البكاء فإنه يطفي لهيب الجرح في الأعماق
النهى في قوله (لا تنهين) موجه إلى رفيقي الشاعر، فهو يفيد الالتماس؛ لأنه
صدر عن شخص إلى مساويه قدرأ ومنزلة.

٧- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ
خَبَالًا﴾ [آل عمران/ ١١٨].

النهى في قوله: (لا تتخذوا) أفاد النصيح والإرشاد.

٨- قال أحمد شوقي:

لا تسمعوا للمرجفين وجهلهم فمصيبة الإسلام من جهالة
النهى في قوله (لا تسمعوا) معناه النصيح والإرشاد.

٩- وقال آخر:

لا تلم كفي إذا السيف نبا صغ مني العزم والذفر أبي
النهى في قوله (لا تلم) أفاد الاعتذار والتصير، وكأن الشاعر يريد أن يقنع
سامعيه بأن لا حيلة له ولا إرادة فيما حدث.

١٠- قال المتنبي:

لا تلق دهرك إلا غير مكرث ما دام يصحب فيه روحك البدن
النهى في قوله (لا تلق) معناه النصيح والإرشاد.

١١- يا أيام الشباب لا تنقضي.

النهى في قوله (لا تنقضي) معناه التمني؛ لأنه يخاطب غير العاقل، وهو (أيام
الشباب).

تدريبات يطلب حلها

— بين المعاني المستفادة من أسلوب النهي فيما يأتي:

- ١— ولا تجلس إلى أهل الدنيا فإن خلايق السفهاء تُعدي
- ٢— فلا تبلغاه ما أقول فإنه شجاع متى يذكر له الطعن يشتت
- ٣— أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي؟
- ٤— قال تعالى: ﴿ لَا تَعْتَلِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة/ ٦٦].
- ٥— انظر إليهم ولا تعجبك كثرتهم فإنما الناس قلوبا كلما زادوا
- ٦— ولا تجزع لحادثة الليالي فما لحوادث الدنيا بقاء
- ٧— قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية مخاطب أبناءها:
فلا تكلوني للزمان، فإني أخافُ عليكم أن تحينَ وفاتي

٣- أسلوب الاستفهام

الاستفهام: طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، وذلك بواحدة من أدوات الاستفهام الإحدى عشرة، والتي يمكن جعلها حسب الدلالة في ثلاث زمر:

الأولى: ما يدل منها على التصوّر والتصديق، وهي الهمزة.

الثانية: ما يدل على التصديق وحده وهي (هل).

الثالثة: ما يدل على التصوّر وحده، وهي سائر أدوات الاستفهام (من، ما، متى، أيان، أين، كيف، أنى، كم، أي).

والتصوّر هو طلب تعيين المفرد، كأن تقول: أخالد نجح أم محمد؟ فأنت تعرف أن نجاحاً قد حصل ولكنك تطلب تعيين مَنْ أسند إليه النجاح، فيقال لك: خالد، أو يقال: محمد.

والتصديق هو طلب إدراك النسبة بين المسند والمسند إليه ثبوتاً أو نفياً، كنسبة الفعل إلى الفاعل في (أقرأت كتاب سيويه؟) ونسبة الخبر إلى المبتدأ في (هل العلم مفيد؟) فالسائل هنا يطلب إدراك نسبة القراءة إلى المخاطب أو الفاعل (التاء)، فإن تحققت هذه النسبة أجيب بـ: نعم، وإن لم تتحقق أجيب بـ لا، وهكذا الأداة إذا استخدمت في معرض التصديق اقتضت أن يكون الجواب عنها بـ نعم أو لا، ما لم تخرج عن معناها الاستفهامي كما سترى بعد قليل.

الهمزة: وهي أم أدوات الاستفهام، تستخدم في السؤال للتصوّر أو للتصديق، ويليهما المسؤول عنه مباشرة، ففي التصديق تقول: أحضر القاضي؟ فتجاب كما ذكر بنعم أو لا. كما في حديث أبي هريرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام صلى

اثنتين في صلاة الأربع ركعات (لعلها العصر) وعندما أخيره ذو اليدين بذلك قال الرسول: أصدق ذو اليدين؟ فقال الناس: نعم، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتين أخريين. الحديث.

وفي التصور تقول: أدبس في الإناء أم غسل؟ فيعين لك في الجواب واحد منهما (دبس) أو (غسل)، وهنا — في التصور — يذكر بعد الهمزة (أم) تسمى أم المتصلة المعادلة، متصلة لأن ما قبلها متصل بما بعدها أو لأن الاستفهام ينسحب على ما بعدها، ألا ترى أنه في (أدبس في الإناء أم غسل؟) قد دخل (غسل) في صيغة السؤال؟ وتسمى المعادلة لأن الكلمة التي تأتي بعدها مباشرة ينبغي أن تعادل جنس الكلمة التي دخلت عليها همزة الاستفهام، إن اسماً فاسم وإن فعلاً ففعل وإن حرفاً فحرف، لذلك لا يستقيم قولك (أخالد جاء أم ذهب) لأن اللفظ بعد أم فعل واللفظ الذي سئل عنه همزة الاستفهام اسم، ثم إنك في السؤال المذكور تسأل عن الفاعل (معنى) وليس عن الفعل، وإنما يستقيم إذا قلت: (أخالد جاء أم محمد) وإذا قلت: (أجاء محمد أم ذهب) وهكذا: — أزيداً أكرمت أم خالداً؟

— أفي الخاية دبستك أم في الزرق؟

— أراكباً جئت أم راجلاً؟

— أأكرمت خالداً أم أهنته؟

قال المثقب العبدى:

وما أدري وقد وجهت وجهي أريدُ الخير أيهما يليني

الخيرُ الذي أنا أبتغيه أم الشرَّ الذي هو يبتغيني

ثم تأمل الآيات الآتية يتضح لك الأمر:

— ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَأَيْتَ مُتَّفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّوْهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

[يوسف/٣٩].

— ﴿تَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي
الْتُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل/٥٩]. يَتَوَارَى

— ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أُنْدٌ يَنْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
يُنْصَرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا
تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف/١٩٥].

هل:

تستخدم في طلب التصديق فقط، لذلك لا يذكر بعدها أم المتصلة المعادلة لأن
ذلك يؤدي إلى التناقض، فالسؤال — (هل) يقتضي جهلك بالحكم، وذكر المعادل
بعدها يدل على معرفتك بالحكم فيجتمع في العبارة ذاتها علمك بالحكم وجهلك
به، لو قيل: هل أقبل النهار أم أدبر؟ لأدركت أن الكلام قبل (أم) يدل على جهل
السائل بنسبة الإقبال إلى النهار أتحققت أم لم تتحقق، وجميء (أم) واللفظ الذي
بعدها يدل على معرفته بالحكم وطلبه تعيين مفرد، وهذا أوقعه في التناقض.

وعندما ترد (أم) بعد (هل) في الفصيح من الكلام تكون (أم) هذه منقطعة
بمعنى (بل)، فتدل على الإضراب كما في قول قتيلة بنت النضر:

هل يسمعن النضر إن ناديته أم كيف يسمع ميت لا ينطق

وكذلك عندما ترد بعد الهمزة التي للتصديق، كما في قول الشاعر:

ولست أبالي بعد فقدي مالكا أموتي ناء أم هو الآن واقع

فـ (أم) هنا منقطعة بمعنى بل، وهي تفيد الإضراب، والإضراب هو الانتقال
من شيء إلى شيء أشد منه، والشاعر يتساءل هل الموت بعيد عنه؟ ثم يضرب عما
تساءل عنه ليقول: بل هو واقع الآن، لأنه لا معنى لحياقي بعد موت مالك.

بين الهمزة وهل:

أما الهمزة فـ:

أ — تستخدم لطلب التصور والتصديق.

ب — يليها المسؤول عنه مباشرة.

ج — في معنى التصور يلزم بعدها أم المتصلة المعادلة، وإن حذفت مع المعادل
قُدِّرَتْ، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَلَّاتُ فَعَلَتْ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾
[الأنبياء/ ٦٢]، والتقدير: أم غيرك؟

د — يمتنع ذكر المعادل بعدها في معنى التصديق كما في قول الرسول عليه
الصلاة والسلام: أو مخرجي هم؟.

هـ — لا يتقدم عليها حرف العطف، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى يَمِينِهِ مَنْ
رَبُّهُ ﴾ [هود/ ١٧]، وقال: ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَبْتَئاً فَأَحْمِتْنَاهُ ﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

و — يجوز حذفها وتقديرها كما في قوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ
أَنْ آذِنَ لَكُمْ ﴾ [الأعراف/ ١٢٣]، أي آمتم؟ وفي شعر عمر بن أبي ربيعة:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً
بسبع رمين الجمر أم بشمان
والتقدير: أسبع؟

وأما هل:

أ — فتستخدم للتصديق وحده.

ب — لا يذكر بعدها معادل.

ج — إذا دخلت على الفعل المضارع حُلِصَتْه للاستقبال، فلا يستقيم أن
تقول: هل تضرب زيداً وهو أخوك؟

د — لا تدخل على الشرط، فلا يستقيم قولك: هل إن جئتك نكرمني؟

هـ — لا تدخل على المضارع النقي، فلا يستقيم قولك: هل لم يقبل خالد؟

و — يكثر أن يأتي بعدها الفعل: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾

[الإنسان/١]؛ لذلك كان بعضهم يعرب المرفوع بعدها فاعلاً لفعل محذوف: هل
خالد يحب الخير؟

بينما يمكن أن تدخل الهمزة على الشرط وعلى المضارع المنفي.

سائر الأدوات:

عرفت في النحو أن الهمزة وهل حرفان لا محل لهما من الإعراب، أما سائر
الأدوات فهي أسماء ذات محل من الإعراب، وكل واحدة منها لها دلالة في
الاستفهام:

مَنْ: يُسأل بها عن العاقل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ
اللَّهِ كَذِبًا﴾ [العنكبوت/ ٦٨]، وحديث أبي هريرة أن رجلاً جاء إلى الرسول ﷺ
فقال: يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابي؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال:
أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال: أبوك.

مَا: يسأل بها عن غير العاقل كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا
مُوسَىٰ﴾ [طه/ ١٧]، فالسؤال عن العصا وهي كما ترى شيء غير عاقل، قال
كثير:

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا
ولا موجعات القلب حتى تولت
متى: يسأل بها عن الزمان كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس/ ٤٨].
قال الشاعر:

متى يشفي منك الفؤاد المعذبُ
وسهم المنايا من وصالك أقربُ
أيان: أيضاً للزمان، لكنها اختصت بزمان المستقبل وبالسؤال عن العظيم من
الأمور، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة/ ٦]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف/ ١٨٧].

أين: يسأل بها عن المكان كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام / ٢٢].

يقول أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

فاسأل بلنسية ما شأنُ مرسيةً وأين شاطبة أم أين حيان

كيف: يسأل بها عن الحال كما في قوله تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف / ٨٦].

قال عنتره:

كيف المزارُ وقد تربع أهلها بعيزتين وأهلنا بالغيلم

ألى: تستخدم بمعنى كيف، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَلَيْ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران / ٤٠].

قال المجنون:

يقول أناسٌ علّ مجنونٌ عامر يروم سلواً قلتُ ألى لما يبا

وتستخدم بمعنى من أين كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَلَيْ لَكَ هَذَا﴾ [آل عمران / ٣٧].

كم: يسأل بها عن العدد كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف / ١٩].

أي: يسأل بها عن كل المعاني السابقة، فللعافل ولغير العافل:

أي شيء في العيد أهدي إليك يا ملاكي وكل شيء لديك

المعاني التي تخرج إليها أدوات الاستفهام:

قلنا إن الاستفهام هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً، ولكن الاستفهام قد يراد منه غير ذلك، فمن المعاني التي يغلب خروج همزة الاستفهام — وهي أم

١- الإنكار: في مثل قوله تعالى ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف/ ٨٠]، والإنكار مع التكذيب كما في ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ [الصافات/ ١٥٣]، والإنكار مع التوبيخ في مثل قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ [الكهف/ ٧١]. وأذكرك هنا بأن المنكر يقع بعد همزة الاستفهام مباشرة، وكان في الأمثلة السابقة فعلاً، وقد يكون فاعلاً (من حيث المعنى) كما في قوله تعالى: ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ﴾ [يونس/ ٤٢]، وقد يكون إنكاراً للمفعول كما في قوله تعالى: ﴿ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا ﴾ [الأنعام/ ١٤].

— التهكم: كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود/ ٨٧]، وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة مواظباً على العبادة، فلما أمرهم ونهاهم غيروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة واستهزؤوا به.

٢- الوعيد: كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود/ ٨١].

٣- التقرير: كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك/ ٨]، فإن الغرض هنا إقرارهم بمجيء النذير، أي قد أتاكم نذير، ومن ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام ﴿ أَلَمْ لَوْ يَكُنْ فِينَا وَلِيدًا ﴾ [الشعراء/ ١٨].

أراد فرعون تثبيت هذا المعنى، أي قد ربيناك فينا وليداً.

قال جرير مادحاً:

الستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
وهمة التقرير إذا دخلت على الموجب نفته كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَلَسْتُ بِرَسُولٍ مِّنْ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام/ ١٠٠].

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿يونس/٥٩﴾، أي لم يأذن لكم، وإذا دخلت على المنفي نفته، ونفي النفي إثبات، قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف/٧٥]، أي قلت لك ذلك فتحوّل النفي إلى إثبات، وأمثلة هذه الهمزة في القرآن الكريم كثيرة وكذا في الفصح من كلام العرب^(١).

٤- التسوية: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة/٦]، فلا استفهام هنا للدلالة على أن إنذار الرسول عليه السلام وعدمه بالنسبة لهم سواء.

أما الأدوات الأخرى فمن المعاني التي تؤديها:

١- النفي: كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام/٤٧]، أي لا يهلك إلا القوم الظالمون، وفي: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن/٦٠]. أي ليس جزاء الإحسان إلا الإحسان، قال البحري:

هل الدهرُ إلا غمرة وانجلاؤها وشيكاً وإلا ضيقة وانفراجها

٢- النهي: كما في قوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّوْهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ [التوبة/١٣]، أي لا تخشوهم، قال الشاعر:

أكل امرئ تحسبين امرءاً ونار توقد في الليل نارا
أي لا تحسبي كل امرئ امرءاً.

٣- الأمر: كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران/٢٠]، والمعنى: أسلموا، قال الشاعر:

ألا ارعوا لمن ولت شيبته وأذنت بمشيب بعده هرم

(١) إذا دخلت همزة الاستفهام على منفي فالجواب يكون بـ (بلى) إيجاباً وإثباتاً وبـ (نعم) سلباً ونفيًا، قال تعالى: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَلَوْا بَلَى﴾ [الأعراف/١٧٢]، وإذا قلت: ألم يكن وقت الدرس، يكون الجواب بـ بلى قد حدث — إثباتاً، أو نعم لم يكن نفيًا.

أي فليردعو.

٤- التمني: كما في قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا ﴾ [الأعراف/٥٣]، أي ليت لنا شفعاء، يقول الشاعر:

هل بالطلول لسائل ردُّ
أم هل لها بتكلم عهْدُ
أي ليتها ترد وتكلم.

٥- التحقيق: فتأخذ الأداة معنى (قد) التي قبل الماضي كما في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ﴾ [الإنسان/١]، وقوله: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات/٢٤].

٦- التعجب: كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان/٧] تعجبوا كيف يأكل الطعام؛ لأنهم أرادوا أن يكون الرسول ملكاً، وتعجبوا من مشيئه في الأسواق؛ لأنهم رأوا الأكاسرة والقيصرية والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق، وكان النبي عليه السلام يخالطهم في أسواقهم ويأمرهم وينهاهم^(١).

قال المتنبي في الحمى:

أبنت الدهر عندي كل بنتٍ
فكيف وصلت أنت من الزحام

٧- التشويق: كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوْبِتُكُمْ بَخِيرٌ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [آل عمران: ١٥].

٨- التهويل: كما في قوله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة/١-٢]، ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ ﴾ [الحاقة/١-٢].

٩- التعظيم: كما في قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَ آلَاءُ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن/١٣].

قال طرفة:

إذا القومُ قالوا من فتى خلعت أنسي
عنيتُ فلم أكسل ولم أتبلد

(١) انظر تفسير القرطبي ٥/١٣.

تدريبات محلولة على بحث الاستفهام

— دل على أسلوب الاستفهام فيما يأتي وشرح المعاني التي أداها:

١— قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى / ٦].

الاستفهام هنا بالهمزة خرج إلى معنى التقرير، تقرير حقيقة يتم النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أن أباه مات وعمر النبي ستة أشهر، ثم ماتت أمه وعمره ثماني سنوات، فكفله عمه أبو طالب.

٢— قال تعالى: ﴿ أَلَمْ لَهُلِكَ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ [المرسلات / ١٦—١٨].

الاستفهام بالهمزة هنا خرج إلى معنى الوعيد، وهو وعيد لأهل مكة، والمراد — كما قال الزمخشري: ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مثلما فعلنا بالأولين، ونسلك لهم سبيلهم لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم.

٣— قال تعالى: ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ [الواقعة / ٨].

دل الاستفهام بـ (ما) هنا على معنى التعظيم.

٤— قال الشاعر:

أَتَرَكُ إِن قَلَّتْ دِرَاهِمُ خَالِدٍ زيارته إني إذن للثيم

أسلوب الاستفهام بالهمزة معناه الإنكار، فالشاعر ينكر على نفسه أن يهجر (خالداً) بعدما ضاقت الدنيا عليه وقل ماله.

٥— قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكُفَّاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ [الصف / ١٠—١١].

الاستفهام — (هل) فيه معنى التشويق، تشويق المؤمنين لمعرفة هذه التجارة
الرابحة التي تنجيهم من العذاب، وهي الإيمان بالله ورسوله.

٦— قال تعالى: ﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا
لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هود/ ٧٢].

الاستفهام بالهمزة هنا معناه التعجب من الإنجاب في هذا العمر، فزوج إبراهيم
عليه السلام كانت قد طعنت في السن هي وزوجها، لذلك قال لها الملائكة:
أتعجبين من أمر الله؟

تدريبات يطلب حلها

بين الأغراض البلاغية التي حققها أسلوب الاستفهام فيما يأتي:

١- قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُقَالُ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران/١٠١].

٢- قال تعالى: ﴿أَغْنِ اللَّهُ كَذِبُونَ﴾ [الأنعام/٤٠].

٣- أيدي الربيع أي دم لها ولها ولهي قلوب هذا الراكب شقا

٤- أين الرواية، بل أين السموم وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب؟

٥- منه الطفولة لي سقم وإعياء حثام أبقي وقد مات الأصحاء؟

٦- قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ نَذِيرًا﴾ [النساء/٤١].

٧- قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم/٢٩].

٨- مالي أراكم تُنكرون مكاني والشمس لا تخفى مع الإشراف؟

٤- أسلوب التمني

التمني: طلب أمر محبوب لا يُتوقع حُصُوله لأحد أمرين:

١- إما لاستحالة الحصول عليه، نحو قوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَنَّا لُزِدُ وَلَا نَكْذِبَ بَيِّنَاتٍ رَبَّنَا﴾ [الأنعام/٢٧].

٢- وإما لكونه صعب المنال، غير مطموح في نيته، كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ [القصص/٧٩]، وقول أبي فراس غنابلاً سيف الدولة: فليتك تملو والحياة مريرة وليتك ترضى والأز: أم غضاب فإلتمنى هنا مما يمكن تحقيقه، لكنه صعب المنال، بعيد الوقوع.

أدوات التمني:

الأداة الموضوعة للتمني هي (ليت)، لكن ثمة أدوات أخرى تشترك معها في طلب التمني، وأهم هذه الأدوات: هل، ولو، ولعل.

١- هل: الأصل في (هل) أنها حرف للاستفهام، لكنها تخرج عن هذا المعنى الذي وضعت له لتحقيق معنى التمني، وذلك لغرض بلاغي، هو إبراز التمني في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع، وذلك لكمال العناية به، والرغبة فيه.

فلو قلت مثلاً لمن لا تتوقع مساعدته: (هل لك أن تساعدني؟)، تكون قد حَمَلْتَ سؤالك نوعاً من التمني لتحقيق حاجتك. ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف/٥٣]، وقول الشاعر:

أيا منزلي سلمى سلامٌ عليكما هل الأزمنُ اللائي مضينَ رواجعُ

ف (هل) هنا بمعنى (ليت)؛ أي ليت لنا شفعاء، وليت الأزمن اللائي مضين

رواجع، وهذا من الأمور التي يستحيل وقوعها، لأنهم يعلمون سلفاً أن لا شفعاء لهم، كما أن تلك الأزمن لن تعود ثانية، وقد استعملت (هل) التي يستفهم بها عن أمر ممكن الوقوع والحصول في موضع (ليت) لإظهار التمني المستحيل في صورة المستفهم عنه الممكن الوقوع؛ لكمال العناية به، والتوق إليه.

٢- (لو)، وهي حرف شرط غير جازم، تدل في أصل معناها على امتناع وقوع الشيء؛ لأنها حرف امتناع لامتناع، ومن هذا المعنى يشير التمني بها إلى عِزَّة وقوع التمني؛ لأن المتكلم يظهره في صورة الممنوع الصعب الوقوع.

من ذلك قولك: (لو أن الحياة تحلو لنا)، معناه: أتمنى أن تحلو الحياة، لكن هذا لم يحدث؛ لأن أصل معنى (لو) هو امتناع الجواب لامتناع الشرط، فإذا ما أكسبناها معنى التمني أفادت أن التمني عزيز صعب الوقوع، والدليل على أن (لو) بمعنى (ليت) أنها دخلت على ما يستحيل وقوعه؛ فنصب المضارع بعدها بأن المضمر بعد فاء السببية^(١).

ومن هذا النوع أيضاً قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة/١٦٧]، وعليه قول مسلم بن الوليد:

واهاً لأيام الصِّبا وزَمَانِهِ
لو كان أسعفَ بالمقام قليلاً
وقول أبي فراس:

أقولُ وقد ناحت بقرى حمّامة
أيا جارتا لو تشعرين بحالي؟
أي: ليتك تشعرين بحالي.

٣- (لعل): وهي من الأحرف الناسخة، ومعناها للترجي، أي طلب أمر محبوب ممكن الوقوع، لكنها تخرج عن هذا المعنى إذا طلب بها أمر مستحيل الوقوع أو

(١) ينصب الفعل المضارع بأن مضمره بعد فاء السببية وذلك إذا سُبقت بالأمر، أو النهي، أو التمني، أو الاستفهام، أو العرض، أو التحضيض.

صعب المنال؛ فيتمنى بها، وتعطى كذلك حكم (ليت)، وينصب المضارع بعدها على إضمار (أن)، وذلك بهدف تحقيق غرض بلاغي هو: إبراز التمني الصعب المنال، أو المستحيل الوقوع في صورة الممكن القريب، دلالة على كمال العناية به، والرغبة فيه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿... فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لِّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى...﴾ [القصص/٣٨]، وعليه قول الشاعر:

أَسِرْبَ الْقَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَلِّي إِلَى مَنْ قَدْ هَوَيْتُ أَطِيرُ؟

وقد تستخدم (ليت) في سياق الترجي، وذلك لغرض بلاغي هو إبراز الأمر المتوقع حصوله بصورة المستحيل أو البعيد المنال، من ذلك قول المتنبي:

فَلَيْتَ هَوَى الْأَحْبَةِ كَانَ عَذْلًا فَحَمَلْتُ كُلَّ قَلْبٍ مَا أَطَاقَا

فـ (ليت) هنا بمعنى (لعل)؛ لأن المطلوب هنا أمر ممكن مطموح في حصوله، وقد أثر الشاعر استعمال (ليت) مع أن المقام لـ (لعل) بهدف إبراز الأمر المرجو المرتقب الوقوع في صورة البعيد الوقوع، الذي لا طماعية في الوصول إليه، وذلك لغرض المبالغة في الدلالة على بعد وقوعه.

وبكلمة أخرى: إن المعنى المراد هو الترجي، والأداة المستخدمة هي (ليت)؛ لأن المطلوب هنا ممكن مطموح في حصوله.

والحقوا بأدوات التمني السالفة: (هلاً، ولولاً، ولوماً)، وقالوا إنها تضيف إلى معنى التندم والتحضيض معنى التمني، فهذه الأدوات إذا ما دخلت على الفعل الماضي أفادت التندم أو التوبيخ، وإذا دخلت على الفعل المضارع أفادت التحضيض.

مثال ذلك قول عنتره:

هَلَّا سَأَلْتُ الْخَيْلَ يَا بِنْتَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتُ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي

فـ (هلاً) بمعنى ليت، أي ليتك فعلت.

وقال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود/١٧]،

أي ليت أنزل...، وقال أيضاً: ﴿لَوْ مَا تَأْتَيْنَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

[الحجر/٧]، بمعنى ليتك تأتينا.



تدريبات محلولة على بحث التمني

— بين المعاني الأصلية المستفادة من صيغ التمني والصيغ المجازية التي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال فيما يأتي:

١— قال الشاعر:

علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا جسني ستجمعي يوماً وتجمعه
(علّ) هنا للترجي؛ لأن المطلوب هنا ممكن مطموع في حصوله، والأداة مستعملة في أصل وضعها.

٢— قال تعالى: ﴿يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغَ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [غافر/٣٦-٣٧].

(لعل) هنا للتمني؛ لأن المطلوب غير مطموع في حصوله، والغرض البلاغي من استعمال (لعل) في موضع التمني هو إبراز الأمر المستحيل في صورة الممكن.

٣— وقال آخر:

ألا ليت الشباب يعود يوماً فأخبره بما فعل المشيب
(ليت) هنا استعملت في أصل وضعها لأن المطلوب مما يستحيل حصوله.

٤— وقال جرير:

ولّى الشباب حميدةً أيامه لو كان ذلك يشتري أو يزجّع
(لو) هنا للتمني؛ لأن المطلوب غير مطموع في حصوله، وقد استعملت (لو)

في موضع (ليت) للإشعار بعزة الممتنى وإبرازه في صورة الممتنع؛ لأن (لو) تدل في أصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط.
٥- وقال آخر:

ليت المدائح تستوفي مناقبه فما كليب وأهل الأعصر الأول؟
(ليت) هنا للترجي؛ لأن المطلوب مطموع في حصوله، والغرض البلاغي من استعمال (ليت) في موضع (لعل) هو إبراز المرجو في صورة المستحيل مبالغاً في امتناع الحصول عليه.

٦- قال تعالى: ﴿ قُلُوا أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء/١٠٢].
(لو) هنا بمعنى (ليت)؛ لأن المطلوب غير مطموع في حصوله، والغرض البلاغي من استعمالها هنا هو الإشعار بعزة الممتنى وإبرازه في صورة المستحيل.
٧- قال البوصيري:

لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم
(لعل) هنا للترجي، وهي مستعملة في أصل وضعها.
٨- وقال آخر:

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقوق مدح فما أرضى لكم كلمي
(ليت) استعملت وفق الأصل في تمني أمر متعذر الوقوع.

تدريب يطلب حله

— بين المعاني الأصلية المستفادة من صيغ التمني والصيغ المجازية

التي تفهم من سياق الكلام فيما يأتي:

١— فليت الليل فيه كان شهراً ومراً غاراً مرّاً السحاب

٢— ألا ليت شعري هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعجبُ

٣— فليت الشامتين به فنوة وليت العمر مُدْله فطالا

٤— قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً ﴾ [المؤمنون/ ٩٩ — ١٠٠].

٥— قال تعالى: ﴿ وَكَلَّا إِذِ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ ﴾ [النور/ ١٦].

٦— قال تعالى: ﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُورِثَ قَارُونُ ﴾ [القصص/ ٧٩].

٥- أسلوب النداء

النداء: طلب المتكلم إقبال المخاطب عليه بحرف من حروف النداء ينوب
مناب الفعل (أنادي) أو نحوه. والنداء قد يكون طلب الإقبال فيه حقيقة مثل: يا
سعاد، يا بُني، وقد يكون حكماً مثل: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبا/١٠].

وأدوات النداء ثمان: الهمزة — أي — يا^(١) — أ — آي — أيا — هيا — وا.
وهذه الأدوات — وفقاً للاستعمال — نوعان: الهمزة وأي لنداء القريب،
وباقى الأدوات لنداء البعيد.

وقد تخرج هذه الأدوات عن أصل معناها الذي وضعت له من حيث القرب
والبعد؛ فينادى البعيد بأداة نداء القريب، وينادى القريب بأداة نداء البعيد للطائف
بلاغية، من ذلك:

١- قد ينزل البعيد منزلة القريب؛ فينادى بالهمزة وأي المختصتين بنداء
القريب، وذلك لشدة استحضاره في ذهن المنادي، وكأن هذا البعيد في جسده
حاضر في قلبه ونفسه، فلا حاجة لمناداته بأدوات نداء البعيد. ومن أمثلة ذلك:

أَعْلِيَّ إِن تَكِ بِالْعِرَاقِ نَسِيتَنِي فَأَنَا بِمِصْرَ عَلَى هَوَاكِ مَقِيمٌ

المنادي هنا (علي) بعيد عن المتكلم، وكان مقتضى الظاهر أن يناديه بإحدى
أدوات النداء الموضوعة للبعيد، لكنه خرج عن هذا الأصل فناده بالأداة المختصة
بنداء القريب، إشارة إلى قربيه من قلبه، وحضوره في خاطره لا يارحه، فكانه

^(١) وهي أكثر أحرف النداء استعمالاً، وقبل هي مشتركة بين القريب والبعيد، وأنه لا ينادى اسم الله عز وجل إلا
بها، وقد تحذف، كما في قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [يوسف/٢٩].

حاضرُ الجسد، ليس ببعيدٍ عن العيان.

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر ينصح ولده البعيد عنه:

أَحْسِنُ إِيَّيْ وَاعِظْ وَمُؤَدِّبُ فَافْهَمْ فَإِنَّ الْعَاقِلَ الْمُتَأَدِّبُ

٢- وقد ينزل القريب منزلة البعيد القاصي؛ فينادي بغير الهمزة وأي، وذلك لأغراض منها:

أ- تعظيم شأن المنادي، كقولك مخاطباً الأمير وأنت في حضرته: (يا سمو الأمير) بدلاً من (أسمو الأمير). ومنه قول أبي نواس:

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَقَّوْكَ أَعْظَمُ

فالمنادي — هنا — قريب من المتكلم؛ بل هو أقرب إليه من نفسه، فنودي بغير الهمزة وأي؛ للإشعار بأنه جليل القدر، عظيم الشأن، فكأن بعد المسافة يفيد ما أفاده من علو المكانة.

وثمة معنى آخر يمكن أن يستشف من هذا النداء، وهو أن الشاعر اختار هذه الأداة تأدياً منه في خطاب الذات الإلهية ومناداتها.

ب- تحقير شأن المنادي، فينادي القريب بأداة نداء البعيد احتقاراً وامتهاناً، من ذلك قولك لمن بحضرتك: (يا هذا اتعظ)؛ و(يا هذا لا تنصرف حتى يؤذن لك)، وعليه قول الشاعر:

أَيَا هَذَا أَتَطْمَعُ فِي الْمَعَالِي وَمَا يَحْظَى هَا إِلَّا الرِّجَالُ؟

د- مناداة الغافل، فينزل القريب منزلة البعيد لكونه حاضراً شكلاً، غائباً عقلاً، إما لغفلته أو لشروده ذهنه، أو ما سوى ذلك؛ فيعامل بذلك معاملة البعيد، فينادي بأداة البعيد، نحو قول الشاعر لمن هو بحضرته:

أَيَا جَامِعَ الدُّنْيَا لَغَيْرِ بِلَاغَةٍ لَمَنْ تَجْمَعُ الدِّينَا وَأَنْتَ تَمُوتُ؟

خروج النداء إلى أغراض بلاغية.

وقد تخرج صيغ النداء عن معناها الأصلي الذي وضعت له، وهو طلب إقبال المتكلم، إلى معان أخرى، تفهم من سياق الكلام، وقرائن الأحوال، من ذلك:

١- الزجر واللوم:

كقولك زاجراً ولدك عل ثماديه: (أبني إلى متى تلهو والوقت يداهمك؟)، ومن ذلك قول الشاعر:

أيها القلبُ قد قضيت مراماً فإلام الولوع بالشهوات
وقول الآخر:

يا قلب حسبك ما قد ذقت من حرق يا قلب حسبك ما قد نلت من تعب
٢- التحسر والتوجع:

ويظهر هذا المعنى جلياً في نداء الأيام السالفة، والمنازل الدارسة، والقبور، والمطايا وما شابه ذلك، من ذلك قول ابن الرومي:

لك يا منازل في القلوب منازلُ أفقرت أنتِ وهنّ منك أو اهيلُ
٣- الحث والإغراء:

ويكون عندما تُغري المنادي بآسم أو لقب أو صفة يجبها أو يستحقها، نحو قولك لجندي متردد: (يا بطل تقدم)، أو قولك: (يا مظلوم تكلم). ومنه شعراً قول المتنبي:

يا أعدلَ الناسِ إلّا في معامَلتي فيك الخِصامُ وأنت الخِصمُ والحكمُ
وقوله أيضاً:

فيا بخرَ البحورِ ولا أورّي ويا مَلِكَ الملوكِ ولا أحاشي

٤- التعجب:

نحو قولك: (يا له من كتاب مفيد)، و(يا لها من قصة جميلة) وعليه قول امرئ

القيس:

فيا لك من ليلٍ كأنَّ نُجُومَهُ بكلِّ مُقَارٍ القتلِ شُدَّتْ يَذُبِّلُ

وقول الفارعة بنت طريف ترثي أخاها الوليد:

أيا شجرَ الخابور مَالَكَ مورقاً كَأَنَّكَ لم تجزع على ابن طريف

٥- الاختصاص:

والمقصود هنا ذكر اسم ظاهر بعد ضمير لبيانه وتخصيصه بما نُسب إليه، كقولك: (أنا أعشق العلم أيها الرجل)، تقصد (أنا) لا غيري مختص من بين الرجال بعشق العلم، وعلى هذا فالمقصود بالرجل هنا هو المتكلم وليس من مخاطب، فيصبح المقام مقام فخر، ويحذف حرف النداء.

ويأتي الضمير متبوعاً بإحدى الصور الآتية:

١- صورة الاسم المنصوب على الاختصاص سواء أكان معرفاً بأل، كقولك: (نحن البلاغيين نفجر طاقات الكلام)، أم بالإضافة نحو: نحن أبناء يعرب أعرب الناس لساناً وأنضر الناس عوداً.

٢- أن يأخذ صورة المنادى، إلا أنه لا يجوز إظهار حرف النداء، نحو: (عليك أيتها الأم يتوقف مصير العائلة). أو (عليَّ أيها الطالب اعتمد في حل المسألة).

٣- اسم معرف بالعلمية، نحو: بنا تميماً يُكشف الضباب.

فليس المقصود فيما ذكر حقيقة النداء، أي طلب الإقبال؛ لأن المقصود هنا، هو المتكلم نفسه، وليس المخاطب، وهو لا ينادي نفسه، ولا يطلب إقبالها، لذلك حُمل قوله على معنى الاختصاص بمعونة السياق.

٦- الاستغاثه:

هي النداء وقت نزول الكارثة حقيقة كانت أم مجازاً، والغالب على المستغاث به (المنادى) أن تسبقه لام الجر الأصلية، وتكون مبنية على الفتح وجوباً. ومثال هذا النوع القول: (يا لله من تحب الإنسان)، و(يا لصالح الدين لنحلة فلسطين)، ومنه شعراً:

يا لقومي، وما لأمثال قومي لأناس عتوهم في ازدياد
٧- الندبة:

وهو النداء وقت نزول الموت حقيقة كان أم مجازاً، وأكثر ما يستعمل هذا الأسلوب مصدراً بلفظ (وا)، نحو قول المهنون العامري:

فوا كبدًا من حبٍّ مَنْ لا يُحِبُّني ومن عَبرَاتٍ ما هن فناء
وقول كثير عزة:

فوا عجباً للقلب كيف اعترفته وللنفس لما وطئت كيف ذلت
وقول المتنبي في رثاء جدته:

فوا أسفاً ألا أكبَّ مُقبِّلاً ليرأسك والصنبر الذي ملأنا حزملاً
٨- العجب:

وذلك عندما تلصق بالمنادى ما يشعره برفع منزلته لديك، وبمحببتك واهتمامك به، نحو قولك: يا حبيبي، يا صديقي، يا حياتي، يا بني...

٩- التضجر والتعجُّر:

نحو قول الشاعر:

يا هموم الحياة فكّي إساري واثري كي لحومّي ونفاري
وقول الآخر:

يا ليل قد طلت فهل مات السحر أم استحالت شمسهُ إلى القمر
وأخيراً نقول: إن معاني النداء تتلون — كذلك يتلون السياق ودلالات الإيحاء
التي تضيفها؛ فتكون زجراً، أو استغاثة، أو اختصاصاً، أو إغراء،... أو غير ذلك،
فالأداة لم تتغير، وإنما تغير المعنى بحسب العبارة التي دخلت عليها. والملاحظ هنا أن
أسلوب النداء كثيراً ما يرافقه هي أو أمر، ويقل أن تصحبه جملة خبرية أو
استفهامية.

تنبيه:

مما يجدر التنبيه إليه — وكما ذكرنا — أن الخير والإنشاء قد يقع أحدهما موقع
الآخر، فيقع الخير موقع الإنشاء، ويحل الإنشاء محل الخير، ولا يتم ذلك إلا ضمن
ضوابط معينة، وبقرائن خاصة يدل عليها السياق، ولأغراض بلاغية محددة، وإليك
تفصيل ذلك:

أولاً: وقوع الخير موقع الإنشاء:

قد يحل الخير محل الإنشاء لأغراض، منها:

١- التفاضل، ويكون ذلك باستعمال الفعل الماضي نحو: (رحم الله فلاناً)، أو
(سدد الله خطاك)، و(عصمك الله من الزلزل)... وغير ذلك، فإن هذه الصيغ أخبار
في ظاهرها، إنشاء في طلبها؛ لأن أصلها: (ربي ارحم فلاناً)، وليسدد الله خطاك...
وهكذا، فإن استعمال الخير في موضع الإنشاء هو لإظهار التفاضل لأن دلالة الفعل
الماضي تؤكد حصول الأمر.

ومنه شعراً:

أتاني، أبيت اللعن، أنك لمتني وتلك التي أهتم منها وأنصب

فنوع الكلام خير، لكن المقام للإنشاء إذ الغرض الدعاء له.

٢- إظهار الحرص على وقوعه: كقولك لمن يرجو بلوغ هدف: (حقق الله

لك ما تريد)، و(بلغك مرادك)، فيورده بلفظ الماضي قصداً إلى إظهار الرغبة الملحة، والحرص الشديد على وقوع هذا الأمر.

٣- الاحتراز عن صورة الأمر تأديباً وتلطفاً، كقولك لمن تريد منه حاجة: (يراعي السيد طلبي)، و(ينظر المدير في موضوع إجازتي)، فهذا وأمثاله أكثر أدباً وتلطفاً من قولك: راع، وانظر.

٤- حمل المخاطب على المطلوب منه بأسرع السبل، كقولك لصديق لك: (تزورني غداً، وأطلعك على ما لدي)، فتكون هذه الصيغة قد حملته على تنفيذ المطلوب بالطف السبل وأسرعها.

ثانياً: وقوع الإنشاء موقع الخبر، أي أن ظاهر العبارة إنشاء وحقيقتها خبر، أما أغراضه البلاغية فمنها:

١- إظهار العناية بشأنه، نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف/٢٩]، فعطف جملة إنشائية (وأقيموا) على جملة خبرية (أمر ربي)، ولكن أصل المعنى (إقامة وجوهكم)، فهي إنشاء في ظاهره، خبر في حقيقته، فتكون العبارة: قل أمر ربي بالقسط وإقامة وجوهكم.. أما الغرض من ذلك فهو إظهار العناية بشأن الصلاة، تعظيماً لقدرها، وجليلاً منزلتها.

٢- الاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود/٥٤]، فعطف فعل الأمر (اشهدوا) على جملة خبرية (إني أشهد)، لكن فعل الأمر هنا في حقيقة خبر، على معنى (إني أشهد الله وأشهدكم أني برئ مما تشركون)، والغرض البلاغي من ذلك هو تحاشي مساواة شهادة الله بشهادتهم.

تدريبات محلولة على أسلوب النداء

أولاً: بين صيغ النداء في الأمثلة الآتية، وما جرى منها على أصل وضعها في نداء القريب أو البعيد، وما خرج منها عن ذلك:

١- قال المفضل الضبي:

أُبْنِي لَا تَبْعُدْ وَلَيْسَ بِمَالِدٍ حَمِيٍّ وَمِنْ تَصَوَّبِ التَّوَنُ بَعِيدُ
أنزل المنادى البعيد منزلة القريب، فتودي بأداة خاصة بخطاب القريب، وهي الهمزة، إشارة إلى قربه من نفسه، وحضوره في خاطره، فكانه حاضراً الجسد ليس بغائب عن عيانه.

٢- وقال سوار بن المصترّب:

يَا أَيُّهَا الْقَلْبُ هَلْ تَنْهَاكَ مَوْعِظَةٌ أَوْ يُحْدِثُكَ لَكَ طَوْلُ الدَّهْرِ نَسْيَانًا
أنزل المنادى القريب منزلة البعيد، فتودي بأداة البعيد (يا)، إشارة إلى أن المنادى غافل لاه، فكانه غير قريب.

٣- قال الفرزدق:

أُولَئِكَ آبَائِي فَحَسَنِي بِمَقْلِهِمْ إِذَا جَمَعُوا يَا حَرِيرُ الْجَامِعُ
أداة النداء هنا هي (يا) في قوله (يا حريم)، وقد نودي بها القريب خلافاً للأصل، إشارة إلى أن مخاطبته حريماً منقطع القدر، وضع الشأن، فكان بُعد درجته في الانعطاف بعداً في المسافة.

٤- قال المتنبي:

أيا ربّ قد أحسنتَ عوداً وبدوّاً
إليّ فلم يتهضّ بإحسانك الشكرُ
أداة النداء (أيا) في قوله (أيا ربّ)، وقد نوّدتُها القريب على خلاف الأصل،
إشارة إلى علو مرتبة المنادى.

ثانياً: بين الأغراض البلاغية التي حققها أسلوب النداء فيما يأتي:

أريحانة العينين والأنف والحشا
ألا ليت شعري هل تغيرت من بعدي؟
النداء بالهمزة في قوله: (أريحانة...) معناه الحث والإغراء؛ لأن الشاعر يناديها
بصفة محبة يرى ألها تليق بها.

٢- وقال آخر:

دَعَوْتُكَ يَا كَلِيبَ فَلَمْ تُجِبْنِي
وكيف يُحييني البلدُ القَفَّارُ
النداء بـ (يا) في قوله: (يا كليب) يفيد التحسر؛ لأنه ينادي من لم يعد له
وجود.

٣- وقال آخر:

يا أبا القاسم الذي كنت أرجو
ه لَذَفَرِي قَطَعْتَ مَسْتَنَ الرِّجَاءِ
النداء بـ (يا) في قوله: (يا أبا القاسم) يفيد التحسر، فهو يتحسر على ذاك
الرجاء الذي عقده على أبي القاسم.

٤- وقال غيره:

فَوَا لَهْفِي وَالْقِرْبُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
على نظرة من تلكُمُ النَّظَرَاتِ
النداء بـ (وا) في قوله (فوا لهفي) معناه الندبة، فالشاعر يندب حاله وما آل
إليه من فراق أحبته فراقاً لا عودة منه.

٥- قال بشر بن أبي حازم:

..... فَيَا لِنَاسٍ لِلرَّجُلِ الْمُعْتَى طَوَالَ الدَّهْرِ إِذْ طَالَ الْحِصَارُ

النداء بـ (يا) في قوله (يا للناس) معناه الاستغاثة، فهو يستغيث طالباً النجدة
لنصرة ذاك الذي طال حصاره.

٦- وقال آخر:

يَا لَيْلُ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ؟

النداء بـ (يا) في قوله: (يا ليل..). معناه التضجر والتحير، فالشاعر طال عليه
ليله وسهده، وهو يأمل بانفراج قريب، لكن ليله يأبى عليه ذلك.

٧- وقال آخر:

أَعْدَاءُ مَا لِلْعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ وَلَا لِلْخَلِيلِ مَهْجَةٌ بِخَلِيلٍ

النداء بالهمزة في قوله: (أَعْدَاءُ) معناه التحسر، التحسر على فراقه، وعلى زوال
كل مهجة بغيابه.

٨- قال أبو العلاء المعري:

فَوَا عَجَبًا كَمْ يَدْعِي الْفَضْلَ نَاقِصٌ وَوَأَسْفَا كَمْ يُظْهِرُ النَّقْصَ فَاضِلٌ!

النداء بـ (وا) في قوله (فوا عجباً) يفيد التعجب، التعجب مما انقلب عليه
الحال من ادعاء الناقص الفضل، وادعاء الفاضل النقص. وتحتل كذلك (الندبة)،
أي يندب الحال الذي وصل إليه حال البشر.

٩- وقال غيره راثياً:

يَا مَوْتَهُ لَوْ أَقَلَّتْ عَثْرَتُهُ يَا يَوْمَهُ لَوْ تَرَكَهُ لَغَدُ

النداء بـ (يا) في قوله: (يا موته، يا يومه) معناه الزجر واللوم، فهو يزجر

الموت والأيام، ويلومهما على عدم الرفق والتأني في سلبه هذا الإنسان العزيز.

١٠- وقال آخر:

يا ليلة لست أنسى طيبها أبداً كأن كل سرورٍ حاضرٍ فيها

النداء بـ (يا) في قوله (يا ليلة) يفيد التحسر والتوجع، فالشاعر يتحسر على تلك الليلة وما كان له فيها من بهجة وسرور، حتى باتت في خاطره، أبداً لا تفارقه.



تدريبات يطلب حلها

* — دل على أسلوب النداء في الأمثلة الآتية، وبين المعاني المستفادة منه:

١— قال تعالى: ﴿ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور/٣١].

٢— يَا طَائِرَ الْبَانِ قَدْ هَيَّجْتَ أَشْجَانِي وَزِدْتَنِي طَرَباً يَا طَائِرَ الْبَانِ

٣— حَجَبَوْهَا عَنِ الرِّيحِ لِأَنِّي قُلْتُ يَا رِيحُ بَلِّغِيهَا السَّلَامَا

٤— فَيَا لَائِمِي دَعْنِي أَغَالِي بِقِيمَتِي فَكَيْفَ كُلُّ النَّاسِ مَا يَحْسِنُونَهُ

٥— يَا دَارَ عَاتِكَةِ حَيِّتِ مَنْ دَارَ سَيَّرْتُ فَيْكَ وَفِيمَنْ فَيْكَ أَشْعَارِي

الفصل الثاني

أحوال الإسناد

الجملة — المسند إليه — المسند — المتعلقات بالفعل.

الحذف: حذف المسند إليه — حذف المسند — حذف متعلقات الفعل.

الذكر: ذكر المسند إليه — ذكر المسند — ذكر المتعلقات.

التعريف: تعريف المسند إليه — تعريف المسند.

التنكير: تنكير المسند إليه — تنكير المسند.

التقديم: تقديم المسند إليه — تقديم المسند — تقديم المتعلق بالفعل.

تقييد المسند إليه بالوصف، بالإبدال منه، بتوكيده، بالعطف عليه، ببيانه.



أحوال الإسناد

المعروف أن الجملة في لغتنا العربية قسمان:

الجملة الاسمية، وهي المؤلفة من المبتدأ والخبر (العلم مفيد) أو من إن واسمها وخبرها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه/ ١٥].

والجملة الفعلية، وهي التي تبدأ بالفعل كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة/ ١٢٨].

وقول الشاعر:

أضاعوني وأيّ فتي أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر؟

وبين الاسمية والفعلية فرق في المعنى، لأن الاسم له دلالة على الحقيقة دون زمانها فإذا قلت: (زيد منطلق) لم يفد إلا إثبات الانطلاق لزيد، وأما الفعل فله دلالة على الحقيقة وزمانها، فإذا قلت (انطلق زيد) أفاد ثبوت الانطلاق في زمان معين لزيد، وكلّ ما كان زمانياً فهو متغير، والتغير يشعر بالتجدد، لذلك فإنّ (يرزقكم) في قوله تعالى ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [فاطر/ ٣]، لا يدل على مجرد كونه — عز وجل — معطياً للرزق، بل على كونه معطياً للرزق في كلّ حين وأوان، بينما (باسط) في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّبُهُمْ بِاسِطٍ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف/ ١٨]، ليس الغرض منه إلا إثبات البسط للكلب دون زمانه^(١).

والجملة لا تفيد معنى إلا إذا توفّر فيها مسند إليه ومسند، مسند إليه يحكم عليه

^(١) انظر نهاية الإجمال / ٧٥.

في الكلام، ومسند يحكم به، لذلك سمي البلاغيون المسند إليه محكوماً عليه، وسموا المسند محكوماً به.

والنسبة بين المسند إليه والمسند تسمى إسناداً كما عرفت في بحث الخبر، فإذا كانت هذه النسبة حقيقية كان إسناداً حقيقياً، وإذا كانت غير حقيقية كان إسناداً مجازياً، وإليك بيان ذلك:

نقول: (استنبط الخليل قواعد العروض) فالمسند إليه (الخليل) هو الركن الأساسي في الجملة، والمسند هو (استنبط) ولما كانت نسبة الاستنباط إلى الخليل حقيقة قلنا: هذا إسناد حقيقي.

ونقول: (بنى الأمير المدينة) فالمسند إليه (الأمير) والمسند فعل (بنى) ولكن نسبة البناء إلى الأمير غير حقيقية لأن الذي بنى بالفعل هم العمال وليس الأمير، وإنما أمر بالبناء فبنى، ولما كانت نسبة البناء إلى الأمير كما قلنا غير حقيقية قلنا إنه إسناد مجازي.

وكذا في الجملة الاسمية نقول: (النهار مضى) فالمسند إليه (النهار) والمسند (مضى) ونسبة الإضاءة إلى النهار حقيقية فهو إسناد حقيقي. أما لو قلنا في وصف رجل متعب (نهاره صائم) فالمسند إليه (نهاره) والمسند (صائم) لكن نسبة الصيام إلى النهار غير حقيقية لأن النهار لا يصوم وإنما يصوم المرء في النهار، فهو إسناد مجازي.

وقد سمي عبد القاهر الجرجاني — واضع نظرية النظم — الإسناد المجازي المجاز العقلي تارة والمجاز الحكمي تارة أخرى، ومثل له بقول الصلتان العبدى:

أشاب الصغير وأفنى الكبير — رَكَرَ الغداة ومَرُّ العشي

وقال: إن المجاز هنا واقع في إثبات الشيب فعلاً للأيام ولكرّ الليالي^(١). وقال
البلاغيون في تعريفه هو إسناد الكلام إلى غير ما هو له في الحقيقة، وجعلوا منه
قولهم (سرّي الخير) و(أسعدني لقاءك) وما إلى ذلك. وترى الحديث عن المجاز
مفصلاً في كتب البيان، وإنما يهتم علم المعاني بالحديث عن المسند إليه والمسند وما
يلحق بهما من ألفاظ في الجملة كالمفعول والظرف وغيرهما.

وقبل الكلام على هذه الأشياء ينبغي أن تعرف مواطن المسند إليه ومواطن
المسند في العبارة العربية.

مواطن المسند إليه:

أ — المبتدأ الذي له خبر كما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾
[الفتح/٢٩].

ب — ما كان أصله مبتدأ كما في قول كعب:

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهندٌ من سيوف الله مسلولٌ

ج — الفاعل كما في قول بشار:

أظن الدجى طالت وما طالت الدجى ولكن أطلال الليل همٌ مريح

د — نائب الفاعل كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا تُفِخَ فِي الصُّورِ تَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾
[الحاقة/١٣].

هـ — مرفوع المبتدأ المشتق كما في قولك: ما محمود فضلك.

وقول الشاعر:

أمنجز أنتم وعدا وثقت به أم اقتفيتم جميعاً هج عرقوب^(٢)

(١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٢٧، وأسرار البلاغة ص ٣٢٠.

(٢) عرفت في النحو أن (أنتم) هنا فاعل لاسم الفاعل (منجز) وقد سد مسد خيره، فلم يعد (منجز) وهو مبتدأ
مشتق محتاجاً إلى خبر وإنما اكفى بمرفوعه.

مواطن المسند:

أ — الفعل التام كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/ ٥].

وقول ابن الوردي:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل وقل الفصل وجانب مَنْ هزل

ب — اسم الفعل كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ﴾ [الإسراء/ ٢٣].

وقول الشاعر:

فهيهات هيهات العقيق وَمَنْ بِهِ وهيهات خل بالعقيق نواصلة

ج — خبر المبتدأ كما في قول الرسول عليه الصلاة والسلام (كل تسبيحة صلقة، وكل تحميلة صلقة).

د — خبر إنَّ وكان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ١٥٥]، وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ لَذِيْرًا﴾ [الفرقان/ ١].

ه — المبتدأ المشتق المستغني عن الخبر كما في قول الشاعر:

أمضروبة ليلي على أن أزورها ومُتَّخِذُ ذنباً لها أن ترانينا

وقول الشاعر:

أقاطن قوم سلمى أم نواظعنا إن يظعنوا فعجيب أمر من قطننا

وما ليس مسنداً إليه ولا مسنداً من كلمات العبارة فهو قيد، وقد يسمى فضلة كالمفاعيل والتميز والحال وأدوات الشرط والنفي والجار والمجرور والظروف والتوابع.

وقد تعرض للمسند إليه والمسند والمفعول والظرف وغير ذلك أحوال مثل الحذف والذكر، والتقديم والتأخير، والتعريف والتكثير، ستحدث عنها مشيرين إلى أن المسوغات البلاغية التي تدعو إلى حذف المسند إليه مثلاً أو ذكره أو تقديمه أو تعريفه قد تكون ذات المسوغات التي تدعو إلى تلك الأحوال في المسند وفي غيره، والحديث عنها في موضع يغني عن الحديث في موضع آخر.

الحذف والذكر

الحذف

الحذف عند البلاغيين أحد طرق التعبير التي تثير المعنى وتعمقه، لذلك أولوهُ عناية خاصة، يقول الجرجاني: «هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتحدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبين» (١). فهو عنده وجه من وجوه التعبير يسهى للمخاطب متعة نفسية شبيهة بالسحر، ويحدث عنده تحريكاً للخيال.

وقد اهتم البلاغيون بحذف المسند إليه والمسند والمفعول، ورأوا الجمال والروعة يتجليان في العبارة عندما يحذف ركن من أركانها أو شيء مما يتعلق به، ووجدوا وراء ذلك دواعي بلاغية شتى ومعاني مختلفة ولكنهم أدرکوا أنه يفقد قيمته عندما لا يقوم في العبارة دليل عليه إذ يصبح نوعاً من الإلغاز أو التعمية، وليس شيء أبعد عن بلاغة العرب وفصاحتهم مثل الإلغاز والتعمية. ولا يكون الحذف عبثاً وإنما وفق شروط حددتها العرب بلغتهم واستتبطها البلاغيون بحذقهم.

حذف المسند إليه:

أكثر مواضع المسند إليه حذفاً في الكلام البليغ الحالة التي يسميها البلاغيون القطع والاستئناف، كأن أقول لك (عرفت زيدا في المكتبة فوجدته رجلاً محباً للعلم

(١) دلائل الإعجاز / ١١٢.

شغوقاً بالمطالعة والبحث، أنشدني شعراً له فكان من أجل ما أنشدت، فني يحب
 الخير ويسعى إليه)، ألا ترى أنني قطعت الكلام عند (أنشدت) واستأنفت بلفظ
 (فني) مرفوعاً على أنه خير لمبتدأ محذوف وتقدير الكلام هو فني، هذا الحذف جاء
 على القطع والاستئناف، وهو أن يذكروا الرجل ثم يقولوا فني من صفاته كـ
 و كيت، وهذا كثير في كلامهم وفي شعرهم، تقرأه في مدحهم كقول إبراهيم بن
 العباس الصولي:

سأشكر عمراً ما تراخت مني
 أيادي لم تمنن وإن هي جلت
 فني غير محبوب الغنى عن صديقه
 ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
 والمراد: هو فني، فحذف المسند إليه (هو).

وتقرأه في هجائهم كقول الأقيشر الأسدي في ابن عم له موسر سأله فمنعه،
 وقال: كم أعطيك مالي وأنت تنفقه فيما لا يعينك، والله لا أعطيك، فتركه حتى
 اجتمع القوم في ناديتهم وهو فيهم، فشكاه إلى القوم وذمه، فوثب إليه ابن عمه
 فطمه، فأنشأ يقول ضمن أبيات:

سريع إلى ابن العم يطم وجهه
 وليس إلى داعي الندى سريع
 حريص على الدنيا مضيق لدينه
 وليس لما في بيته مضيع
 والمراد: هو سريع، هو حريص.

وتقرأه في شعرهم وهم يذكرون أطلالهم متشوقين، كقول عمر بن أبي ربيعة:
 اعتاد قلبك من ليلى عوائده
 وهاج أهواءك المكنونة الطلل
 ربع قواء أذاع المعصرات به
 وكل حيران سار ماؤه خضل^(١)

(١) قواء: لا أنيس به، المعصرات: الرياح العاصفة أو السحاب، أذاع المعصرات به، ذهب به وطمسته، الحيران
 الساري: المرن يجري ليلاً، قال الجرجاني: لا يظن هنا أن (ربع) بدل من (الطلل) لأن الربع أكثر من الطلل، والشئ
 يبدل مما هو مثله أو أكثر منه، فأما الشئ، من أقل منه ففاسد لا يتصور، الدلائل ص ١١٢.

والمراد: هو ربع.

وتقرؤه في غزلهم كقول بكر بن النطاح:

العين تبدى الحب والبغضا وتظهر الإبرام والنقضا
درة ما أنصفتني في الهوى ولا رحمت الجسد المنضى
غضى ولا والله يا أهلها لا أطعم البارد أو ترضى
والمراد هي غضى.

ويحذف العرب المسند إليه تجنباً للحشو في الكلام وذلك عندما لا يتحقق من ذكره فائدة.

كأن يكون في جواب الاستفهام كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ [الهمزة/٥-٦]، والمراد: هي نار الله، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارُ حَامِيَّة ﴾ [القارعة/ ١٠ - ١١] المراد: هي نار.

أو يكون بعد القول كما في قوله تعالى حكاية عن زوج إبراهيم: ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات/ ٢٩]، والمراد أنا عجوز، وقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام وفرعون: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [الشعراء/ ٢٣ - ٢٤] والمراد: هو رب، قال الشاعر:

وإني رأيت البخل يزرني بأهله فأكرمت نفسي أن يقال: بخيل
والمراد: هو بخيل.

أو يكون بعد الفاء الرابطة لجواب الشرط كما في قوله تعالى مشبهاً الإنفاق في سبيل مرضاته بجنة في ربوة يتضاعف محصولها: ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌ ﴾ [البقرة/ ٢٦٥]، والمراد: فهو طل، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ﴾

[البقرة / ٢٢٠]، والمراد: فهم إخوانكم.

أو يكون معروفاً لدى المخاطبين فلا فائدة من ذكره كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ [القيامة / ٢٦]، والمراد: إذا بلغت الروح التراقي، وكما في قول حاتم الطائي:

أماوي ما يغني الثراء عن الفقى
إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
والمراد: حشرجت الروح.

ويحذفون المسند إليه إذا وجدوا أن ذكره لا يتوجه إليه غرض في الكلام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال / ٢]، فأنت ترى أن الفعلين (ذكر) و(تلى) بنيا للمجهول فحذف فاعل كل منهما وهو المسند إليه لعدم تعلق الغرض بشخص الذاكر أو التالي، والمفعول به (الله) و(آياته) صار نائباً للفاعل^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل / ١٢٦] أي بمثل ما عاقبكم الناس به.

ويحذفونه إذا كان همهم منصّباً نحو المسند يوجهون المخاطب إليه كما في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ لَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف / ٣٥] أي هذا بلاغ، ويكثر هذا النوع من الحذف في الأمور الجسام كما في قوله تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر / ٧١] أي وساق الملائكة الذين كفروا، وقوله تعالى ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر / ٢٣] أي وجاء الملائكة الموكلون بذلك بجهنم.

ويحذفون المسند إليه التزاماً بحرفية العبارة أو اتباعاً للاستعمال السوارد عنهم؛

^(١) المحذوف هنا هو فاعل (ذكر) وفاعل (تلا) أي المسند إليه الحقيقي، أما نائب الفاعل (الله) و(آياته) فهو مسند إليه باللفظ لأنه لا بد لكل مسند من مسند إليه إلا يكن حقيقياً فبالنيابة عنه.

فالعرب تقول: (رمية من غير رام) ونحن إذا أردنا أن تتمثل هذا المثل ونستشهد به نورده بصيغته التي جاء بها من غير أن نذكر المسند إليه المحذوف، إذ التقدير: هذه رمية أو هي رمية وكذلك قولهم (شنشنة أعرفها من أخزم)^(١) أي هذه شنشنة.

وثمة حالات أخرى لا يمكن حصرها، والأمر متوقف على حال المخاطب أو على علاقة المتكلم بالمخاطب، وما ذكرناه هنا وما ذكره البلاغيون لا يمكن أن يمثل إحصاء شاملاً لكل الدواعي التي توجب الحذف، وإنما نقدم صوراً ونماذج يمكن أن يهتدى بها ويحتذى حذوها، والأمر نفسه يقال في الأحوال التي سنعرض لها كالذكر والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير.

حذف المسند:

عرفت أن المسند خير أو فعل، وقد أشار الجرجاني إلى حذف المسند (الخبر) عندما يكون في العبارة (إنّ) المؤكدة إذ تعني هذه عن الخبر فيورث حذفه المعنى عمقاً وتوكيداً كقولهم لمن سأل: هل لكم أحد إن الناس ألب عليكم؟ فيقولون: إنّ زيداً وإنّ عمراً، أي إن لنا زيداً وإن لنا عمراً، ومنه قول الأعشى:

إنّ محملاً وإنّ مرتحلاً وإنّ في السفر إذ مضوا مهلاً^(٢)

والتقدير إن لنا في الدنيا محلاً ولنا عنها مرتحلاً، فأنت ترى أن سياق المعنى دل على المحذوف وأنت لو ذكرت الخبر لكان في كلامك حشو لا ضرورة له. ومن دلالة السياق على المحذوف ما يتبع فيه قواعد العرب في كلامهم:

كحذفهم الخبر بعد (إذا) الفجائية عند من عدّها حرفاً كما في قولك: نخرجت

^(١) لأبي أخزم الطائي وكان له ابن عم عاق يقال له أخزم فمات وترك بنين فوثبوا يوماً على جدهم أبي أخزم فأدموه، فقال:

إنّ بـ ضريحـوني بـ الدم شنشنة أعرفها من أخزم

والشنشنة: العادة، وذهبت العبارة مثلاً.

^(٢) لو اسقطت (إنّ) لم يحسن الحذف لأنها الحاضنة له والمتكلفة بشأنه، أنظر دلائل الإعجاز ٢٤٧.

فإذا زيد، أي فإذا زيد بالباب أو فإذا زيد موجود، ولا يصح الحذف إلا إذا أراد المتكلم هذا المعنى ودل السياق عليه، ويمتنع إن لم يرد كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس/ ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ تَيْسَاءُ﴾ [الأعراف/ ١٠٨]^(١).

وبعد (لولا) شريطة أن يكون الخير كوناً مطلقاً كقول المستضعفين لرؤسائهم الذين استكبروا ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبا/ ٣١] فالمسند وهو خير (أنتم) محذوف تقديره: موجودون. ومنه قول جرير في رثاء زوجه:

لولا الحياءُ لها جنى استعمارُ
ولزرت قبرك والحبيب يزارُ
أما إذا أريد التقيد فالواجب الذكر كما في قولك: لولا القومُ محسنون لهلك الفقراء.

ويحذفون المسند (الخبر) إذا كان المسند إليه نصّاً في اليمين كما في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر/ ٧٢]، والتقدير: لعمرك قسمي، قال ليبد في رثاء أخيه:

لعمرك ما تدري الضواربُ بالخصي
ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ
ويحذفون المسند لدلالة ملفوظ عليه كما في قوله تعالى واصفاً الجنة ﴿أَكُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد/ ٣٥]، المراد: وظلها دائم، وقد دل عليه (دائم) الأولى، وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [المائدة/ ٥]، والمراد: والمحصنات حل.

قال ضائبى الرحمي وهو في السجن:
فمن يلك أمسى بالمدينة رحله
فإني وقيارها لغريب^(٢)

(١) لم يقع الخبر بعدها في القرآن إلا مذكوراً (المعنى ٨٧).

(٢) قيار اسم الفرس أو الجميل، ولعل السر في تقدم قيار على خبر إن قصد التسوية بينه وبين الشاعر في التحسر على الاغتراب.

قَيَّارٌ مَبْتَدَأٌ وَخَبْرُهُ (المسند) محذوف لدلالة خبر إن عليه والتقدير: وقَيَّارٌ غريب.
وقال جميل:

أَتَوْنِي فَقَالُوا يَا جَمِيلُ تَبَدَّلْتَ بَشِينَةً أَبَدَالًا فَقُلْتَ لَعَلَّهَا
أَيُّ لَعَلَّهَا تَبَدَّلْتَ فَحَذَفَ الْمَسْنَدُ.

ويحذفونه إذا كان واقعاً في جواب لسؤال كما في قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف/ ٨٧]، والتقدير: ليقولن خلقهم الله، لمحيء
ذلك في مثل هذا الموضع ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ بِهٍ قَالَتْ مَنْ أُنْبِئُكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ
الْخَبِيرُ ﴾ [التحریم/ ٣].

ويحذفون المسند (الفعل) إذا جاء مفسراً بمذكور من لفظه كما هي الحال بعد
(لو وإن وإذا) الشرطيات وهنا يدل الحذف على معنى الاختصاص وتقوية الحكم.
فمثال (لو) قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا
لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء/ ١٠٠]، والتقدير: (لو تملكون تملكون) تكرر
الفعل للتخصيص ثم حذف الفعل الأول، ولما حذف انفصل ضميره والمعنى: لو
ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى لأمرين أحدهما أنه لا بد
أن يمسك منها لنفسه وما يعود بمنفعته، والثاني أنه يخاف الفقر ويخشى العدم، والله
تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين^(١).

قالوا في المثل: لو ذاتُ سوارٍ لطممتي^(٢)، والتقدير: لو لطممتي ذات سوارٍ لطممتي
يدل على ذلك إعرابهم (ذات) فاعلاً لفعل محذوف يفسره المذكور.

ومثال (إن) قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ﴾ [النساء/ ١٢٨]، والتقدير: إن خافت

(١) تفسير القرطبي ١٠ / ٣٣٥.

(٢) مثل بضرب لمن يهينه اللثيم.

امراً بدليل ذكر المفسر (خافت) الآتي.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة / ٦]، أي:
وإن استجارك أحد، و(أحد) في الآية فاعل لفعل محذوف مفسر بالمذكور وجملة
المذكور تفسيرية.

ومثال (إذا) قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾
[الانفطار / ١ - ٢]، والتقدير: إذا انفطرت السماء انفطرت، حذف الفعل
(المسند) لدلالة (انفطرت) الثاني عليه، ومنه للمتنبي:

وإذا الشيخ قال أف فما ملّ حياة وإنما الضعف ملاً

والتقدير: وإذا قال الشيخ.

وهكذا فإنهم يحذفون المسند سواء أكان خبراً أم كان فعلاً اختصاراً للكلام أو
زيادة في تقوية الحكم وتوكيده، أو تجنباً للحشو والتكرار، أو اتباعاً لأساليب
العرب وقواعدهم.

حذف متعلقات الفعل:

المراد بمتعلقات الفعل — كما عرفت — الألفاظ التي ترتبط بالفعل ارتباطاً وثيقاً
فلا يكتمل المعنى حتى يقع الفعل عليها، والبلاغيون عندما يتحدثون عن هذه
المتعلقات، يُعنون بالمفعول والظرف^(١)، وقيسون عليهما غيرهما.

قال الجرجاني: «الحاجة إلى حذف المفعول أَمَسَّ واللطائف فيه أكثر، وما يظهر
بسيبه من الحسن والرونق أعذب وأظهر»^(٢).

والفعل المتعدي هو الذي يأخذ المفعول لكن قد يكون مراد العرب من استخدام
هذا الفعل هو أن يقتصروا على إثبات معنى الفعل للفاعل من غير أن يتعرضوا لذكر

^(١) الظرف عند البلاغيين المفعول فيه أو الجار والمحرور.

^(٢) دلائل الإعجاز / ١١٨.

المفعول، وهنا يغدو الفعل المتعدي — من حيث الظاهر — كالفعل اللازم الذي لا يأخذ مفعولاً، لأنه لو تعدى لانتقض الغرض وتبدل المعنى.

ألا ترى أنك إذا قلت: زيد يعطي الدنانير، كان غرضك بيان جنس ما تناوله الإعطاء لا بيان كونه معطياً، أما إذا مدحته فقلت: هو يعطي ويمنع — مثلاً — بحذف مفعول يعطي ومفعول يمنع فإن غرضك إثبات معنى الإعطاء للفاعل (الممدوح)، وهذا الحذف يحتمل المبالغة ويطلق الخيال ليوحد عن المفعول فلا يجده.

تدبر الآن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر / ٩]، تجد أن المراد: هل يستوي من له علم ومن ليس له علم أي إثبات العلم لهؤلاء وعدم العلم لهؤلاء، والكلام هنا لا يحتاج إلى ذكر المعلوم (المفعول)، وإنك إذا قدرت فقلت: الذين يعلمون الفقه أو الحديث أو الفلك تكون قد ضيقت من أفق الفعل وجعلته مقيداً بجهة وليس هذا مقصوداً.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف / ٩٦]، فالمراد إطلاق وصفهم بالتكذيب دون تخصيصهم بما كذبوا به بدليل أنه في موضع آخر جاء ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس / ٧٣].

فالعرب تحذف المفعول إذا كان غرضها إثبات معنى الفعل للفاعل على الإطلاق. ويحذفونه لدلالة السياق عليه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا / ٣٦]، أي لا يعلمون أن الله هو القابض والباسط، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد / ١]، أي لا يؤمنون بإنزاله إليك من ربك^(١).

(١) انظر الإشارة إلى الإيجاز / ١٧.

ويحذفونه اختصاراً كما في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف/ ١٧]، أي من يهده ومن يضلله، وقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان/ ٤١]، أي بعثه، ومن هذا قولك: أصغيت إليه أي أذني، وأغضيت عليه أي بصري.

ويحذفون المفعول إن لم يتعلق بذكره غرض، أفرا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْلِيَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٣) فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ [القصص/ ٢٣ - ٢٤] تجد أن المفعول حذف في أربعة مواضع لأن المعنى: وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم، وامرأتين تذودان غنهما، وقالتا: لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنهما^(١)، والغرض أن يعلم أنه كان من الناس في تلك الحال سقي، ومن المرأتين ذود، وأخما قالتا لا يكون منا سقي حتى يصدر الرعاء، وأنه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقي، فأما ما كان المسقي أغنماً أم إبلاً فذلك أمر لا يتعلق به غرض، ولو قال: وجد من دونهن امرأتين تذودان غنهما لجاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود، بل من حيث هو ذود غنم مثلاً.. يقول الزمخشري: «إن موسى عليه السلام رحم تلكا المرأتين لأخما كانت على الذباد وهم على السقي ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم ومسقيهم إبل»^(٢).

ويحذفون المفعول به إذا جعلوا الفعل كناية عنه، يقول البرقوقى: «وهو أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه إما لجري ذكره أو دليل حال، إلا أنك تنسيه نفسك وتخفيه»^(٣). ومثاله قول البحرى في المعتز بالله:

(١) انظر دلائل الإعجاز / ١٢٤.

(٢) الكشف / ٣ / ١٦٢.

(٣) انظر حاشيته على كتاب التلخيص / ١٢٧.

شجُو حَسَّادَه وَغِيْظَ عَدَاَه أَنْ يَرى مبصرٌ وَيَسْمَعُ وَاِع

يُمدح الخليفة المعتز ويعرّض بالخليفة المستعين، فحذف مفعول (يرى) ومفعول (يسمع) أي: أن يرى مبصر محاسنه ويسمع وَاِع أخباره وأوصافه، ومعنى البيت: أن محاسن المعتز وفضائله يكفي فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يعلم أنه المستحق للخلافة وأن أحداً لا ينبغي أن ينازعه عليها، فلا يشجى حسّاده ويغيظ أعداءه مثل أن يكون ثمة مبصر يرى وسماع يعي، ويتمنى حسّاده وأعداؤه ألا يكون في الدنيا مبصر أو سامع. فكانَ فعلي (يرى) و(يسمع) في الشطر الثاني كانا كناية عن المفعول بمعنى أنهما دلاً عليه وهو محذوف.

ويحذفون المفعول به لدفع توهم إرادة غير المراد أي إذا كان ذكره يوهم غير المقصود، كما في شعر البحري يمدح أبا الصقر الشيباني إذاً محاماة الممدوح وصيافته له ودفعه نوائب الزمان عنه:

وكم دُذَّتْ عني من تحامل حادث وسورة أيام حَزَزْنَ إلى العظم

أي حزن اللحم إلى العظم، لكن الشاعر أسقط المفعول (اللحم) لتحقيق غرض في نفسه، فقد خشي — إن ذكره — أن يتوهم السامع في البدء غير ما أراد فيتوهم أن الحز قبل ذكره ما بعده لم ينته إلى العظم وأنه كان في بعض اللحم، فحذفه ليزيل هذا الوهم.

ثم إن العرب تحذف المفعول به بعد أفعال المشيئة أي في موضع البيان بعد الإهمام، وأمثلة هذا في القرآن الكريم لا تكاد تحصى.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة/ ١٣]، أي ولو شئنا هداية الأنفس لآتيناه كل نفس هداها.

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ﴾ [البقرة/ ٢٥٣]، أي ولو شاء الله ألا يقتتلوا ما اقتتلوا.

ومن الشعر قول طرفة:

فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت^(١) مخافة ملوي من القذ محصد^(٢)

أي إن شئت عدم الإرقال لم ترقل وإن شئت الإرقال أرقلت.

وهذا الحذف من أبلغ الحذف، والكلام الذي بعده يدل عليه، ألا ترى أن جواب الشرط في بيت طرفة (لم ترقل) دل على المفعول المحذوف؟ وكذا (أرقلت).

ويجب أن يدل ما بعده عليه، فإنه لا يمكنك في قوله تعالى، مثلاً: ﴿مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ [الأنعام/ ٣٩] تقدير أي مفعول لـ (يشأ) سوى كلمة (إضلاله) التي فهمتها من الجواب (يضلله) لأن تعلق الفعل المذكور بالمفعول المحذوف تعلق طبيعي لا غرابة فيه.

نقول هذا لنتقل إلى الجهة التي يمتنع فيها مثل هذا الحذف وهي التي يكون فيها تعلق الفعل بمفعوله غريباً كما في قول الخزيمي يرثي أبا الهيثم:

ولو شئت أن أبكي دماً لبكيته عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فتعلق فعل (شئت) بمفعوله هنا وهو (البكاء دماً) غريب فليس من شأن الإنسان أو ليس من عادته أن يبكي دماً، لذلك امتنع الحذف.

وقد يحذف العرب المفعول مراعاة للنظم في الشعر كما في قول النابغة الذبياني:

تناذرهما الراقون من سوء سمها تطلقه حيناً وحيناً تراجع

والمراد: تراجعها، لكن الروي (العين المضمومة) ألقا الشاعر إلى حذف المفعول،

وقد يأتي ذلك مراعاة للفاصلة في القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل/ ٥ - ١٠]،

^(١) يتحدث عن ناقته، والإرقال: سرعة السير، والقذ: السوط من الجلد، والمحصد: المفتول.

فمن الممكن أن يكون مفعول اتقى قد حذف ليتناسب مع (الحسنى) و(اليسرى).
وربما حذفوا المفعول لاستهجان ذكره كقول عائشة رضي الله عنها: «ما رأيتُ
منه — أي رسول الله ﷺ — ولا رأى مني» تريد العورة.
يقول البهاء زهير:

ما قلتَ أنت ولا سمعتُ أنا هذا حديثٌ لا يليقُ بنا
إن الكرامَ إذا صحبَتْهمُ ستروا القبيحَ وأظهروا الحسنَا
يريد: ما قلت فحشاً أو ما قلت مكروهاً.
ولمَّة حالات أخرى لحذف متعلقات الفعل تفهم من سياق العبارة فيها.

*

*

*

الذكر

اعلم أن ذكر المسند إليه أو المسند أو ما يتبع ذلك من أركان الجملة هو الأصل في التركيب، فمن أين لك أن تفهم — مثلاً — قصد الشاعر:

ورزقك ليس ينقصه التائي وليس يزيد في الرزق العناء
لو حذف المسند إليه (رزقك).

ومن أين لك أن تفهم قصد الشاعر:

إنما الدنيا متاع زائل فاقتصد فيه وخذ منه ودع
لو حذف المسند (متاع).

وهذا الذكر أساس لا يستغني عنه الكلام؛ لأن ذلك يوقع في اللبس والإهمام، وقد تتبّع البلاغيون الحالات التي يذكر فهي المسند إليه واستنبطوا منها معاني مثل: زيادة الإيضاح والتقرير كما في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة/٥]، فـ (أولئك) الثانية — وهي مسند إليه — ذكرت لتقرر أن المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب ويطعمون الصلاة وينفقون مما آتاهم الله ويؤمنون بما أنزل إلى محمد وإلى من قبله من الأنبياء ويؤمنون بالآخرة أن هؤلاء أهل للفلاح^(١).

التبرك بلفظ المذكور أو التلذذ بذكره كأن تقول: الله كريم، الله عظيم، الله

^(١) ليس في (أولئك) الأولى شاهد لأن حذفها يخل بالمعنى، أما الثانية فمن الممكن حذفها وتكون العبارة (أولئك على هدى من ربهم وهم المفلحون)، إلا أنها ذكرت للغرض الذي شرحناه.

حليم، قال الشاعر:

محمد خير رسل الله كلهم محمد خير من يمشي على قدم
والمعروف أن الإنسان يكثر من ذكر من يحب أو ما يحب، قال مالك ابن الريب
التميمي:

ألا ليت شعري هل أيتن ليلة يحب الغضى أزجي القلاص النواجيا^(١)
فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه وليت الغضى ماشى الركاب لياليا
لقد كان في أهل الغضى لودنا الغضى مزار ولكن الغضا ليس دانيا
فالغضى اسم يحبه الشاعر ويحن إليه، وقد وقع في البيت الثاني وبعض البيت
الثالث مسنداً إليه.

بسط الكلام: عندما تلقى صديقاً تحبه، فيسألك عن أخبارك لا تكفي بأن
تقول له: (بخير)، وإنما تقول على سبيل المثال: (أنا بخير وأهلي بخير وأموري
جيدة...) حباً في إطالة الحديث معه.

انظر ما قاله موسى عليه السلام عندما سأله الله عز وجل: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ
يَا مُوسَى﴾ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
مَآزٍ أُخْرَى ﴿[طه/ ١٧ - ١٨]. فذكر (هي) - وهي مسند إليه - وكان
حذفها - لو حذف - ينسجم والقاعدة التي مرت معك في حذف المسند إليه
لأنه واقع في جواب لسؤال، لكن ذكرها رغبة في إطالة الكلام مع من يحب بدليل
أنه ذكر بعدها (أتوكأ عليها وأهش بها...) وهي أمور لم يسأل عنها.
- تعظيم المسند إليه: كما في قول المتنبي مادحاً سيف الدولة:

^(١) الغضا شجر ينبت في الرمل، أزجي: أسوق أو أجهز، القلاص جمع قلوص وهي الناقة، والنواجي جمع ناجية
وهي السريعة.

فَأَنْتَ حَسَامُ الْمَلِكِ وَاللَّهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لَوَاءُ الدِّينِ وَاللَّهُ عَاقِدٌ
وَأَنْتَ أَبُو الْهَيْجَا بْنِ حَمْدَانَ يَا أَبْنَةُ تَشَابَهُ مَوْلُودَ كَرِيمٍ وَوَالِدُ
الشَّاهِدِ لَفْظُ (أَنْتَ) فِي الشَّطْرِ الثَّانِي وَالثَّلَاثِ إِذْ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ: فَأَنْتَ
حَسَامُ الْمَلِكِ وَلَوَاءُ الدِّينِ وَأَبُو الْهَيْجَاءِ.. لَكِنْ ذَكَرَهُ تَعْظِيماً.

وَتَتَّبِعُ الْبَلَاغِيُّونَ الْحَالَاتِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهِ الْمُسْنَدُ وَذَكَرُوا مِنْهَا:

ضَعْفُ الْقَرِينَةِ: كَانَ يَقُولُ: الْجَا حَظَّ كَاتِبِ وَالْمُتَنِّي شَاعِرٌ، فَالْمُسْنَدُ (شَاعِرٌ)
ذَكَرَهُ وَاجِبٌ هُنَا لِأَنَّهُ حَذَفَهُ يُوْحِي بِأَنَّ الْمُتَنِّيَّ كَاتِبٌ أَيْضاً وَهَذَا غَيْرُ مَرَادٍ، فَالْقَرِينَةُ
الْمَفْهُمَةُ فِي (الْجَا حَظَّ كَاتِبِ وَالْمُتَنِّي) ضَعِيفَةٌ غَيْرُ مُنْبِئَةٍ بِشَاعَرِيَةِ الْمُتَنِّي، قَالَ حَاتِمُ
الطَّائِي:

أَمَاوِيَّ إِنَّ الْمَالَ غَادٍ وَرَائِحَ فَأُولَهُ شُكْرٌ وَآخِرَهُ ذِكْرٌ
الشَّاهِدُ (ذَكَرَ).

التَّعْرِيزُ بِمَجْهَلِ السَّامِعِ أَوْ (الْمُخَاطَبِ) وَغِيَاثُهُ: كَمَا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
السَّلَامُ عِنْدَمَا سَأَلَهُ قَوْمُهُ ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْجَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (٦٢) قَالَ
بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴿ [الْأَنْبِيَاءُ / ٦٢ — ٦٣] فَذَكَرَ الْمُسْنَدُ (فَعَلَهُ) وَكَانَ حَذَفَهُ
— لَوْ حَذَفَ — يَنْسَجِمُ بِلَاغِيّاً وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي عُرِفَتْ فِي بَحْثِ الْإِنْشَاءِ لَهُمْ سَأَلُوهُ
عَنِ الْفَاعِلِ (أَنْتَ)، فَلَوْ قَالَ (بَلْ كَبِيرُهُمْ) لَكَانَ جَوَاباً صَحِيحاً، لَكِنْ أَرَادَ أَنْ
يَعْرِضَ بِمَجْهَلِ هَؤُلَاءِ السَّائِلِينَ وَيَتَّهَمُهُمْ مِنْ غِبَائِهِمْ فَلَوْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ لَمَا اعْتَقَدُوا
أَنَّهَا آلِهَةٌ، وَلَوْ كَانَتْ تَضُرُّ أَوْ تَنْفَعُ لِدَافَعَتِ عَنْ نَفْسِهَا، فَذَكَرَ الْمُسْنَدُ هُنَا وَهُوَ فَعَلٌ
(فَعَلَهُ) تَعْرِيزٌ بِعَدَمِ فَهْمِهِمْ وَسُوءِ تَفْكِيرِهِمْ وَضَعْفِ اعْتِقَادِهِمْ.

إِفَادَةُ التَّجَدُّدِ إِذَا كَانَ فِعْلاً وَالثَّبُوتِ إِذَا كَانَ اسْماً، فَالْفِعْلُ يَدُلُّ عَلَى التَّجَدُّدِ
وَالْحُدُوثِ وَيَتَضَمَّنُ الزَّمْنَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ إِلَى قَرِينَةٍ ظَرْفِيَّةٍ (أَمْسَ — الْيَوْمَ —
غَدًا)، أَمَّا الْاسْمُ فَيَفِيدُ الثَّبُوتَ وَالْإِسْتِقْرَارَ بِمَجْرَدِ الزَّمَنِ.

ولتدرك الفرق بينهما اقرأ قوله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء/ ١٤٢] أخبر عن المنافقين بفعل (يخادعون) أي يحددون الخداع المرة تلو المرة، وفي ذلك تفيد بالزمن لضعفهم، وأخبر عن ذاته — عز وجل — بلفظ (خادع) وهو اسم يفيد الثبوت والقوة والاستقرار.

ومنه قال الشاعر:

كلّ امرئ راجع يوماً لشيئته وإن تخلق أخلاقاً إلى حين
فرجوع المرء إلى طبعه وجبلته أمر ثابت لذلك جيء بالمسند اسماً فليل (راجع)،
أما (تخلق) فهو فعل يدل على التجدد والحدوث لأن المرء يصطنع ذلك اصطناعاً أو
يظهر هذه الأخلاق أحياناً.

إفادة التخصيص بالمسند إليه كما في قوله تعالى ﴿ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة/ ١١٤]، فمشركو أهل مكة الذين كانوا يمنعون المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام ومنعون النبي عليه السلام من الصلاة عند الكعبة لهم في الآخرة عذاب عظيم، وقد أفاد ذكر المسند (لهم) هنا التخصيص بالمسند إليه (عذاب) أي أنهم يستحقون هذا العذاب كما استحقوا الهوان والذل في الدنيا^(١). ومن هذا القبيل قول الرسول عليه السلام — في حجة الوداع (إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق)، الشاهد في ذكر المسند (لكم).

ورأى البلاغيون في ذكر متعلقات الفعل أن المفعول به إذا ذكر في الكلام كان غرض التكلم وقوع الفعل عليه كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ [البقرة/ ٤٩]. فإن المراد إفادة وقوع الفعل (يسومون) على المفعول (كم)، والفعل

^(١) ليس الشاهد في (لهم) الأول لأن ذكره أصل هنا وحذفه يبهم المعنى.

(يذبحون) على المفعول (أبناءكم)، والفعل (يستحيون) على المفعول (نساءكم) وقل
مثل ذلك في الآيات التالية:

وكلّ غضيض الطرف عن هفواتي	أحبّ من الإخوان كلّ مُواتٍ
ويحفظني حيّاً وبعد مماتي	يوافقني في كلّ أمر أريده
فقاسمته مالي من الحسنات	فمن لي بهذا ليت ألي وجدته
على كثرة الإخوان أهل ثقاتي	تصفحتُ إخواني فكان أقلهم

وقد يفيد ذكر المتعلق معنى التخصيص كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس/ ٧٣]، فالمراد من ذكر (بآياتنا) — وهو متعلق بالفعل — تخصيص وصفهم بما كذبوا به، ومنه قول الشاعر:

الضاريين بكلّ أبيض مخدّم والطاعنين بمجامع الأضغان^(١)
فقد قصر المدح على الضاريين بالسيف لا بغيره والطاعنين بمجامع الأضغان لا
غيرها وهكذا.

(١) مجامع الأضغان كناية عن القلوب.

تدريبات محلولة على الحذف

اذكر دواعي حذف المسند إليه فيما يأتي:

١- قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «أعطوا الطرق حقها، قيل، وما حقها يا رسول الله؟ قال: غض البصر وكف الأذى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر». حذف المسند إليه (المبتدأ) لوقوعه في جواب لسؤال، والمراد: حقها غض البصر، أو هو غض البصر، فذكره هنا

حشو لا فائدة منه لأنه مفهوم من السياق.

٢- قال تعالى: ﴿إِلَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا قُلِّبَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال/٢].

حذف المسند إليه (الحقيقي) هو فاعل (ذكر) وفاعل (تلا) لأنه لا يتحقق غرض من ذكره، فالمؤمنون بمجرد أن يذكر اسم الله عز وجل ويلفظ به تفرع قلوبهم لذكره استعظاماً له وهيباً وإجلالاً أياً كان الذاكر، وأياً كان التالي، لذلك بني الفعلان للمجهول.

٣- قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عَنْيَ فَهُمْ لَا يُرْجَعُونَ﴾ [البقرة/١٨].

حذف المسند إليه (المبتدأ) على سبيل القطع والاستئناف، والمراد: هم صم، والغرض ذمهم وتحقيرهم.

٤— قال لبيد:

وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعُ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ

حذف المسند إليه (الحقيقي) وهو فاعل ترد مراعاة للقافية، فالروي في القافية عين مضمومة، ولا يستقيم أن يقول الشاعر مثلاً: ولا بد يوماً أن يرُدَّ الله الودائع، كما أن الوزن لا يسمح له بذلك.



تدريبات يُطلب حلّها

السؤال الأول: اشرح الدواعي التي اقتضت حذف المسند إليه أو المسند فيما يأتي:

- ١- ملوك وإخوان إذا مدحهم أحكم في أموالهم وأقرب
- ٢- قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ (١٠) نَارٍ حَامِيَةٍ﴾ [القارعة/ ٨ - ١١].

- ٣- وإلا فاعلموا أنا وأنتم بغلة ما بقينا في شقاق
- ٤- إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بما كانت على الناس أهونا

السؤال الثاني: اشرح الدواعي التي اقتضت حذف المفعول فيما يأتي:

- ١- أنحوك الذي إن سرك الأمر سره وإن ساء أمرٌ ظلّ وهو حزين
- ٢- أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمرُ
- ٣- قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلِّلْهُ﴾ [الأنعام/ ٣٩].
- ٤- قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه/ ٤٤].
- ٥- قال تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصفات/ ١٧٥].

التعريف والتذكير

المعرفة: ما دل على شيء بعينه، والنكرة: ما دل على شيء لا بعينه، أي إن النكرة يفهم منها ذات المعين فحسب، ولا يفهم منها كونه معلوماً للسامع، والمعرفة يفهم منها ذات المعين، وكونه معلوماً للسامع.

وقد تناول النحاة هذين المبحثين بالدراسة والبحث؛ فتحدثوا عن أشكال التعريف وأنواعه، وبينوا مواضع التذكير، لكن دراستهم لم تتجاوز الناحية الإعرابية الشكلية. أما البلاغيون فقد اتخذت دراستهم بعداً أعمق، فلم يكتفوا بذلك، وإنما توغلوا في دراستها من وجهة نظر فنية، فبينوا أغراضها وأسرارها البلاغية، واللطائف التي تؤديها.

أ — التعريف:

المعرفة خمسة أنواع، أعرفها بالترتيب: الضمير، العلم بأنواعه، اسم الإشارة، اسم الموصول، المحلى بـ (أل)، المضاف إلى غير الضمير من المعارف السابقة. والتعريف يقع في المسند إليه والمسند، وإليك تفصيل ذلك:

— تعريف المسند إليه:

الأصل في المسند إليه أن يكون معرفة؛ لأنه المحكوم عليه، أو لأنه العنصر الثابت الذي يجب أن يكون معلوماً، وإلا ما كان الحكم عليه بيناً مفيداً.

أولاً — تعريفه بالضمير:

والتعريف بالضمير يرد في أحد المقامات الثلاثة، وهي: مقام التكلم، ومقام

الخطاب، ومقام الغيبة، في حال الأفراد والتثنية والجمع.

أ — مقام التكلم:

ويكون عندما يتحدث المتكلم عن نفسه، فيقول: (أنا) في حال الأفراد، و(نحن) في حال الجمع^(١)، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه/١٤]، وقوله سبحانه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف/١٣].

ومنه قول حافظ إبراهيم متحدثاً بلسان اللغة العربية:

أنا البحرُ لأحشائه الدُّرُ كأمينٍ فهل سألوا الغواص عن صدَّقاتي
ومنه قول الشاعر:

ونحنُ التاركون لما سَخِطْنَا ونحنُ الآخذون لما رَضِينَا
فواضح من إيراد المسند إليه معرفةً بضمير التكلم في البيتين الاعتداد بالنفس مع الفخر وتمام الفائدة.

ب — مقام الخطاب:

ويكون حين يتوجه الكلام إلى مخاطب واحد أو أكثر مائل أمام المتكلم، من ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة/ ١٣٢].

ومنه قول أمانة الخثعمية تخاطب ابن الدمينه الشاعر:

وأنتَ الذي أَخْلَقْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي وَأَشْمَتَ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
وأصل الخطاب أن يتوجه به إلى مشاهد معين، لكنه قد يخرج عن معناه، فيخاطب:

١ — غير المشاهد، إذا كان مستحضراً في القلب، راسخاً في البال والخاطر،

^(١) يرى البلاغيون أنه لا فرق بين أن يكون ضمير المتكلم منفصلاً مثل (أنا) أو متصلاً مثل التاء...

فيعامل معاملة المخاطب المشاهد المائل أمام العيان.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَوْفَّيْنَا فَاٰنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٨٦].

٢— مخاطبة غير المعين: إذا قصد تعميم الخطاب، وتوجيهه إلى كل من يتأتى خطابه في أي زمان، وأي مكان، من ذلك:

— (أنت تسأل ونحن نجيب).

— وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل/ ١].

— وقوله أيضاً: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ﴾ [السجدة/ ١٢].

وقول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافياً وحسب النايبا أن يكن أمانياً

وقول المعري:

ولا تجلس إلى أهل الدنايا فإن خلائق السفهاء تُعدي

فضمير المخاطب هنا لم يتوجه إلى واحد بعينه، وإنما انتقل من معين مقصود إلى معين غير مقصود، يصلح أن يخاطب به كل من يتأتى خطابه حتى المتكلم نفسه.

ح— مقام الغيبة:

ويكون عندما يُقصد التعبير عن الغائب من حيث إنه غائب لتقدم مرجعه.

ويأخذ تقدم المرجع ثلاث صور:

١— أن يتقدم لفظاً تحقيقاً، نحو قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَخْضَكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا

وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف/ ٨٧] ومنه قول المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

٢— أن يتقدم تقديرًا: نحو قولهم: (نعم رجالاً عمرو) عند من يجعلون (عمرو)

مبتدأً مؤخرًا، والجملة قبله خيراً مقدماً. فالمسند إليه (فاعل نعم الضمير المقدر —

هو) يرجع إلى عمرو.

٣- أن يتقدم معنى: إذا دل عليه لفظ سابق من جنسه، أو تومئ إليه قرينة حال؛
مثال النوع الأول، قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾
[النور / ٢٨]؛ فضمير الغائب «هو» عائد على معنى الرجوع، المفهوم من قوله
(ارجعوا)؛ أي: وإن قيل لكم ارجعوا، فالرجوع أزكى لكم.

ومثال ما كان مرجعه قرينة دلت عليه قوله تعالى: ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾
[ص / ٣٢]، فإن سياق الكلام الدال على فوات وقت الصلاة يدل على أن التواري
للشمس.

وقد لا يسبقه ما يدل عليه، كما في ضمير الشأن، نحو قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ
اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص / ١]، وقوله أيضاً: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى
الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج / ٤٦]، فضمير الغيبة هنا لم يسبقه اسم ظاهر
يرجع إليه، لذلك يسمى ضمير الشأن أو القصة، ويغلب هذا النوع عند شيوخ
مرجع الضمير، أو إدعاء أنه شيء معلوم لا يستحق كثيراً من التنبيه، فيكون تقديره
في الآية الثانية: «على أنه القصة أو المسألة التي تعرفونها...».

٢- تعريفه بالعلمية:

العَلَم: هو الذي يعين مسماه مطلقاً ويميزه من غيره، فنحن حين نقول: (زيد)
أو (عمر) فإنما يتعين في ذهن الجماعة الشخص المسمى بمجرد إيراد اسمه.

ويلحق بالعلم و — عند النحاة — الكنية واللقب، أما الكنية: فهي ما صُدِّرَ
بأب أو أم، كأبي بكر، وأم سلمة. واللقب: وهو ما أشعر بمدح أو ذم، كزَيْنَ
العابدين...

ويؤتى بالمسند إليه معرفة بالعلمية؛ لأن المقام يقتضي التعريف بالعلم، ولأن ثمة
مزايا يحققها العلم دون غيره من المعارف، من ذلك:

١- إحضاره بعينه في ذهن السامع باسم مختص به، لتمييزه من غيره، نحو قوله تعالى: ﴿ قَالَ نُوحُ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ﴾ [نوح / ٢١]، وقول كعب بن زهير: بانث سعاد فقلبي اليوم متبولٌ متىم إثرها لم يفد مكبولٌ

وقول ابن الرومي في رثاء المغنية بستان:

بستان أضحى الفؤاد في وّله يا نزهة السمع منه والبصر

٢- لتعظيم المسند إليه أو تحقيره، كما في الكنى والألقاب الصالحة لذلك.

فمثال التعظيم: أقبل أبو الخير، وزارتنا أم الفضل، وكان الفاروق مثلاً يحتذى به.

ومثال التحقير: جاءت حمالة الخطب، وإبليس يحيل الخير شراً، وأبو جهل حارب الإسلام والمسلمين.

٣- للتفاؤل أو التشاؤم: وذلك في الأعلام التي تحمل إيماءات أو معاني في التفاؤل أو التشاؤم.

فمثال الأول: زارنا سعيد، ودعتنا هناء، وأقبلت أم فرح، ووصل أبو النور، فلا شك في أن مثل هذه الأسماء توحى بالبشر، وتدعو إلى التفاؤل في قلب من يسمعها.

ومثال الثاني: حرب في ضيافتكم، ودموع في طريقها إليكم، والجراح في دياركم. فإن مثل هذه الأسماء تثير في النفس مشاعر التطير والتشاؤم والنفور.

٤- التبرك باسمه: وذلك في الأعلام التي يتبارك المرء بذكرها، فيحلو له ترديدها لما تضيفه على نفس المتكلم من طمأنينة وراحة. من ذلك مثلاً قولك: (الله أعطاني) جواباً لمن سألك: هل أعطاك الله؟ فتأتي بالمسند إليه علماً باسمه المختص به دون العدول إلى الضمير وذلك للتبرك بذكره.

٥- التلذذ بذكره: ويكثر هذا في شعر الغزل والنسيب والمدح، إذ يحلو للشاعر أن يذكر اسم محبوبته ويرده؛ ليطلق ما في جوارحه من وجد وصباية. من ذلك

قول مجنون ليلي:

بالله يا طبيبات القاع قلن لنا: ليلاي منكن أم ليلي من البشر
فمقتضى سياق الحديث أن يقول (أم هي)، لكنه عدل عن هذا، وآثر إعادة
ذكر الاسم ثانية، تلذذاً بترديد اسمها.

٦- إظهار التعجب: نحو قولك: عليّ رفع هذه الصخرة، وسعاد حاكت هذا الثوب،
وعمرو فاز بالجائزة، فجيء بالمسند إليه معرفة بالعلمية لغرض إظهار التعجب.

٧- التسجيل على السامع: ويغلب هذا الغرض كثيراً في الفصل بين
الخصومات، وتدوين الشهادات أمام القضاء، وتثبيت العقود، وفي المواضع التي
يحتاج فيها إلى إقرار وتثبت وتسجيل على السامع، حتى لا يجد إلى الإنكار سبيلاً.
مثال ذلك:

— علي هذا اختلس الأموال.

— زينب غشت في الامتحان.

— عمر سلب سعيداً ماله.

ونحو قول القاضي لشخص: هل أقرّ عمرو بحقك؟ فيقول: عمرو أقر بحقي،
فجاء بالمسند إليه علماً، ولم يقل (هو) لتثبيت الحكم وتسجيله، حتى لا يتأتى له
الإنكار فيما بعد.

٣- تعريفه بالإشارة:

والإشارة قد تكون للقريب، مثل: هذا وهذه. وقد تكون للمتوسط، مثل: ذاك.
وقد تكون للبعيد، مثل: ذلك، وتلك.

ويؤتى بالمسند إليه اسم إشارة لأغراض، منها:

١- تمييز المسند إليه أكمل تمييز، بإحضاره في ذهن السامع حساً، نحو قولك:
هذا والدي، هذا أستاذ البلاغة...

٢- تعظيم المسند إليه بالقرب أو بالبعد، مثال الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء/٩]، فجاء بالمسند إليه اسم إشارة للقريب؛ لغرض التعظيم بتزليل قربه المعنوي، وحضوره في النفس والخواطر مترلة القرب المكاني.

أما تعظيمه بالبعد، فمثاله قولك لحاضر في المجلس: ذلك المهندس الذي خطط لبناء السد.

ومنه قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز تتحدث عن يوسف — عليه السلام — وهو أمامها: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف/ ٣٢] ولم تقل فهذا، وهو حاضر أمامها، رفعا لمترلته، وإظهاراً لتميزه في الحسن، وتمهيداً لاستحلاب العذر في الافتتان به.

٣- تحقير المسند إليه بالقرب أو بالبعد: مثال الأول قولك: أهذا الذي يغتابك؟ أهذه التي تخشاه؟ ومنه في القرآن الكريم قوله تعالى على لسان أبي جهل مشيراً إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء/ ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت/ ٦٤].

ومثال تحقيره بالبعد، قولك لمن يجلس في مجلسك: (ذلك البخيل الذي يكثر أمواله ولا ينفقها)، و(ذلك الواشي الذي أشعل الفتنة بين العائلتين).

ومنه في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران/ ١٧٥].

٤- القصد إلى التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير من أجل تلك الأوصاف بما يذكر بعد اسم الإشارة، من ذلك قولك — مثلاً —: العرب الأوائل نشروا الحضارة الإسلامية شرقاً وغرباً، وبنوا المراكز الثقافية، وخلفوا لنا تراثاً عظيماً، أولئك يستحقون منا كل الإكبار والإجلال.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ [البقرة/ ٢-٥]، جاء بالمسند إليه اسم إشارة مع أن المقام للضمير؛ بقصد التنبيه على أنهم أحقاء بسبب تلك الأوصاف التي اتصفوا بها، مما يجيء بعد اسم الإشارة، من هداية وفلاح.

٥- التهديد والإرهاب للمخالفين: كما في قول رجل في بيعة يزيد: «إذا مات هذا فهذا (وأشار إلى معاوية ويزيد)، ومن أبي، فهذا (وأشار إلى سيفه)». وأخيراً نقول: إن التعريف باسم الإشارة يأخذ معناه من السياق والمقام، فيتلون بلونه، فيكون للتعظيم أو للتحقير مع أنه في حقيقته واحد.

٤- التعريف باسم الموصول:

يعرف المسند إليه باسم الموصول لأغراض كثيرة منها:

١- عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة به سوى الصلة، نحو قولك متحدثاً عن شخص قابلته، لكنك لا تعرف اسمه: (الذي رأيته يوم أمس في بيتك إنسان فاضل)، ونحو قولك: (الذي استعار الكتاب مني أمس غاب اليوم)، فجاء بالمسند إليه معرفاً باسم الموصول، لعدم علم المخاطب شيئاً عن أحواله سوى الصلة، أي إنه الوسيلة الوحيدة للمعرفة.

٢- استهجان التصريح بالاسم الدال على ذات المسند إليه إن كان منفراً في معناه أو لفظه. مثال الأول قول الفقهاء: (الذي يخرج من أحد السبيلين ناقضاً للوضوء)، ويقصد بالسبيلين: القبل والدبر، فطوي اسم المسند إليه صراحة لقبحه، ولحماية المخاطب من سماعه.

ومثال ما كان منفراً في لفظه: بعض الأسماء التي لا يستحسن ذكرها؛ فيلجأ المتكلم عند ذلك إلى التهرب من نطق الاسم الصريح إلى اسم الموصول، من ذلك

— مثلاً — قولك مستعيضاً عن ذكر اسم صديق لك يُدعى برغوث، أو كليب، أو ما شابه ذلك من الأسماء المنفرة، الذي دعاني إلى الحفل صديقي.

٣— زيادة التقرير في الغرض المسوق له الكلام: نحو قولك: يهددنا الذي فتحنا له قلوبنا قبل بيوتنا، وأساء إلينا الذي أكرمنا.

ومنه في القرآن الكريم ما رددته كتب البلاغة من قوله تعالى: ﴿وَرَأَوْنَاهُ الْيَسِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف/٢٣]، فجاء بالمسند إليه اسماً موصولاً عوضاً عن التصريح باسمها (زليخة)؛ لتأكيد الغرض الذي سيق الكلام من أجله، وهو عفة سيدنا يوسف ونزاهته، لأنه كان في بيتها، وأمام عينها، وليس ثمة ما يعيق بينه وبينها. فلو ذكر اسمها الصريح هنا، لما أفاد ما أفاد من هذا المعنى. ومنه شعراً:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصباية إلا من يعانِيها
جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو تأكيد صدقه فيما يدعيه من ألم الصباية والعشق.

٤— التفخيم والتهويل تعظيماً أو تحقيراً. نحو قولك:

— أصاب العرب ما أصابهم من الحروب والويلات.

— جاءه من العطايا ما جاءه.

— غمرني من السرور ما غمرني.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السُّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم/١٦]. جاء بالمسند إليه اسماً موصولاً لغرض التفخيم والتهويل؛ أي شيء عظيم لا يمكن وصفه لشدته أو قوته أو عنفه.

ومن التحقير قولك: إن الذي يتبع الشيطان خاسر، فالصلة تفيد أن الخير من نوع الخسران.

٥- تشويق المخاطب إلى الخير ليتمكن في ذهنه: نحو قولك: (الذي أثار موجة من التصفيق حصل على جائزة الجامعة في الأدب)، أو قولك: (الذي أدهشني قدرة فلان على الخداع). وعليه قول أبي العلاء المعري:

والذي حَارَتِ البرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جِهَادٍ

٦- التنبيه على خطأ وقع فيه المخاطب أو غيره: نحو قولك لصديقك: (إن الذي تحسبه صديقك أساء إليك)، و(إن التي ظنتها مجتهدة غشت في الامتحان). ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَدْ دَعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف/ ١٩٤]، ونظيره شعراً قول عبدة بن الطيب:

إِنَّ الَّذِينَ تَرَوْنَهُمْ إِنْخَوَانُكُمْ يَشْفِي غَلِيلَ صُدُورِهِمْ أَنْ تُصْرَعُوا

فالشاعر يحاول — هنا — أن يزيل ما علق في مخيلة المخاطب (والمخاطبون أولاده) من ثقة هؤلاء الناس، فأتى بالمسند إليه اسماً موصولاً ليحقق ما يريد.

٧- الإيماء إلى تعظيم شأن الخير أو تحقيره: وهو أن يؤتى في مطلع الكلام بأمر يساعد القطن على معرفة نوع الخير، فإذا ما قلت مثلاً:

— إن الذي يرعى حرمة الناس.

— إن التي تهب لمساعدة الآخرين.

— إن الذي يحافظ على الممتلكات العامة.

تشعر بأنك على دراية وعلم بمعرفة أخبار هذه الجمل حتى قبل أن تُلقي على مسامعك، فتعرف أن الذي يرعى حرمة الناس يستحق الإكبار، وأن من تساعد الآخرين لابد أن تنال ثمار عملها.. وهكذا، فإنك تجد نفسك تعرف أخبار المسند إليه دون أن يُذكر على مسامعك.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر/ ٦٠].

وقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمهُ أعز وأطولُ

٨- التهكم بالمسند إليه: نحو قولك:

— الذي يعالج المرضى لا يعرف الطب.

— الذي اختلس الأموال العامة نُصَّبَ مديراً.

— ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْثُونٌ﴾ [الحجر/٦].

٥- تعريفه بـ (أل) ^(١):

ويرد المسند إليه معرفاً بـ (أل) لغرضين:

أولاً: الإشارة بها إلى شيء من أفراد الحقيقة، واحداً كان أم أكثر، معهود خارجاً بين المتكلم والمخاطب. وتسمى (لام العهد الخارجي)، وتأتي على ثلاثة أنواع:

أ — لام العهد الخارجي الصريح: وهي التي يتقدمها اسم نكرة مذكور صراحة، نحو قولك: (كتب رسالة، لكن الرسالة ضاعت)، و(زارنا ضيف، فأكرمت الضيف)، وعليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور/٣٥]، جاء المسند إليه: (المصباح — الزجاج) معرفاً بـ (أل) للإشارة بها إلى معهود خارجاً صريحاً؛ لتقدم ذكرهما صراحة منكبين (مصباح — زجاجة).

ب — لام العهد الخارجي الكنائي: وهي التي لا يتقدم للمعرف بـ (أل) ذكر صريح، وإنما يتقدم ذكرها كناية، أي مبهماً تعينه القرائن، كقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ

^(١) هناك من قال إن التعريف هو اللام وحدها، وأن الألف زيدت قبلها ليتوصل إلى النطق بالساكن. و(أل) هزتها هزة قطع إذا لم تنصل بشيء بعدها، لذلك يجب إظهارها نطقاً وكتابة ألماً في هذه الحالة تكون علماً. النحو الواليع ٤٢١/١

الذِّكْرُ كَالْأُنْثَى» [آل عمران / ٣٦]، فجاء بالمسند إليه معرفاً، للإشارة بها إلى معهود في الخارج عهداً كُنائياً، وهو ما استفيد من معنى (ما) في قولها: ﴿ رَبِّ إِلَهِي لَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ ؛ لأن العتق لخدمة بيت المقدس، هو من اختصاص الذكور دون الإناث.

ح — لام العهد الخارجي العلمي أو الحضوري: وهي ما لا يتقدم لدخولها ذكر مطلقاً، لا صريحاً ولا كُنائياً، ولكنها تطلق إما على حاضر مائل أمام العيان، أو على غائب، لكنه معلوم للمخاطب، مثال النوع الأول، قولك مشيراً إلى حاضر: (أجاد المحاضر في بحثه). ومثال النوع الثاني: قولك: (الأستاذ سيتأخر اليوم)، فجئت بالمسند إليه معرفاً بـ (أل) للإشارة بها إلى معهود في الخارج، وهو معلوم للمخاطب.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح/ ١٨]، وقوله أيضاً: ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ﴾ [التوبة/ ٤٠]، أي: الشجرة والغار المعهودين. ثانياً: الإشارة بـ (أل) إلى الحقيقة نفسها، وذلك عندما يكون مدخولها موضوعاً للحقيقة والماهية. وتأتي على ثلاثة أنواع:

أ — لام الحقيقة أو لام الجنس: وهي ما يشار بها إلى الحقيقة نفسها، دون ما ينطوي تحتها من أفراد، نحو قوله تعالى: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف/ ٤٦]، وقول المعري:

والخُلُ كالماء يُسْدي لي ضمايرُهُ مع الصفاء ويُخفيها مع الكدر

ومنه كذلك قولهم: «الرجال أقوى من النساء».

فجئ بالمسند إليه في هذه الأمثلة معرفاً بـ (أل) للإشارة بها إلى الحقيقة نفسها، دون ما ينطوي تحتها من أفراد، أي جنس المال، وجنس البنين، وجنس الخُل، وجنس الرجال، وهذا لا ينافي أن يكون بعض أفراد حقيقة النساء — مثلاً

— أقوى من بعض أفراد حقيقة الرجال.

ب — لام العهد الذهني: وهي التي يقصد بها فرد مبهم من أفراد الحقيقة، إذا قامت القرينة على ذلك، نحو قولك: «المحتاج في ضمائرنا»، فأنبت لا تقصد محتاجاً معيناً، بل هو فرد مبهم من أفراد حقيقة المحتاجين.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف/ ١٣]، فهو — حتماً — لا يشير إلى ذئب معين في الخارج، وإنما إلى فرد غير معين من أفراد جنس الذئاب. ونظيره أيضاً قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ [الجمعة/ ٥].
ومنه شعراً:

وَمَنْ طَلَّبَ الْعُلُومَ بِغَيْرِ كَدٍّ سَيَذَرُكُهَا مَتَى شَابَ الْغُرَابُ

ح — (أل) الاستغراق: وهي التي يراد بها جميع أفراد الحقيقة، عند قيام قرينة على ذلك، وهي نوعان:

أ — (أل) الاستغراق الحقيقي: وهي التي يقصد بها كل فرد مما يتناوله اللفظ بحسب اللغة، فتكون بمعنى (كل)، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾ [المعارج/ ١٩]، فجاء بالمسند إليه (الإنسان) معرباً — (أل)، لأن القصد إلى جميع الأفراد التي يتناولها لفظ (الإنسان) لغة، والدليل على ذلك هو الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا الْمُسْلِمِينَ﴾ [المعارج/ ٢٢].

ب — (أل) الاستغراق العرفي: وهي التي يقصد بها كل مما يتناوله اللفظ بحسب العرف أو العادة، نحو:

— امثل الطلاب لأوامر المدير.

— ناقش المعلمون بعض القضايا التربوية.

— أضرب العمال عن العمل.

فجاء بالمسند إليه معرّفاً بـ (أل) للاستغراق العرفي، إذ لا يقصد بالطلاب أو المعلمين، أو العمال جميع طلاب أو معلمي أو عمال الدنيا، وإنما مجموعة من الأفراد التي تتناولها هذه الألفاظ في العرف المتفق عليه.

وصفوة القول: إن (أل) التعريفية على قسمين:

أ — (أل) العهد الخارجي: وهي ثلاثة أقسام: (أل) العهد الخارجي للصريح، و(أل) العهد الخارجي الكنائي، و(أل) العهد العلمي بنوعها الحضوري وغير الحضوري.

ب — (أل) الحقيقة: وهي ثلاثة أقسام: (أل) الحقيقة أو الجنس، و(أل) العهد الذهني، و(أل) الاستغراق بنوعيهما: الاستغراق الحقيقي، والاستغراق العرفي.

٦ — تعريف المسند إليه بالإضافة: ^(١)

يؤتى بالمسند إليه معرّفاً بالإضافة لأغراض بلاغية، منها:

١ — إفادة الاختصار والإيجاز:

نحو قولك: (اقترح طلابي تأجيل موعد الامتحان)، فجاء بالمسند إليه (طلابي) معرّفاً بالإضافة لإفادة الاختصار، إذ هو أوجز من قولك: اقترح الطلاب الذين أقوم بتدريسهم تأجيل الامتحان.

ومنه شعراً قول جعفر بن علبة الخارثي:

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوَلِّقٌ ^(٢)

عُرِّفَت كلمة (هواي) بالإضافة لأنها أدعى للإيجاز والاختصار من قوله: «إن الذي أهواه»، وهذا الاختصار جاء معبراً صادقاً عن حال الشاعر التي يضيق فيها السجّن من ناحية، ويشتدّ وله وحزنه على فراق حبيبته من ناحية أخرى.

^(١) نظر البلاغيون إلى المضاف والمضاف إليه على أنهما كلمة واحدة أو جزء لا ينفصل.

^(٢) المصعد: الذي ابعد في السمر. جنيب: المستعج، الذي يتقدم قومه فيتبعونه.

٢- إغناء الإضافة عن تفصيل متعذر:

نحو قولك: (أهل الشام يسلمون عليك)، فجاء بالمسند إليه معرفةً بالإضافة لتعذر تعداد أهل الشام، أو تسميتهم فرداً فرداً، وعليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر/٦٧]، وقول مروان بن أبي حفصة:

بنو مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ
أَسْوَدُهَا فِي غَيْلٍ خَفَّانَ أَشْبُلُ

٣- إغناء الإضافة عن تفصيل حال دونها مانع مع تيسره:

نحو قولك: (قادة البلاد في الاجتماع اليوم)، أو (أساتذة الكلية قرروا كذا)، و(علماء اللغة ناقشوا بعض القضايا)، فجاء بالمسند إليه معرفةً بالإضافة تحاشياً من تقديم بعض الأسماء على غيرها، أو منعاً من حدوث حرج في تقديم اسم دون غيره دون مقتضى لذلك.

وقد يكون التعريف بالإضافة يغني عن تفصيل تركه أرحح لجهة، مثل قول الحارث بن ولة الجرمي:

قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا، أَمِيْمٌ، أَخِي
فَإِذَا رَمَيْتُ يُصِيْبُنِي سَهْمِي

فقد آثر الشاعر أن يأتي بالمسند إليه معرفةً بالإضافة في كلمة (قومي)، تحاشياً منه من ذكر الأسماء التي شاركت بقتل أخيه، إذ لو فعل، لكان في ذلك إهمال واضح لبعض الأشخاص، مما قد يثير نوازع الحقد والفتنة.

٤- تضمن الإضافة تعظيماً لشأن المضاف، أو المضاف إليه، أو غيرهما:

مثال تعظيم شأن المضاف: (خادم الوزير يُعد الطعام)، ومنه قوله تعلل: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر/٤٢]، وقوله: (خادم الحرمين الشريفين)، فجاء بالمسند إليه معرفةً بالإضافة تعظيماً لشأن المضاف، أي الخادم في المثال الأول والثالث، والعباد في المثال الثاني.

ومثال تعظيم شأن المضاف إليه قولك: (سائقي وصل)، و(مكتبي صار جاهزاً)،

و(مؤلفاتي كثيرة)، فالمقصود هنا تعظيم شأن المتكلم، وهو هنا المضاف إليه، بأن له سائفاً أو مكتباً... أو غير ذلك.

ومثال تعظيم غير المضاف والمضاف إليه، قولك: (صديق المدير في زيارتنا)، إذ تنضوي على تعظيم لشأن المتكلم بأن صديق المدير في زيارته، والمتكلم هنا ليس المضاف ولا المضاف إليه، وإن كان فيها تعظيم للمضاف، لكنه غير مراد هنا.

٥- تضمن الإضافة تحقيراً لشأن المضاف أو المضاف إليه أو غيرهما:

فمثال الأول قولك: (ابن المرتشي قادم)، تحقيراً لهذا الابن بأن أباه مرتشي. ومثال الثاني قولك: (ضارب زيد آت)، تحقيراً لزيد بأنه مضروب.

ومثال النوع الثالث قولك: (ولد المختلس يصاحب زيدا)، ففي الإضافة هنا تحقير لشأن زيد بأنه من أصحاب ابن المختلس، وهو هنا ليس مضافاً ولا مضافاً إليه، وإن كان في العبارة تحقير لشأن المضاف، لكنه غير مراد.

وثمة أغراض أخرى غير ما ذكر، مثل: تضمن الإضافة اعتباراً لطيفاً، والاستهزاء والسخرية، والتشريف، وغير ذلك من دواعي الإضافة التي لا تخفى على صاحب الذوق السليم.

— تعريف المسند:

الأصل في المبتدأ أو المسند إليه أن يكون معرفة، لأنك تخبر عنه؛ أما الخبر أو المسند فالأصل فيه أن يكون نكرة؛ لأنه مجهول للمخاطب، لكن هذا المسند قد يأتي معرفة لأغراض بلاغية مقصودة، منها:

١— إفادة التعيين أو التخصيص، ويعبر عنه البلاغيون بقولهم: إفادة السامع حكماً بأمر معلوم عنده، بإحدى طرق التعريف على أمر معلوم له كذلك.

مثال ذلك قولك: (زيد الفارس)، تقصد اتصاف زيد بالفروسية دون غيره ممن تعرف، فتأتي بالمسند إليه أولاً لأنه المعلوم للسامع، ثم تأتي بالمسند إليه ثانياً لأنه المجهول للمخاطب، فتجعله خبراً أو مسنداً.

ويعني آخر، أننا نقدم الأمر الثابت، أو الوصف الذي يعرفه المخاطب أولاً ونجعل المسند إليه، ثم تأتي بالأمر المتغير ونجعله خبراً أو مسنداً. أما إذا كان المخاطب يعرف أن أحد الأشخاص يتصف بالفروسية، ولكنه لا يدري من هو، فمن مقتضى الحال أن نقول: (الفارس زيد).

٢— المبالغة في القصر، إذا كان التعريف بـ (أل) الجنسية: وذلك في حال كان الخبر خاصاً بالمبتدأ لا يتجاوزه إلى غيره سواء أكان حقيقة أم إدعاءً. فمثال الأول قولك: (أحمد الرئيس)، إذا كان هذا الوصف لا يصدق على سواه، ومثله: محمد الخاتم للأنبياء، فهذا الوصف لا يصدق على أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وادعاء نحو قولك: (الجاحظ الأديب)، فجيء بالمسند معرفاً بـ (أل) لقصد قصر الأدب على الجاحظ قصراً ادعائياً للمبالغة في اتصافه بالأدب، وكان لا أديب سواه.

٣— أن يُقصر عليه على سبيل الحقيقة لا بالنظر إلى ذاته؛ بل بالنظر إلى القيد

بظرف أو حال، نحو قولك: (هو الحكيم عندما يستشار)، فالمقصود هو الحكيم في حالة معينة لا غير، وهي كونه عندما يستشار، وليس في كل الأحوال، ومنه أيضاً القول: (هو الفارس عندما يتقهرق الفرسان)، (وهي المدبرة عندما تتراجع الإيرادات)، وعلى هذا قول الأعشى:

هُوَ الْوَهِبُ الْمَائَةِ الْمُصْطَفَا ةَ إِمَّا مَخَاضاً وَإِمَّا عِشَاراً^(١)

فقصر هبة المئة من الإبل على إحدى الحالتين، إما مخاضاً وإما عشاراً، لا هبتها مطلقاً.

٤- تقريره للمسند إليه وبيان أن ثبوته له أمر مقرر لا يشك فيه، نحو قول حسان بن ثابت:

وإن سَنَامَ الْمُجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ بَنُو بَنَاتٍ مَخْرُومٍ وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ
فجاء بالمسند معرفاً بـ (أل) في قوله (العبد)، لغرض تقرير صفة العبودية على والده، بمعنى أنه بلغ فيها مرتبة لا تخفى على أحد.

^(١) المعاض: الحوامل من النوق، العشار: ج عشاء، وهي من النوق كالنساء من النساء، أو التي مضى على حملها عشرة أشهر.

التنكير

قلنا: إن النكرة هي ما شاع في جنسه دون أن يدل على معين، فإذا قلت: (زارنا رجل)، و(هذه امرأة)، فإيهما لا يدلان على رجل بعينه، ولا على امرأة بعينها، بل يصلحان لكل رجل وامرأة.

واعلم أن اللفظ النكرة هو الذي يقبل (ال) التعريف، مثل: (كتاب، علم)، فيمكن أن تصبح: (الكتاب، العلم).

وقد يرد المسند إليه نكرة لتحقيق أغراض بلاغية، منها:

١- الأفراد: أي الدلالة على فرد غير معين من أفراد جنسه؛ لأن المتكلم لا يعلم عنه أي شكل من أشكال التعريف من علمية أو صلة أو غيرها إلا ما يفيد لفظ النكرة، نحو قولك: (سأل طالب عنك)، وعليه قوله تعالى: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ [القصص / ٢٠]، أي: فرد واحد من أشخاص الرجال لا أكثر، فقصد إلى إيراد المسند إليه نكرة؛ لأن الغرض هنا ليس تعيين اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة، فهو زائد عن الحاجة، وإنما الهدف هو توجيه الأنظار إلى مضمون القصة المتعلقة بالموعظة والذكرى.

٢- التعظيم والتحقيق: نحو قولك في الغرض الأول: (لزيد آراء صائبة، وله دراسات عميقة)، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾ [البقرة / ١٧٩]، أي حياة عظيمة. وقوله: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [التوبة / ١٢٨].

ومنه شعراً قول أبي العتاهية راثياً:

وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا
فجاء المسند إليه في الأمثلة (آراء — دراسات — رسول — عِظَات) نكرة
للتعظيم.

ومن التحقير قولك — مثلاً —: (وصلني من عطاياه شيء)، تريد: شيئاً حقيراً.
ومنه في غير المسند والمسند إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى
شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة/ ٦٨].

وقد اجتمع التعظيم والتحقير في قول الشاعر:

وَلِلَّهِ مِنِّي جَانِبٌ لَا أَضِيعُهُ وَلِلَّهِ مِنِّي وَالْخَلَاعَةِ جَانِبٌ
فالتنكير في كلمة (جانب) الأولى يفيد التعظيم؛ أي لله مني جانب عظيم لا
أفطر فيه، وفي الثانية يفيد التحقير، أي: لله مني والخلاعة جانب هين حقير، وقد
دل على ذلك أن المقام مقام فخر ومدح، وفي هذا يترجح جانب الخير على الشر.

٣- التقليل والتكثير: فمثال النوع الأول قولك: (أرباحي من هذا المشروع
شيء لا يذكر)، وقولك أيضاً: (لو كان لنا من هذه الامتيازات شيء) وعليه قوله
تعالى: ﴿وَلَكِنَّ مَسْتَئْتِهِمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الأنبياء/ ٤٦]، أي نفحة
بسيطة، وتحتمل التحقير.

ونظيره شعراً قول المتنبي:

وَلَيْسَ يَصْرَحُ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ إِذَا احتاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

فجاء بالمسند إليه نكرة لإفادة التقليل، وتحتمل كذلك التحقير.

ومن التنكير قولك: (إن له لمزارع وأطياناً)، وعليه قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ

فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴿ [آل عمران / ١٨٤] ، أي: رسل كثيرون^(١).

وتحتمل — كذلك — التعظيم، أي: رسل كثيرون معظمون.

ومنه قول الشاعر:

وفي السماء نجوم لا عداد لها وليس يكسف إلا الشمس والقمر

فجاء بالمسند إليه نكرة، لإفادة التكثير، أي: نجوم كثيرة.

٤ — قصد النوعية: أي أن يكون القصد نوعاً خاصاً من أنواع الجنس، مثل قوله تعالى: ﴿ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة / ٧]، أي نوع من الغشاوات أو الأغشية، وهو غطاء التعامي عن آيات الله.

ومنه قول الشاعر:

لكلِّ داءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إلا الحماقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يَدَاوِيهَا
أي: ثمة دواء خاص لكل داء.

٥ — قصد إخفائه عن المخاطب، نحو: (نقل إلى طالب أنك غششت في الامتحان)، و(حدثني رجل أنك اغتبتني)؛ فجاء بالمسند إليه نكرة لغرض إخفاء الاسم عن المخاطب؛ خشية أن يلحقه أذى من المخاطب، أو يوضع في موقف حرج.

تكثير المسند:

وينكر المسند لأغراض منها:

١ — عدم إرادة تعيينه أو حصره، نحو: (زيد طبيب)، فجاء بالمسند نكرة لإفادة الإخبار بصفة زيد، لا حصر الطب فيه.

^(١) الفرق بين التعظيم والتكثير أن الأول ينظر فيه إلى النوعية والكيفية، وعلو المرتبة، وبعد المنزلة، أما الثاني: فالملاحظ فيه الكميات، والمقادير، والعدد، لكن هذا لا يمنع أن الانتقال بينهما سهل، شأنهما شأن سهولة الانتقال — كذلك — من التقليل إلى التحقير.

٢— إفادة التفخيم والتعظيم، نحو: (إِنْ أَحْمَدَ طَيْبٍ)، فأراد بالتكثير هنا أنه متصف بصفة تحمل في معناها التفخيم والرفعة.

٣— إفادة التقليل: كأن تقول: (نصبي من عطاياه شيء)، أي شيء قليل لا يذكر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر/ ٣٩]، فنكر (متاع) للتحقير، أي: متاع حقير صغير، وتحتل أيضاً معنى التقليل.

٤— إفادة التكثير: نحو قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ لَلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة/ ٢]، أي هدى كثير.

٥— إتياع المسند إليه في التكثير: نحو (رجل قادم إلينا)، فكلمة (قادم) — وهي الخير — جاءت نكرة؛ لأن المبتدأ (رجل) نكرة.

تكثير غير المسند إليه والمسند:

وينكر غير المسند إليه والمسند للأغراض نفسها التي ذكرت في تكثير المسند إليه والمسند، من ذلك:

١— بيان النوعية، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل/ ٥٨]، أي أمطرنانوعاً خاصاً من المطر، يعني هنا الحجارة وما شابهها.

٢— التعظيم والتهويل، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة/ ٢٧٩]، يريد: بحرب عظيمة أو رهبة.

٣— التحقير: كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ تُظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا لَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية/ ٣٢].

٤— التقليل: نحو قول المتنبي:

فَيَوْمًا بِخَيْلٍ تَطْرُدُ الرُّومَ عَنْهُمْ وَيَوْمًا بِجُودٍ تَطْرُدُ الْفَقْرَ وَالْجَدْبَا

يريد: بخيل قليلة العدد، وبجود يسير من فيض جودك.

ومما يجدر التنبيه إليه هنا أن التنكير والتعريف في نفسيهما لا يدلان على أي أغراض أو لطائف بلاغية، وإنما تدرك هذه اللطائف والأغراض من السياق ومعمونة القرائن؛ فالسياق هو الذي يدل على المقصود من هذا التنكير، أو ذاك التعريف، وهو الذي يرجح غرضاً دون آخر.



تدريبات محلولة على أسلوب التعريف

— بين الدواعي التي اقتضت تعريف المسند إليه أو المسند بإحدى طرق التعريف:

١— أنا الذي يجدوني في صدورهم لا أرقي صدراً منها ولا أريدُ

عرّف المسند إليه بالإضمار (أنا)؛ لأن المقام مقام تكلم، وبقصد إظهار المدح.

٢— قال تعالى: ﴿فَقَشَاهَا مَا غَشَّى﴾ [النجم/ ٥٤].

عرّف المسند إليه بالاسم الموصول بقصد التفخيم والتهويل.

٣— أحمد يلاحق الأفاعي في أوكارها.

عرّف المسند إليه بالعلمية؛ لغرض إظهار التعجب من أمر أحمد.

٤— تراه إذا ما جئته مُهَلَّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَتَتْ سَائِلُهُ

انتقل ضمير المخاطب من معين مقصود إلى غير معين؛ لإرادة تعميمه على كل من يتأتى خطابه.

٥— جاء الذي تقدم لخطبة ابتك بالأمس.

عرّف المسند إليه بالاسم الموصول، لعدم علم المتكلم بالأحوال المختصة به سوى الصلة.

٦— قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَقِي خُسْرٍ﴾ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ [العصر/ ٣].

عرّف المسند إليه بـ (أل) في كلمة (الإنسان) للدلالة على الاستغراق الحقيقي، أي جميع الأفراد التي يتناولها لفظ (الإنسان)، بدليل الاستثناء الوارد بعدها، وهو

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

٧- إذا جاء موسى وألقى العصا فَقَدْ بَطَلَ السَّحْرُ وَالسَّاحِرُ

عرّف المسند إليه بالعلمية (موسى) بقصد إظهار التعجب من موسى عند رميه العصا، وعرف (السحر) و(الساحر) بـ (أل) للعهد العلمي.

٨- أَنْتَ الْحَيِّبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مُجِيباً غَيْرَ مَحْبُوبٍ

عرّف المسند بـ (أل) في كلمة (الحبيب) بقصد المبالغة في القصر، وكان لا حبيب لديه سواه.

٩- قال أبو نواس:

مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ عَقْلِ شَارِهَا وَفِي الرُّجَاةِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي

عرف المسند إليه بالاسم الموصول بقصد التفخيم والتهويل.

١٠- عمرو هذا غش في الامتحان.

عرف المسند إليه بالعلمية بقصد التسجيل على السامع، وحتى لا يتأتى له الإنكار.

١١- سلام صديقتك فبحت.

عرف المسند إليه بالعلمية بقصد التفاؤل بلفظ سلام.

١٢- (الذي يخرج من الفم لا ينقض الوضوء إلا بشروط).

عرّف المسند إليه بالاسم الموصول لاستهجان التصريح بذكر ما يخرج من الفم، والنفور منه.

١٣- إن عباد الله يحبون الخير للجميع.

عرّف المسند بالإضافة لقصد تعظيم المضاف؛ إذ عَظُم شأنهم بإضافتهم إلى الله سبحانه وتعالى.

١٤ — طلبة الكلية يقيمون احتفالاً.

عرف المسند إليه بالإضافة، لإغناء الإضافة عن تفصيل متعذر.

١٥ — عليّ الخطيب عندما يغيب الخطباء.

عرف المسند بـ (أل) لإفادة قصر المعرف على ما حكم عليه، وفقاً للقيّد الذي قيّد به؛ أي: حين يغيب الخطباء.

١٦ — قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء / ٩].

عرف المسند إليه باسم الإشارة (هذا) لغرض تعظيمه بالقرب.

١٧ — إن الذين يخالفون الأنظمة والقوانين سينالون جزاءهم.

عرف المسند إليه بالاسم الموصول (الذين) للإيماء إلى نوع الخبر، والإشارة إلى أنه نوع من العقاب.

١٨ — تلك هي مبادئ، فما هي مبادئك؟

عرف المسند إليه باسم الإشارة (تلك) بقصد تعظيمه بالبعد.

تدريبات محلولة على أسلوب التنكير

— بين دواعي تنكير المسند إليه أو المسند أو غيرهما فيما يأتي:

١— قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

نكر المسند إليه (قليل) لإفادة التعظيم، أي قليل عظيم منك، لأن قليل صغير منك يكفيني فكيف لو كان كثيراً وهذا مبالغة في المدح، والله أعلم.

٢— قال ابن أبي المسط:

لَهُ حَاجِبٌ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ يُشْمِنُهُ وَلَيْسَ لَهُ عَنْ طَالِبِ الْعُرْفِ حَاجِبٌ

كلمة (حاجب) الأولى تفيد التعظيم، والثانية تفيد التحقير.

٣— آراؤه وعطاياه ونعمته وعفوه رَحْمَةً لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ

نكر المسند (رحمة) لإفادة التفخيم والتعظيم، أي رحمة عظيمة.

٤— حِكْمٌ وَعِرْ ضَمَّنَهَا قَصِيدَتَهُ.

نكر المسند إليه (حكم) لإفادة التفخيم والتعظيم.

٥— قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥].

نكرت كلمة (شيء) للدلالة على التقليل، أي لا يحيطون بشيء قليل يسير من علمه.

٦— قال السموءل:

لَنَا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مِنْ نُحَيْرِهِ مَنِيْعٌ يَرُدُّ الطَّرْفَ وَهُوَ كَلِيلٌ

نكر المسند إليه (جبل) لإفادة التعظيم، أي جبل عظيم.

٧- قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾ [النور/ ٤٥].

تنكير كلمة (دابة) يحتمل الإفراد والنوعية، أي خلق كل فرد من أفراد الدواب، أو كل نوع، وتنكير (ماء) يفيد النوعية، أي نوع خاص من المياه.

٨- إنه قاض.

نكر المسند في كلمة (قاض) لإفادة التفخيم والتعظيم، أي إنه متصف بصفة تحمل في معناها الرفع والرفعة والتفخيم.



تدريبات يطلب حلها

أولاً: بين نوع التعريف والأغراض البلاغية التي اقتضت تعريف المسند إليه أو المسند فيما يأتي:

- ١- قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم/١٠].
- ٢- إِنَّ الَّذِي الْوَحَّشَةُ فِي دَارِهِ تُوَسِّسُهُ الرَّحْمَةُ فِي لَحْدِهِ
- ٣- هذا سوق الحميدية، وذاك جبل قاسيون.
- ٤- أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غُضَارَةٌ أَيْكَةٌ
- ٥- حَيْثُكَ عَزَّةٌ بَعْدَ الْمَحَرِّ وَالصَّرَفَتِ
- ٦- طَافَ الْخِيَالُ بِأَصْحَابِي فَقَلْتُ لَهُمْ
- ٧- أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَاءَ،
- ٨- يَنَاشِدُنِي النَّصْرَ الْفَرَزْدَقُ بَعْلَمًا

ثانياً: بين الدواعي التي اقتضت تنكير المسند إليه أو المسند في الأمثلة الآتية:

- ١- وَلِلْفَرَزْدَقِ شَيْءٌ مِّنْ تَلَفْتِهِ وَنُورُهَا مِنْ ضِيَا خَلْدِهِ مَكْسَبٌ
- ٢- قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُتُبُ الْأُولَىٰ وَأَخْلَسْتَ مِنْهَا الْآخِرَىٰ ﴾ [هود/١].
- ٣- لِي فِيكَ يَا لَيْلُ أَهَاتُ أَرَدَّهَا أَوَاهُ لَوْ أَجُودَتِ الْخَزُونُ أَوَاهُ
- ٤- قال شخص: إنك أهملت واجباتك.

التقديم والتأخير

يقول صاحب نظرية النظم عبد القاهر الجرجاني: إن هذا الباب «باب كنسير الفوائد جمّ المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية لا يزال يفتر لك عن بدیعة ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعراً يروك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء، وحول اللفظ من مكان إلى مكان»^(١).

جعل العرب لكل كلمة موضعاً، فالفعل في الجملة قبل الفاعل، والفاعل قبل المفعول، ويأتي المبتدأ قبل الخبر، اقرأ قول علي بن الجهم:

وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأفضل أخلاق الرجال التفضّل
ولا عار أن زالت عن الحر نعمة ولكنّ عاراً أن يزول التحمّل
وما المال إلا حسرة إن تركته وعنم إذا قدّمته متعجّل

تجد في البيت الأول أن المبتدأ في مكانه والخبر في مكانه، وتجد في البيت الثاني أن اسم لكنّ وخبرها في موضعهما، وكذا المبتدأ والخبر في البيت الثالث.

فهذا هو الأصل، إلا أنهم قد يقدمون لفظاً ويؤخرون آخر إذا كان في نيتهم ما يسوّغ ذلك، فالتقديم ليس عبثاً في الكلام بل ينبغي أن يكون وراءه داع بلاغي، فقولك (زيداً أكرمت) غير قولك (أكرمت زيداً)، وقولك (العلم مفيد) غير قولك (المفيد العلم) وهكذا.

^(١) دلائل الإعجاز (بتحقيق عمود شاكر) ١٠٦.

يمثل الجرجاني لذلك فيقول: وإذا قلت: (أأنت فعلت؟) فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه، وإذا قلت: (أفعلت؟) فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده.

وذهب يحيى بن حمزة العلوي مذهباً بديعاً في حديثه عن التقديم، فذكر أن تقدّم بعض الألفاظ على غيرها قد يكون تقدّماً بالزمان كما في قوله تعالى: ﴿وَعَادَا وَقُمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ﴾ [العنكبوت/ ٣٨]، فعاد قبل قومود، أو تقدّماً بالذات كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت/ ٤٢]؛ لأن العزيز هو الغالب ولأنه تعالى لما عزّ في ذاته بالغلبة حكم على كل شيء، أو تقدّماً بالشرف، كما في قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة/ ٦] فالوجه أشرف من اليد^(١).

وقد رصد البلاغيون مواطن التقديم في العبارة العربية فرأوا وراءها مسوغات ودواعي بلاغية مختلفة.

تقديم المسند إليه:

يتقدم المسند إليه؛ لأنه الأهم والأصل، ألم أذكر لك قبل أنه محكوم عليه، فالأصل في المحكوم عليه أن يتقدم، إلا إذا كان ثمة سبب للعدول عن تقديمه كالفاعل مثلاً لأن مرتبة العامل في العربية التقديم على المفعول كما في قولك (يسعى خالد للخير) فالعامل الفعل (يسعى) وقد عمل في الفاعل (خالد) فوجب أن يتقدم الفعل، ولو تقدم الفاعل لغدا مبتدأ.

فمن الحالات التي يتقدم فيها المسند إليه (المبتدأ):

١- تمكين خيره في ذهن السامع أو المخاطب؛ لأن في المبتدأ تشويقاً إليه كما في قول أبي العلاء المعري:

(١) انظر الطراز ٥٨/٢.

والذي حارت البرية فيه حيوانٌ مستحدث من جماد

فلفظ (الذي) وهو المسند إليه تقدم فتلهف السامع لمعرفة الخير، فالإنسان الذي حارت البرية في أمره، لِمَ خُلِقَ وماذا أريد به؟ وما أشبه ذلك حيوانٌ مستحدث من عناصر جامدة لا حياة فيها ولا حراك، وقوله (والذي حارت) جالب لتوجيه السامع إلى ما يترتب عليه من حكم وتفصيل، وهذا الجلب إنما حصل من ذكر المسند إليه مُقَدِّمًا.

وقل مثل ذلك في قول الشاعر:

أحقُّ الناس في الدنيا بغيبٍ مسيءٍ لا يبالي أن يعابا

٢- ومنها أن يكون المراد تعجيل المسرة كأن تخبر صاحبك عن نتيجته في الامتحان فتقول له: (النجاح حليفك) مقدّمًا المسند إليه (النجاح) لتوقع في أذنه مباشرة هذا الخير المفرح.

٣- ومنها أنه يتقدم ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي مثل قولك: (ما أنا قلت هذا) أي لم أقله مع أنه مقول، فأفاد نفي الفعل عنك وثبوته لغيرك، لذلك يمتنع أن يقال: (ما أنا قلت هذا ولا غيري) لأن فيه تناقضاً، فالقول قد قيل كما عرفت، ولا بد له من فاعل، فمن قاله إذن؟

يقول المتنبي:

وما أنا أسقمتُ جسمي به ولا أنا أضمرتُ في القلب نارا

والمعنى أن هذا السقم الموجود والضرم الثابت ما أنا جالب لهما، والقصد هنا نفي كونه فاعلاً لهما وليس نفيهما، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام: (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم).

وهذا مختلف عن قول النابغة الذبياني:

ما قلتُ من سيئٍ مما أتيت به إذاً فلا رفعتُ سوطي إلي يدي

لأن المراد هنا نفى القول وليس نفى كونه فاعلاً.

قال السكاكي: وما يفيد التخصيص ما يحكيه الله عز وجل عن قوم شعيب وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ﴾ [هود/ ٩١]، أي العزيز علينا يا شعيب رهطك لا أنت لكونهم من أهل ديننا، ولذلك قال عليه السلام في جوابهم: (أرهطي أعز عليكم من الله). وقد أفاد هنا من الرخصي الذي أشار إلى أن مجيء الضمير بعد حرف النفي (وما أنت) دل على أن الكلام في الفاعل لا في الفعل كأنه قيل: (وما أنت علينا بعيز بل رهطك هم الأعرزة).

تلك الحالة من حالات التقديم — وقد اتصل المسند إليه بالنفي وأخبر عنه بالفعل — أفادت التخصيص كما أسلفت، فإذا كان المسند إليه غير مسبوق بنفي فقد يدل على التخصيص كما في قولك: (أنا قلت هذا) وقولهم في المثل: (أتعلمني بضرب أنا حرشته) أي اختصت بحرشه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل/ ٧٠]، أي أنه جل جلاله اختص بخلقكم.

وقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة/ ١٠١]، فهؤلاء مروءا على النفاق ودرجوا به فلا يعلمهم إلا نحن ولا يطلع على أسرارهم غيرنا لإبطائهم الكفر في قلوبهم.

أو يدل على التأكيد (١) وتقوية الحكم ومن ثم تقريره في ذهن السامع كقولك: (هو يعطي الجزيل)، مؤكداً أن عطاء الجزيل من دأبه وعادته ومقرراً ذلك في ذهن السامع، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة/ ١٥]، قال طرفة ابن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا تسمى الأدب فينا ينتقر^(٢)

(١) عطف على (يدل على التخصيص) قبل أسطر.

(٢) المشتاة: وقت الشتاء. الجفلى: الدعوة العامة، الأدب: الداعي إلى المأدبة، ينتقر: يدعو التقرى وهي الدعوة الخاصة.

يؤكد كرم قبيلته ويقرره في ذهن السامع.

٤- ومن حالات تقلب المسند إليه - وهو مبتدأ - بناء الفعل عليه كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ وُثِّقَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف/ ١٩٦] فلا يستقيم المعنى هنا إلا بتقديم المسند إليه (هو) ليبين عليه الفعل إذ لو جيء بالفعل (يتولى) غير مبني على الاسم (الضمير) لبنا اللفظ عن المعنى ولزال المعنى عن الحال التي ينبغي أن يكون عليها.

٥- ومنها أن يدل المسند إليه على العموم كما في قولك: (كل طالب لم يحضر) فنفي الحضور عن كل أحد من الطلاب، قال أبو العتاهية:

ما كل رأي الفتي يدعو إلى رشد فإن بدا لك رأي مشكل فقف

٦- ويرى البلاغيون أن المسند إليه يجب تقديمه إذا كان لفظ (مثل) أو (غير) كناية عن شيء كأن تقول: (مثلك لا يخل)، ولا أحد يتصف بصفاتك إلا أنت، قال المتنبي:

مثلك يثني المزن عن صوبه ويستردّ الدمع عن غربه^(١)

أو تقول: (غيري يجهل قيمة العلم) على معنى أنني لا أجهله، قال أبو تمام:
وغيري يأكلُ المعسروف سحتاً ويشحبُ عنده يفضُّ الأيادي
تقديم المسند:

الأصل في المسند إذا كان خيراً (اسماً) أن يتأخر، لكنه قد يتقدم لدواع بلاغية منها:

١- أن يريد المتكلم قصر المسند إليه على المسند وهذا ما يسمى إفادة التخصيص كأن تقول: (عربي أنا) فقد قصرت نفسك على الانتساب إلى العرب

(١) يثني: يصرف، صوبه: انصبابه، غرب الدمع: مجراه من العين.

دون أن تتجاوزهم إلى قوم آخرين.

تدبر قوله تعالى في وصف خمر الجنة ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصفات/ ٤٧]، تجد أن المسند (الخبر) وهو (فيها) تقدم على المسند إليه (غول) فأفاد هذا التقديم الاختصاص والمعنى نفي الغول (وهو ما يغتال عقل الإنسان ويفسده) عن خمر الجنة دون أن يتعداها إلى خمر الدنيا لأن خمر الدنيا مسكرة فيها ما يغتال العقل ويفسد التفكير فقصر نفي الغول على خمر الجنة وحدها.

ومنها قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [الروم/ ٤٤]، فقد دل بتقديم المسند (عليه) على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر، قال ابن دراج القسطلي بمدح خيران العامري:

لك الخير قد أوفى بعهذك خيرانُ وبشراك قد آواك عزَّ وسلطانُ

فقدم الخبر (لك) لإفادة معنى التخصيص.

٢— إفادة أن المسند خبر لا نعت: وأنت تحفظ أن الخبر هو الجزء المتم الفائدة في الجملة، فقولك: (الشمس ساطعة) جملة تامة المعنى لبنائها على المبتدأ والخبر، أما قولك (الشمس الساطعة) فكلام يحتاج إلى غيره ليتم معناه؛ لأن الصفة فيه (الساطعة) لم تؤد المعنى كاملاً، بيان ذلك في قول حسن بن ثابت^(١) بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام:

له همم لا منتهى لكبارها وهمة الصغرى أجل من الدهر

فقدم (له) وهو الخبر (المسند)، ولو قال: (همم له) لتوهم السامع أنه صفة لا خبر، وإنما أراد الشاعر خبراً.

ومن هنا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة/ ٣٦]، أي لكم يا آدم وحواء في الأرض موضع استقرار وتمتع بالعيش إلى يوم القيامة، فلو

(١) وينسب لغيره.

قال: (مستقر لكم) لاحتمل أن يكون (لكم) صفة لا خبراً والمراد خبريته.

٣- ويتقدم لغرض التشويق إلى ذكر المسند إليه كما في قول محمد بن وهيب مادحاً المعتصم:

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو اسحاق والقمر
فقدم المسند (ثلاثة) تشويقاً لمعرفة المسند إليه (شمس الضحى).
وقول الآخر:

ثلاثة ليس لها إياب الوقت والجمال والشباب
٤- ويتقدم المسند إذا كان الاهتمام به ذاته كما في قوله تعالى: ﴿أَفِي الشَّكِّ﴾ [إبراهيم/ ١٠]، قال الرخشي أدخلت همزة الإنكار على الظرف (أي على الجار والمجرور وهما المسند) لأن الكلام ليس في الشك وإنما هو في المشكوك فيه وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه^(١).

٥- وقد يتقدم لضرب من التعجب كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَتَتْ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم/ ٤٦]، فهذا تعجب وإنكار لرغبة إبراهيم عليه السلام عن آلهة أبيه لأن هذه الآلهة في زعمهم لا ينبغي أن يرغب عنها أحد، فقدم المسند (راغب) على المسند إليه (أنت).

وربما تقدم الخبر مراعاةً لمشكلة رؤوس الآي والفواصل القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة/ ١٢]، فقدم (إلى ربك) وهو الخبر (المسند) ليناسب الآيات: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة/ ٧ - ١٢] فالتقدم هنا ليس من جهة

^(١) انظر الكشف ٢/ ٢٩٥.

الاختصاص فحسب بل للمطابقة اللفظية في تناسب الآي وتشاكلها.

قال يحيى بن حمزة العلوي: ومن دقيق التقديم — تقدم المسند — وغيره قوله صلى الله عليه وسلم، وقد سئل عن التوضؤ بماء البحر فقال مجيباً السائل: (هو الطهور ماؤه والحل ميتته)، وإنما قدم الخبر على المبتدأ في الأمرين جميعاً لغرضين: أما أولاً فلأن يدفع بذلك إنكار من يذكر الحكمين جميعاً: جواز التوضؤ وحل ميتته، لأنه ربما يستح في النفوس من أجل كونه زعاقاً مختصاً بالملوحة البالغة فلا يجوز التوضؤ به، وإن كان ميتاً فلا يحل أكله لعدم الذكاة (الذبح) فيه، فقدم الخبر من أجل دفع ذلك وإزالته، وأما ثانياً فلأجل التنبيه على الاختصاص بكونه أخص الأمواه بجواز التوضؤ به لصفاته ورقته وأن ميتته حلال لا يشوها في طيب المكسب وحل تناول شائب، ولو قال في الجواب: هو الذي ماؤه طاهر وميتته حلال نزل عن تلك الرتبة وفاتت عنه المزية^(١).

تقديم متعلقات الفعل:

يعرض لبعض متعلقات الفعل تقدّم على الفعل أو على غيره من ألفاظ العبارة، إما لأن ذلك أصل فيه كتقدم الفاعل على المفعول وتقدم المفعول الأول على المفعول الثاني فيما ينصب مفعولين، وإما لأهميته كأن يكون في القوم رجل مجرم ظالم يعيش فساداً بين الناس يقتل وينهب ثم قُتل، وأردت أنت أن تخبر الناس بقتله — وهم الذين عانوا منه ما عانوا — فإنك تقول: (قتل المجرم فلان) فتقدم المفعول على الفاعل لأن الناس مهتمون بقتله هو، ولا يهمهم معرفة القاتل.

أما إذا كان القوم لا يتوقعون من (سعيد) الرجل الضعيف أن يقتل أحداً، ثم قُتل، وأردت أن تخبر الناس الذين لا يخطر في بالهم أبداً أن يكون قاتلاً فإنك تقول: (قتل سعيد فلاناً) فتقدم الفاعل هنا حتماً لأنه موضع اهتمام إذ ليس من شأنه أن يقتل.

(١) انظر الطراز ٦٩/٢ — ٧٠.

انظر تفصيل هذا في بيان القرآن الكريم إذ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ لَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام/ ١٥١]، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ لَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الإسراء/ ٣١]. تَقْتُلُوا

تذكر أنه قدم المخاطبين في الأولى (نرزقكم) على (إياهم)؛ لأن الخطاب فيها للفقراء بدليل قوله (من إملاق) فكان رزقهم عندهم أهم من رزق أولادهم لما هم فيه من فقر شديد.

أما في الثانية فالمخاطبون ليسوا فقراء بدليل قوله (خشية إملاق) والخشية تكون مما لم يقع بعد، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأن الأخير حاصل لذلك قال: (نرزقهم وإياكم).

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَجْهَ وَلِيٍّ﴾ [الأنعام/ ١٤]، قدم المفعول وسلط عليه الإنكار لأن الاهتمام ليس في اتخاذ الولي ولكنه في اتخاذ غير الله ولياً فكان أولى بالتقدم.

ومن حالات تقدم متعلقات الفعل ما يسميه البلاغيون، رد الخطأ في التعيين كأن تقول (زيداً عرفت) لمن اعتقد أنك عرفت إنساناً وأنه غير زيد، فانت ترد خطاه بتعيين من عرفت مقدماً إياه في العبارة.

ومنها إفادة التخصيص وهي أكثر حالات التقدم شيوعاً في هذا الباب، كأن تقول: (العريية أدرس) أو تقول (زيد مررت) فإنك في الأولى خصصت العريية بالدراسة فقدمت المفعول، وفي الثانية خصصت زيداً بالمرور به فقدمت الجار والمجرور وهما من متعلقات الفعل — كما عرفت — على الفعل.

وأبرز الأمثلة وضوحاً على معنى التخصيص قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة/ ٥]، فإن معنى الآية نخصك بالعبادة، لانعبد غيرك ونخصك بالاستعانة، ولولا هذا التقدم أي لو كانت الآية (نعبد إياك) لاحتمل أن يفهم

منها: نعبد إياك وغيرك أو كما نعبد غيرك.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة/ ١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَثُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَهِ اللَّهِ تُخْشَرُونَ﴾ [آل عمران/ ١٥٨]، قدم الجار والمحرور (إلى الله) على الفعل لإفادة معنى التخصيص أي إلى الله لا إلى غيره تحشرون.

قال الشاعر:

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً
أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى
أي إلى الله لا إلى غيره.

وقال الشاعر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس أئني
أرى الأرض تبقى والأخلاء تذهب
لهذا تجد جمهور البلاغيين يقدرون الفعل في (بسم الله الرحمن الرحيم) مؤخراً
أي بسم الله أبداً وقرأ ليفيد معنى الاختصاص والمراد: باسمه لا باسم غيره،
وخرجوا قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق/ ١]، بأن الأهم هنا
هو فعل القراءة (اقرأ) فهي أول سورة نزلت.

وقد يتقدم المتعلق لرعاية الفاصلة القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه/ ٦٧]، فقدم المفعول (خيفة) على الفاعل ليناسب
فواصل الآيات الأخرى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِجَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
أَلْهَا تَسَعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِلَيْكَ أَلَّتْ الْأَعْلَى﴾
[طه/ ٦٦ — ٦٨].

أما التأخير فاعلم أن الداعي إلى تأخير المسند إليه — إذا كان مبتدأ — هو
الداعي إلى تقدم المسند، وأن تأخير المسند أصل فيه.

واعلم أن الداعي إلى تأخير الفاعل هو الداعي إلى تقدم المفعول.

أحوال أخرى تعرض للمسند إليه

تعرف في النحو أن الصفة والبدل والتوكيد والعطف توابع، فالصفة تتبع الموصوف، والبدل يتبع المبدل منه، والتوكيد يتبع المؤكد، والمعطوف يتبع المعطوف عليه. والتابع لفظ يتقيد في نوع إعرابه بنوع الإعراب في لفظ معين متقدم عليه يسمى المتبوع لذلك يأتي هذا التابع متأخراً دائماً.

فإذا كان المتبوع مرفوعاً أو في محل رفع كان التابع كذلك كقولك: (أقبل موسى وخالد)، وإذا كان المتبوع منصوباً أو في محل نصب كان التابع كذلك: (زرت مكة المكرمة)، وإذا كان مجروراً أو في محل جر كان التابع كذلك: (عمدت إلى إعراب الشواهد كلها).

والبلاغيون يعنون ببيان المعاني التي يؤدّيها التابع والأغراض البلاغية التي يفيدها:
أولاً: وصف المسند إليه:

من أغراض الصفة الكشف عن معنى الموصوف وإيضاحه، وقد مثل القزويني لذلك بالعبارة الآتية: (الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى فراغ يشغله)، فهذه الصفات: الطول والعرض والعمق مبيّنة لماهية المسند إليه (الجسم) وكاشفة عن معنائه، ولعل من هذا قول البارودي:

فإن أكُ فارتقُ الديارَ فليها فؤادٌ أضلّته عيونُ المها منّي
كشفت الصفة (أضلته) عن ماهية الفؤاد وهو مسند إليه هنا.

ومن أغراضها التخصيص كقولك: (خالد الطبيب سافر) عندما يكون ثمة خالد العالم، وخالد الخطيب، وخالد الشاعر، وخالد الطبيب؛ فخصصت بالصفة (الطبيب)

الموصوف خالداً الذي أردته ولعلّ من هذا قول كعب بن زهير:
 أمست سعاد بأرض لا يبلغها إلا العتاق النجيات المراسيل
 فخصّ بالصفة (النجيات) المسند إليه (العتاق).

قال تعالى: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّمَّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة / ٢٢١].

ومن أغراضها التوكيد كقولك: (مضى أمس الدابر) أكدت المسند إليه (أمس) بالصفة (الدابر)، وقولك (العالمان الاثنان حاضرا في الجامعة) أكدت بالصفة (اثنان) عددهما. ومنه في غير المسند إليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَكَّرُ الْإِنسَانِ إِلَّا مَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُبُونَ ﴾ [النحل / ٥١]، فإنه لولا الصفة (اثنين) والصفة (واحد) لاحتمل أن يكون المراد النهي عن اتخاذ الإله لا عن تعدده، وإثبات الآلهة لا وحدتها، فأزال هذا الاحتمال بتأكيد الإلهين بالإثنين والإله بالوحدة.

ومن أغراضها المدح كأن تقول: الخليفة العادل عمر بن الخطاب زرع في النفوس الطمأنينة.

ومنها الذم كأن تقول: لا يقرب الرجل الجاهل مجالس العلم، قال البارودي:

وصاحب كهوم النفس معترض ما بين ترقوة مني وأحشاء
 إن قال خيرا فعن سهو ألم به أو قال شرا فعن قصد وإمضاء
 لا يفعلُ السوء إلا بعد مقدرة ولا يكفكفُ إلا بعد إيذاء
 عاشرته حبة من غير سابقة فكان أقتل من داء لحوباء

فوصفه بأنه مثل الهم الذي لا يغادر أحشاءه وضلوعه، وبأنه لا يفعل الخير إلا خطأ وبأنه يقصد إلى الشر.. فهذا الذم فهمناه من خلال الصفات التي وصف بها المسند إليه (صاحب) وهي: (كهوم) (إن قال خيرا) (لا يفعل السوء).

ثانياً: الإبدال منه:

وهذا يفيد تقرير الحكم وتقويته بتعيين المراد ورفع الاحتمال عنه كقولك: (زيد أخوك رجل كريم) فالبدال (أخوك) قوى حكم البديل منه (زيد) وعين مراد المتكلم بحيث لا يخطر في بال المخاطب أن المراد زيد آخر.

قال أبو تمام:

إِنَّ الْأَسْوَدَ أَسْوَدَ الْغَابِ هِمَّتْهَا يَوْمَ الْكَرْيَةِ فِي الْمُسْلُوبِ لَا السَّلْبِ

ثالثاً: توكيده:

يوكد المسند إليه بأحد التوكيدين اللفظي والمعنوي فيفيد بذلك أغراضاً بلاغية منها:

— تقرير الكلام وتثبيته تحقيقاً لموداه، كقولك (الأم الأم أعذب ما ينطق به الفم) فلفظ (الأم) الثاني توكيد لفظي، وقد جاء هذا التوكيد مثبتاً في ذهن السامع اللفظ المؤكد (الأم) ومقرراً إياه، قال أحمد شوقي:

النَيْلُ النَيْلُ يَجْنِي هَاهِيَهُ أَمْوَاغُهُ تَهْتَفُ فِي مَنَادِيهِ

— دفع توهم عدم الشمول: كقولك (جاءني القوم كلهم) لئلا يتوهم السامع أن بعضهم لم يجيء، أو أنه جاء وأنت لم تأبه بجيئه، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ [الحجر/ ٣٠].

— دفع توهم السهو: كقولك (جاءني زيد زيد) لئلا يتوهم السامع أن الجائي غير زيد وأنت ذكرت زيدا على سبيل السهو، قال الشاعر:

إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبِ لَكَ زَلَّةٌ فَكُنْ أَنْتَ مُحْتَالاً لَزَلَّتْهُ عِذْرًا

— دفع توهم التحيز كقولك: (زارني الأمير نفسه) فلو لا التوكيد (نفسه) لاحتمل السامع أنك تحوزت في الكلام أو أنك لم تكن دقيقاً، ولما أكدت أزلت ذلك الاحتمال عنه.

رابعاً: العطف عليه:

العطف على المسند إليه له أغراض منها:

— تفصيل المسند إليه مع الاختصار كقولك: (أقبل زيد وخالد وسعيد)
ألا ترى أنك في هذا العطف اختصرت العبارات: (أقبل زيد أقبل خالد أقبل سعيد).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَقَرّاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب/ ٣٥].

قال المتنبي:

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

— رد السامع عن الخطأ كقولك: (جاءني زيد لا خالد) لمن اعتقد أن خالداً جاءك دون زيد، أو أنهما جاءاك معاً، قال أبو فراس الحمداني:

فقلت: لقد أزرى بك الدهر بعدنا فقلت معاذ الله بل أنت لا الدهر

— الإضراب: كقولك عن زيد (أخوه بل أبوه جاهل).

— التخيير: لتقم هند أو فاطمة بإلقاء البحث.

خامساً: بيانه:

المقصود ببيان المسند إليه مجيء عطف البيان بعده، وعطف البيان تابع موضح متبوعه ومخصص له، وهو جامد يخالف متبوعه في لفظه ويوافقه في معناه المراد منه بالذات، وهو بمنزلة التفسير للأول باسم آخر مرادف له يكون أشهر منه في العرف والاستعمال^(١)، كقولك (عروة بن الورد شاعر

^(١) انظر النحو الواقي ٣ / ٥٤.

صعلوك) فللفظ (بن) هنا عطف بيان وضح المسند إليه (عروة) وخصّصه، وهو كما ترى لفظ جامد لا يمكن تأويله بمشتق، ولو لم يكن كذلك لكان صفة، والبلاغيون يمثلون لهذا النوع بشعر لبعض العرب قال فيه:

أقسم بالله أبو حفص عمرٌ ما مستها من نقب ولا دبرٌ
فللفظ (عمر) بيان لـ (أبو حفص) وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول الشاعر: حلف أبو حفص رضي الله عنه إن ناقتي ليس بما رقة في الخف (وهذا معنى نقب) ولا جرح بالظهر (وهذا معنى دبر)^(١).

^(١) انظر شرح الألفية لابن الناظم / ١٥٤، أقول: قد يختلط عطف البيان وبذل الكل من الكل (المطابق) فيحصل أحدهما عل الآخر، قال عباس حسن: (التفرقة بينهما قائمة على غير أساس سليم، فمن الخير توحيدهما لما في هذا من التيسير ومجازاة العامة، أما الرأي الذي يفرق بينهما في بعض الحالات فرأي قام على التحيل والحذف والتقدير) النحو الوافي ٣ / ٥٤٦.

تدريبات محلولة على حالات الإسناد

ما الحالات التي عرضت للمسند فيما يلي وما الداعي البلاغي لذلك:

١- قال تعالى: ﴿ تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر / ٤٩ - ٥٠]. جاء المسند (الغفور) و(الرحيم) و(العذاب) معرفين باللام لإفادة القصر الحقيقي إذ لا يكون الغفران إلا من الله عز وجل ولا يكون العذاب الأليم إلا منه سبحانه وتعالى.

٢- قال تعالى: ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة / ٢١]، ذكر المسند (قوي) وهو اسم (لا فعل) ليفيد معنى الثبوت، فالله تعالى منزّه عن الضعف، وقوته عز وجل ثابتة مستقرة لا كقوة المخلوق.

٣- قال الشاعر:

بأننا المطعمون إذا قدرنا وأننا المهلكون إذا ابتلينا
جاء المسند (المطعمون) و(المهلكون) معرفين باللام فأفاد تعريفهما القصر لكنه قصر ادعائي فالشاعر يدعي أنه وقومه المطعمون وكأن غيرهم لا يتصف بهذه الصفة. وقل ذلك في (المهلكون).

٤- قال الشاعر:

خليلي هل طبُّ فإني وأتما وإن لم تبوحا بالهوى دنفان
حذف المسند وهو خبر (طب) لضيق المقام والمراد هل طبُّ لخالطنا، وحذف المسند وهو خبر (إني) لدلالة خبر (أتما عليه) وخبر الأخير (دنفان).

٥- قال امرؤ القيس:

فقلت يمينُ الله أبرحُ قاعدا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي

حذف المسند وهو خير (يمين) جرياً على عادة العرب في حذف الخير بعد المبتدأ الدال على القسم والمرادة يمين الله قسماً.

ما الحالات التي عرضت لمعلقات الفعل فيما يلي وما الداعي البلاغي لذلك.

١- قال تعالى: ﴿ فَبِهَذَا هُمْ أَقْتَدَهُ ﴾ [الأنعام / ٩٠].

ذكرت الآيات قبلها إبراهيم وإسماعيل ويعقوب ونوحاً.... ثم قالت: فبهدهم اقتده، فقدم المتعلق بالفعل وهو الجار والمجرور (هدهم) على الفعل (اقتد) فأفاد معنى الاختصاص أي اختص هدهم بالافتداء ولا يقتدى إلا هم وذلك بالأخلاق الحميدة على بعض الأقوال، قال أبو حيان: أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بمكارم الأخلاق، فأمر بتوبة آدم وشكر نوح ووفاء إبراهيم وصدق وعد إسماعيل وحلم إسحاق وحسن ظن يعقوب واحتمال يوسف وصبر أيوب وتواضع سليمان وإخلاص موسى وعبادة زكريا وعصمة يحيى وزهد عيسى، وهذه المكارم التي في جميع الأنبياء اجتمعت في الرسول عليه الصلاة والسلام لذلك وصفه الله بقوله: «وإنك لعلی خلق عظیم».

٢- قال تعالى: ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ ﴾ [يس / ٤٣].

حذف مفعول (نشأ) لأن هذا موضع بيان بعد إتمام وهو مفعول المشيئة والمراد: (وإن نشأ أغرقهم نغرقهم).

٣- قال أبو العتاهية:

إني رأيت عواقب الدنيا فتركت ما أهوى لما أخشى

حذف مفعولا (أهوى) و(أخشى) لأنهما مفهومان من السياق والمراد: ما أهواه من الدنيا لما أخشاه من عواقبها.

٤- قال تعالى: ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

[يوسف / ٦٧]، قدم المتعلق بالفعل وهو الجار والمجرور (عليه) على الفعل (توكلت) فأفاد معنى الاختصاص والمراد عليه لا على غيره.

ومثله قول الشاعر مادحاً:

بسيئك يعلو الحق والحق أغلب ويتصر دين الله آيان تضرب



الفصل الثالث

القصر

تعريفه — طرقه — أنواعه

Damascus University



القصر

القصر — لغة — يعني الحبس، يقال: قصرته: أي حبسته، قال تعالى: ﴿مُحْصَرَاتٍ فِي الْحِمَامِ﴾ [الرحمن/٧٢]، أي: محبوسات في محبوسهن.
والقصر — اصطلاحاً — تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، أو هو إثبات حكم في الكلام، ونفيه عن سواه بإحدى طرق القصر.

مثال ذلك أنا إذا قلنا: (عترة شاعر)، نكون قد نسبنا الشاعرية إلى (عترة) بجملة خبرية خالية من أي تأكيد؛ لأن الموقف لا إنكار فيه، لكننا لم نقصرها عليه، بمعنى أنه قد يشترك مع (عترة) كثيرون في هذه الصفة؛ لأنه ليس ثمة ما يشير إلى أنها مختصة به لا تفارقه لغيره.

أما إذا قلنا: (ما شاعر إلا عترة)، فإن التعبير يكون قد اكتسب صفة التخصيص والملازمة عن طريق نفي الشاعرية عن كل إنسان، وإثباتها لعترة وحده، ودليل ذلك أننا إذا ما حلفنا (ما + إلا) فسنجد أن التخصيص قد زال منه، وكأنه لم يكن.
والموقف الذي اقتضى إضافة (ما + إلا) هنا هو موقف المبالغة في فهم الصفة وإسنادها للموصوف، ذلك أن شدة إعجاب الناس بعترة جعلتهم يتصورون أن لا شاعر سواه.

طرفاه:

للقصر طرفان:

١ — المقصور: وهو الشيء المخصص.

٢- المقصور عليه: وهو الشيء المخصص به.

فإذا قلنا: (لا رازق إلا الله) نكون قصرنا صفة (الرازق) على (الله) وحده، ونفيها عن غيره، فكلمة (رازق) هي المقصور، ولفظ الجلالة (الله) هو المقصور عليه.

طرق القصر:

طرق القصر المشهورة أربع: ^(١)

١- النفي والاستثناء: ^(٢)

ويكون المقصور عليه ما بعد أداة الاستثناء، نحو قولك:

١- (لا يعلم الغيب إلا الله)، ومنه قول الشاعر:

وما العيشُ إلاَّ مدَّةٌ سوفَ تنقضي وما المالُ إلاَّ هَالِكٌ وابنُ هالك

قصرنا في المثال الأول (علم الغيب) على الله سبحانه وتعالى، لا يتعداه لغيره، وقصرنا (العيش) في البيت على كونه مدة من الزمان لا تلبث أن تنقضي، وطريقة القصر كانت في المثالين واحدة، وهي: (النفي والاستثناء)، والمقصور عليه كان دائماً — بعد أداة الاستثناء.

٢- إنفا:

والمقصور هو الكلمة الأولى بعدها، أما المقصور عليه فهو مؤخر

^(١) هناك طرق أخرى للقصر؛ مثل: التصريح بلفظ (وحده) أو (لا غير)، أو (فقط)، أو استعمال مادة خص أو قصر، ونحوهما، وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر، نحو (عمد هو الشجاع)، وتعريف المسند أو المسند إليه بـ (ال) وهذه الطرق أوصلها السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن ٥٠/٢ إلى أربعة عشر طريقة، لكن البلاغيين أقصوها من دراستهم؛ لأنها خالية من اللطائف البلاغية.

^(٢) كل أدوات النفي تصلح للدخول في أسلوب القصر ما عدا (لأن) لأن المنفي بها يشترط أن يظل منفيًا حتى لحظة التكلم. كما أن كل أدوات الاستثناء تصلح للدخول في أسلوب القصر نحو: (إلا، وغم، وسوى... وما في معناها).

وجوباً^(١)، أو هو ما ختمت به جملة القصر، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠]، فقصر قوله: (المؤمنون) على كونهم (إخوة)، فالمقصود هو الكلمة الأولى بعد (إنما)، والمقصود عليه هو المؤخر، أي (إخوة).

وعليه قول المعري يهاجم المذاهب السياسية المتعارضة في عصره:

إِنَّمَا هَذِهِ الْمَذَاهِبُ أَسْبَابُ تَجَلُّبِ الدُّنْيَا إِلَى الرُّسَاءِ

وقد نبه عبد القاهر إلى مزيتين اثنتين لـ (إنما):

الأولى أنها تأتي في خبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته أو في خبر يُنزل هذه المنزلة، فقولك للرجل: (إنما هو أخوك) لا يقال لمن يجهل ذلك ويدفع صحته ولكن لمن يعلمه ويقرب به إلا أنك تريد أن تنبه للذي يجب عليه من حق الأخ، وكذا في قول المتنبي:

إِنَّمَا أَنَا ابْنُ وَالِدٍ وَالْأَبُ الْقَاتِلُ طِعْ أَحْسَنَ مَنْ وَأَصِلِ الْأَوْلَادِ

لم يرد أن يعلم كافوراً أنه والد ولا ذاك مما يحتاج إليه كافور إلى الإعلام، ولكن أراد أن يذكره منه بالأمر المعلوم ليبني عليه استدعاء ما يوجب كونه بمنزلة الوالد.

ومثاله من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [يس/ ١١]، فالإنذار يكون له تأثير إذا كان مع مَنْ يؤمن بالله ويخشاه ويصدق بالبعث والساعة.

الثانية أنها — إلى جانب القصر — قد تفيد التعريض، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد/ ١٩]، فلو كانت الآية بغير (إنما) أي لو كانت (يتذكر أولو الألباب) لما دلّت على التعريض، والسبب في ذلك أن هذا التعريض وقع بأن كان من شأن (إنما) أن تضمن الكلام معنى النفي من بعد الإثبات، والتصريح

(١) لا يجوز تقديم المقصور عليه هنا، لكون التأخير دليل القصر عليه، كما أن في تقديمه إرباكاً للمعنى، فكل من الفاعل والمفعول الواقعيين بعد الفعل يحتمل أن يكون هو المقصور عليه دون الآخر، إذ ليس ما يشير إلى كون أحدهما هو المقصور عليه. و(إنما) تتكون من (إن) الحرف المشبه بالفعل و(ما) الكافة، ويقال لها: كافة ومكفوفة.

بامتناع التذكر تمن لا يعقل، وسقوطها من الكلام (يتذكر أولو الألباب) مجرد وصف لأولي الألباب بأنهم يتذكرون، ولم يكن فيه معنى نفى التذكر عن من ليس منهم، ومحال أن يقع تعريض لشيء ليس له في الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه.^(١)

٣- القصر بثلاثة حروف عطف. (بل، ولكن، ولا):

أما العطف بـ (بل) و(لكن) فإن المقصور عطفه يأتي بعدهما، والمقصور هو الكلمة الأولى، مثال ذلك قول ابن الرومي رثياً ولله:

ما أَصْبَحْتَ دُجَّيَ لِي وَطَنًا بل حَيْثُ دَارُكَ عِنْدِي الْوَطَنُ
وقول ابن المعتز:

لَيْسَ التَّعَجُّبُ مِنْ مَوَاهِبِ مَالِهِ بل مِنْ سَلَامَتِهَا إِلَى أَوْقَاتِهَا
وقول للشاعر:

مَا شَابَ رَأْسِي مِنْ سِنِينَ تَبَاعَتْ عَلَيَّ وَلَكِنْ شَيَّتَنِي الْوَقَائِعُ
فقصر في المثال الأول (وطنه) على كونه مقصوراً على (دار ولده) ونفى مقابل ذلك أن تكون الدنيا له وطناً. فالمقصور (الوطن)، والمقصور عليه (الدار التي حل بها ولده)، وهي القبر هنا.

وفي البيت الثاني قصر التعجب على كونه مقصوراً على (سلامة أمواله إلى أوقاتها)، ونفى مقابل ذلك أن يكون التعجب من (مواهب ماله).

والقول نفسه يسري على البيت الثالث.

ويشترط في القصر بـ (بل) و(لكن) أن تسبقا بنفي أو هي، وأن يكون المعطوف هما مفرداً، وألا تقترن (لكن) بالواو، فإذا قلت: (المتني كاتب بل شاعر) كان معناه ثبوت الشاعرية للمتني مع السكوت عن نفي الكتابة عنه، وهذا ليس بقصر وإنما

^(١) بحصرف من دلائل الإعجاز (بتحقيق د. الداية) ص ٢٤٨.

إضراب وعدول عن شيء لآخر.

أما القصر بـ (لا) فيكون المقصور عليه هو المذكور قبلها مباشرة، أو بهـارة أخرى هو المقابل لما بعدها. ففي قولنا مثلاً (نجيب محفوظ روائي لا شاعر) ننظر إلى الكلمة الواقعة بعد (لا) ونحدد على أساس منها المقصور عليه، وهو — كما ذكرنا — الكلمة التي تقابلها، فعين نقع بعد (لا) على كلمة (شاعر)، فإننا نجد في المقابل لها في العبارة (روائي).

ومن خصائص القصر بـ (لا) أنها تأتي دائماً في المثبت، ولا تأتي مع النفي والاستثناء، فلا يصح القول: (ما روائي إلا نجيب محفوظ لا المتنبي).

ومن أمثلة العطف بـ (لا): (قولهم: الدنيا دار ضيافة لا دار إقامة)، ومنه قول ابن الرومي:

أمواله في رقاب الناس من مَن لا في الخزائن من عَيْنٍ ومن نُسَب^(١)

قصر في المثال الأول (الحياة الدنيا) على كونها داراً للضيافة، ونفي في مقابل ذلك أن تكون دار إقامة. فالمقصور هو (الدنيا)، والمقصور عليه هو (دار ضيافة). وقصر ابن الرومي (أموال الممدوح) على كونها ثابتة في رقاب الناس، ونفي أن تكون في الخزائن، فالمقصور (أمواله)، والمقصور عليه كونها (في رقاب الناس).

٤— تقديم ما حقه التأخير^(٢): كتقديم الخير على المبتدأ (ما لم يكن المبتدأ نكرة)، وتقديم المسند إليه على الخير الفعلي، وتقديم المعمولات، على نحو ما سبق في دراسة التقديم والتأخير. وهنا يكون المقصور عليه هو المقدم، نحو: راكباً جاء. ومسلم أنا. والآداب أدرس. وفي الصيف أسافر. إلى الله أشكو حالي. ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومنه شعراً:

(١) العين: الذهب والفضة، والنسب: المال.

(٢) ليس كل تقدم يفيد القصر أو التخصيص، إذ لمة أغراض أخرى له، سبقت الإشارة إليها في مبحث التقديم والتأخير.

لَنَا الدُّنْيَا وَمَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا وَتَبَطَّشْ حِينَ نَبَطَّشْ قَادِرِينََا
وقول العَظْمَشُ الصَّنِيُّ:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ أَتُنِي أَرَى الْأَرْضَ تَبْقَى وَالْأَخْلَاءَ تَذْهَبُ
فالمقصود عليه في مجمل هذه الأمثلة هو المقدم، أو هو الكلمات الأولى، أما
المقصود فهو المتعلق به.

والملاحظ في طرق القصر أن الطرق الثلاثة الأولى يفهم القصر فيها عن طريق
الوضع اللغوي؛ لأن الواضع وضعها لتفيد ذلك، أما تقدم ما حقه التأخير فإن معنى
القصر يفهم فيه من سياق الكلام، وهو ما يحتاج فيه إلى الذوق السليم، والبحث في
مواقع الكلمات، وربط ذلك بالمقام.

أقسام القصر

يقسم القصر إلى ثلاثة أقسام:

- ١- قصر بحسب طرفيه.
- ٢- قصر بحسب غرض المتكلم.
- ٣- قصر بحسب حال المخاطب.

أولاً: أقسام القصر بحسب طرفيه:

يقسم القصر بحسب طرفيه إلى قسمين:

- ١- قصر صفة على موصوف.
- ٢- قصر موصوف على صفة.

والمقصود بالصفة هنا الصفة المعنوية^(١)، أي المعنى الذي يقوم بغيره، وليس النعت بمعناه النحوي؛ ولذلك تشمل الفعل ونحوه: أما الموصوف فهو في الغالب اسم ذات سواء أكان إنساناً، أم نباتاً، أم حيواناً، أم جماداً. فإذا قلنا — مثلاً: (تمطر السماء) نكون وصفنا (السماء) بالإمطار؛ (فالسماء): موصوف، و(تمطر) صفة. وإذا قلنا: (للجدران آذان)، نكون وصفنا الجدران بامتلاك آذان، ف (الجدران) موصوف، و(آذان) صفة.

ومعنى قصر الصفة على الموصوف: أن الصفة لا تتعدى الموصوف إلى موصوف غيره، فهي مختصة به، مقصورة عليه. أما قصر الموصوف على الصفة: فمعناه أن الموصوف لا يفارق الصفة المثبتة له إلى غيرها.

ولتحديد نوع القصر ينظر إلى المقصور، فإذا كان صفة فهو قصر صفة على موصوف، وإذا كان موصوفاً فهو قصر موصوف على صفة. وأمثلة ذلك: — قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ».

— وقول الشاعر:

وما نال المني في الناس إلا غي القوم، أو فطن تغابي
فالمقصود في الحديث الشريف هو (بُعثت)، والمقصود عليه (وقد ذكرنا أنه مؤخر وجوباً) (لأتمم مكارم الأخلاق)، فهو من قصر الموصوف على الصفة، إذ قصر بعثته وهي الموصوف على إتمام مكارم الأخلاق وهي الصفة.

والمقصود في البيت الشعري (نال المني)، والمقصود عليه (غي القوم..)، فهو من قصر الصفة على الموصوف، إذ قصر صفة (نال المني) على كونها ملازمة (لغي القوم)، أو لفطن متغاب.

^(١) المقصود بالصفة المعنوية بلاغياً هي كل ما يصح أن يوصف به سواء أوقعت خبراً، أم نعتاً، أم حالاً أم اسماً، أم فعلاً، أم غير ذلك.

وثمة سؤال يمكن أن يُطرح هنا، هو ما الفرق بين النوعين؟ وما تأثير هذا الفرق في إصابة المعنى المراد؟

وجواب ذلك أننا إذا قلنا (ما المتنبي إلا شاعر)، نكون قد قصرنا (المتنبي) على صفة (الشاعرية)، أي قصرنا الموصوف على صفة بعينها، وكان استخدام هذا التعبير للرد على من اعتقد أن المتنبي شاعر وكاتب، فأردت أن تبين له أن الموصوف، وهو (المتنبي)، يقتصر على صفة واحدة هي الشاعرية.

أما إذا قلت في قصر الصفة على الموصوف (لا شاعر إلا المتنبي) فستلاحظ أن المعنى قد تغير تماماً؛ لأنك قصرت صفة الشاعرية على هذا الشاعر وحده، وكأنك بذلك ترد على من اعتقد أن غير المتنبي يشترك معه في هذه الصفة، فأردت، أن تنفي ذلك الاعتقاد، وأن تقصر الشاعرية على المتنبي وحده.

ثانياً: أقسام القصر بحسب الواقع والحقيقة:

يقسم القصر بحسب الواقع والحقيقة إلى:

١- قصر حقيقي: ^(١) وهو ما كان التخصيص فيه وفقاً للواقع حقيقة لا يتحلوه إلى غيره قط. مثل قولك: (لا إله إلا الله)، هذا المثال قصرنا صفة الألوهية على الله وحده لا تتجاوزها إلى غيره، ولا تختص بأحد سواه، فهو بذلك قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقياً؛ لأن الواقع يؤكد حقيقة هذا الكلام، وأن لا إله في الوجود سواه.

٢- قصر إضافي (غير حقيقي): وهو ما كان التخصيص فيه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه. نحو (ما فارس إلا عنتر)، فقصرنا صفة الفروسية عليه بالنسبة لشخص غيره كزهير مثلاً، وليس قصدك قصر هذه الصفة

^(١) ومنه نوع يسمى بالقصر الحقيقي الادعائي ويأتي على سبيل المبالغة فإذا قلت: (إنما الشاعر عنتر) فاصداً نفسي الشاعرية عن غيره، لإكبارك هذا الشاعر، وعدم اعتدادك بغيره، كان هذا القصر حقيقةً ادعائياً، أي على سبيل المبالغة والادعاء، لا على سبيل الحقيقة والواقع.

عليه، لأن الواقع يشهد بطلانه.

ووفقاً لهذين النوعين، يقسم القصر بحسب حال المقصور إلى أربعة أقسام:

١- قصر الصفة على الموصوف قصراً حقيقياً: وفيه يختص المقصور بالمقصور عليه بصفة لا تختص إلا به، ولا تعدوه إلى غيره، نحو:

— قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام/ ٥٩].

— لا يروي دمشق من الأتجار إلا بردى.

— لا غريب بيننا إلا أحمد (إذا لم يكن أحد غيره غريباً فعلاً).

فالقصر — فيما سبق — من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي بحسب الواقع؛ فالعلم بأسرار الغيب مقصور على الله سبحانه وتعالى لا يتعداه إلى غيره. كما أن إرواء دمشق لا يتم إلا عن طريق هر بردى دون غيره من الأتجار، فهذه الصفة حقيقة يشهد بذلك الواقع.

٢- قصر الصفة على الموصوف قصراً إضافياً (غير حقيقي): ومعناه أن يقصر الموصوف على صفة، وهذه الصفة لا ينفرد بها وحده، بل تنطبق عليه وعلى غيره وفقاً للحقيقة والواقع، لكن المتكلم — ورغبة منه في المبالغة — يزعم أنها لا تسري إلا على هذا الموصوف. فإذا قلنا: ما الشاعر إلا المتنبي، أو كما قال السيد الحميري:

— لو خُيِّرَ المنيرُ فرسانَهُ ما اختارَ إلا منكمُ فارساً

نكون قد قصرنا في المثال الأول صفة (الشاعرية) على (المتنبي) قصراً إضافياً وليس حقيقياً؛ لأن هذه الصفة لا تقتصر عليه ولا ينفرد بها، بل تجري — وفقاً للواقع — عليه وعلى شعراء غيره كثيرين، ولكن المخاطب — ومبالغة منه في مدحه وتقديره — أوهمنا أنه يستقل بها دون غيره.

وفي بيت الحميري قصر الشاعر صفة (اختيار المنير فرسانه) على كونها مقصورة عليهم، فالقصر هنا، من باب قصر الصفة على الموصوف، وهو بحسب الواقع ليس

حقيقاً، فالمنبر لن يختار فارساً لا منهم ولا من غيرهم، ولكن الشاعر زعم أنه بإمكانه تحقيق ذلك مبالغة منه في إكبارهم وتقديرهم.

ومن أمثلة هذا النوع قول المتنبي:

لا يدركُ المجدَ إلا سَيِّدٌ فَطِنٌ لما يشقُّ على الساداتِ فعَالٌ

وقول الآخر:

ولو حَمَلْتَنِي السَّرَّ سَلِمَى حَمْلَتُهُ وهل يُحْمِلُ الأسرارَ إلا كَوْنُهَا

٣- قصر الموصوف على الصفة قصراً حقيقياً: ومعناه أن الموصوف يتصف بصفة لا يتصف بغيرها. وهذا النوع يكاد يكون معدوماً لاستحالة أن يكون لأي شيء صفة واحدة فحسب، فإذا قلنا قاصدين معنى القصر الحقيقي: (إنما محمد رسول الله) يكون هذا التعبير من باب قصر الموصوف على الصفة، ومعناه أن سيدنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - مقصور على كونه رسولاً لله وليس فيه صفة سواها، وهذا أمر - بالتأكيد - ينفيه الواقع، لأنه ثمة صفات أخرى كثيرة يتصف بها الرسول العظيم، منها أنه: زوج، وأب، وقائد، وحكيم... وغير ذلك.

ومن هنا نخلص إلى أن القصر الحقيقي يكون في قصر الصفة على الموصوف، ويمتنع وقوعه في قصر الموصوف على الصفة.

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة/ ٧٥].

٤- قصر الموصوف على الصفة قصراً إضافياً: ومعناه أن نقصر الموصوف على صفة ونخصه بها، ولكن - كما تبين لنا في النوع السابق - يتجاوزها إلى غيرها بحسب الحقيقة والواقع.

فإذا قلنا مثلاً:

- إنما دمشق أقدم مدينة مأهولة في العالم.

— ما الرياض إلا مدينة عصرية.

نكون قد قصرنا مدينة دمشق على كونها أقدم مدينة مأهولة في العالم لا تتعدى هذه الصفة إلى صفات أخرى، وهذا أمر غير منطقي يرفضه الواقع، إذ ثمة صفات أخرى كثيرة تتصف بها هذه المدينة العريقة إضافة إلى كونها أقدم مدينة، منها: جمال طبيعتها، واتساع عمراتها، وتعانق بساتين غوطتها، وجمعها بين الأصالة والمعاصرة، وسماحة أهلها.. وغير ذلك.

وبعبارة أخرى نقول: إن كل قصر موصوف على صفة هو قصر إضافي، إذ لا يعقل أن نجد موصوفاً ليس له إلا صفة واحدة فحسب، بل من البدهي أن تكون له صفات كثيرة.

ومن أمثلة هذا النوع شعراً قول لبيد بن ربيعة:

وما المرء إلا كالشهاب وضوءه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ثالثاً: أنواع القصر بحسب حال المخاطب:

يقسم القصر تبعاً لحال المخاطب إلى ثلاثة أقسام:

١— قصر إفراد: إذا اعتقد المخاطب الشراكة في الحكم بين المقصور عليه وغيره، وسمي قصر إفراد؛ لأنه قطع الشراكة التي اعتقدها المخاطب من ناحية، وقصر الحكم فيه على فرد واحد من الاثنين اللذين اعتقد المخاطب أنهما شريكان فيها.

مثال ذلك: قد يعتقد المخاطب أن زيداً وعمرأ قد أسهما في حملة التبرعات، وأردت أن تنفي اشتراكهما معاً في هذا العمل، وأن تقصرها على زيد وحده، فتقول: (ما المحسن إلا زيد)، فتكون قد أفردت (زيداً) بهذه الصفة، وقطعت عن مخاطبك فكرة الاشتراك مع (عمرؤ).

٢— قصر قلب: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم، فبأي القصر لقلب اعتقاده، كمن اعتقد أنك طبيب وأنت في الحقيقة مهندس، وتريد أن تقلب له مفهومه، فتقول

له: (إنما أنا مهندس)، أي لا طبيب، فتكون بذلك قد قصرت نفسك على كونك مهندساً قصراً إضافياً من نوع القلب؛ لأن المخاطب يعتقد العكس.

٣- قصر تعيين: ويُخاطب به المتردد أو الشاك، فإذا كان المخاطب متردداً في الحكم بين المقصور عليه وغيره، فيأتي القصر هنا لنزع الشك، وتحديد من ينبغي أن يقصر عليه الحكم.

تقول لشخص يشك في معرفة المتفوق من الطلاب: أهو زيد أم عمرو؟ (ما عمرو إلا المتفوق) قاصداً إلى نزع الشك من نفسه، ومحدداً من ينبغي أن يقصر عليه الحكم.

يتبين لنا من دراسة القسم الثالث من أقسام القصر أن هذا النوع تتدخل فيه مجموعة من العوامل التي تحدد مساره، منها: حالة المخاطب، والسياق العام الذي قيل فيه التعبير، وكذلك ذكاء المتكلم وفطنته، فهذه العوامل تُمكن المتكلم من اختيار التعبير المناسب الذي يوافق فيه مقتضى الحال، وهذا الأمر ليس بالسهولة واليسر؛ لأن العبارة الواحدة تحتل أن تكون قصر إفراد، وقصر قلب، وقصر تعيين في الوقت نفسه؛ فتحديد النوع رهن — كما ذكرنا — بحال المخاطب.

على أنه يجب أن ننبه إلى أن ثمة أموراً يمكن أن تُعين في وضع ضوابط لهذا النوع، فـ (الواو) التي تعني المشاركة يمكن أن تُعين في ضبط النوع الأول (قصر الإفراد)، و(لا)، التي تعني اعتقاد العكس تعيننا على ضبط (قصر القلب)، أما حرف العطف (أو) أو (أم) فإنهما يفيدان في ضبط النوع الثالث وهو (قصر التعيين).

مثال ذلك قولك في قصر الموصوف على الصفة: (الجاحظ كاتب لا شاعر)، فإن كان الخطاب مع من اعتقده كاتباً وشاعراً، كان قصر إفراد، وإن كان مع من اعتقده شاعراً لا كاتباً، كان قصر قلب، وإن كان مع من تردد في وصفه بالكتابة أو الشاعرية كان قصر تعيين.

أغراض القصر:

يؤتى بأسلوب القصر لتحقيق فوائد ولطائف بلاغية، منها:

١- التأكيد مع الإيجاز: لما كانت جملة القصر تفيد إثبات أمر لأحدهما ونفيه عن غيره، كانت جملة القصر تفيد جملتين، وهذا تكون قد أفادت نوعاً من التأكيد والاختصار، فإذا قلنا: (لا يرعى حق الجوار إلا الكريم)، كان هذا القول اختصاراً لجملتين: الأولى: (يرعى حق الجوار الكريم)، والثانية: (غير الكريم لا يرعى حق الجوار).

٢- تقوية المعنى وتأكيده، وكأنه رد على نفي الوصف عن الموصوف، أو ادعاء اشتراك غيره معه في هذا الوصف، وكلما كان النفي صريحاً كان التأكيد أقوى، ولهذا نشعر عند استخدام النفي والاستثناء أنه وسيلة لرد الإنكار الشديد، ودفع كل ما يمكن أن يراود النفس من شك، من ذلك — مثلاً — قولك: (ما هو إلا مخطئ) و(ما هي إلا على صواب)، فأنت بهذا الأسلوب قررت كلامك وأكدته تأكيداً حاسماً قطعت فيه كل ما يمكن أن يراود مخاطبك من شك.

٣- التعريض: وهذا ما يحققه القصر بـ (إنما)؛ لأن هذه الأداة امتازت عن بقية الطرق بأنها تستعمل في كلام لا يكون الغرض منه إفادة الحكم للعلم به، وإنما يكون الغرض التلويح به إلى معنى آخر على سبيل التعريض. نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد/ ١٩]، ففيها تعريض بدم الكفار، وأنهم من فرط جهلهم وضلالهم ألحقوا بمن لا عقل لهم، أي البهائم.

٤- المبالغة: ويفيد القصر المبالغة إذا كان الكلام غير مطابق للواقع، وإنما ذكر على سبيل المبالغة والادعاء المجازي. مثال ذلك أنك إذا قلت: (لا بلاغي إلا عبد القاهر)، تجد أن هذه العبارة تفيد المبالغة في وصف عبد القاهر بالمبالغة، وكأن لا بلاغي آخر سواه، وهذا أمر ينفيه الواقع؛ لأن ثمة بلاغيين أكثر غيره، لكنك، وإعجاباً منك بهذا العالم، ومبالغة منك في مدحه تريد أن تنبه إلى أنه تفوق في هذه الصفة، وبلغ

فيها الغاية التي جعلتك لا تعتد ببلاغي غيره.

ومن أمثلة هذا الغرض قول الشاعر:

لا سيف إلا ذو الفقار ر ولا فسي إلا علي
وقول المتنبي مادحاً:

برجاء جودك يطردُ القصرُ وبأن تُعادي ينفذُ العُمرُ

مواقع القصر:

واعلم أن القصر^(١) يقع بين المبتدأ والخبر، نحو: (ما محمد إلا كاتب)، وبين الفعل والفاعل، نحو: (ما نجح إلا زيد)، وبين الفاعل والمفعول، نحو: (ما عاقبت إلا عمراً)، وبين المفعولين، نحو: (ما منحت الطالب إلا جائزة)، وبين سائر المتعلقات: كالحال، والتمييز، والظرف، والجار والمجرور، وغير ذلك، نحو: ما جئت إلا مشياً، ما طاب زيد إلا نفساً، ما تنزه إلا بين الأشجار، ما سلمت إلا على زيد.

(١) يمتنع وقوع القصر في موضعين؛ الأول: المصدر المؤكد، فلا نقول: (ما ضربت إلا ضرباً)، وأما قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْ مِنْكُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [الجاثية/ ٣٢]، فمعناه إلا ظناً ضعيفاً، فهو مصدر نوعي. والآخر: المفعول معه، فإنه لا يأتي بعد إلا، فلا يقال: ما سرت إلا والجبل.

تدريبات محلولة على بحث القصر

— وضع فيما يأتي نوع القصر وطريقه فيما يأتي:

١— قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الحشر/٥٩].

٢— قال حسان بن ثابت:

وإنما الشَّعرُ لُبُّ المرءِ يعرضُهُ على المجالسِ إن كَيْسًا وإن حُمْقًا

٣— قال تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة/٥].

٤— قال أبو العتاهية:

ما يكون العيش حلواً كلُّه إنما العيش سُهولٌ وحُزُونٌ

٥— قال دريد بن الصمة:

وما أنا إلا مِنْ غَزِيَّةٍ إنْ غَوَتْ غَوَيْتُ وإنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشَدِ

٦— قال زهير بن أبي سلمى:

وما الحربُ إلا ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمْ وما هُوَ عنها بالحديثِ المَرْجَمُ

٧— عُمَرُ الْفَقِي ذِكْرُهُ لَا طَوْلَ مَدْرَتِهِ وَمَوْتُهُ خَزِيَّةٌ لَا يَوْمَهِ الدَّانِي

٨— فَلَمَّا أَبَى إِلَّا الْبُكَاءَ رَفَدَتْهُ يَعْنِينَ كَانَا لِلدَّمْعِ عَلَى قَدَرِ

٩— قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة».

١٠— لا يعرفُ الشوقُ إلا مَنْ يُكَايِدُهُ وَلَا الصَّبَابَةُ إِلَّا مَنْ يَعَانِيهَا

الإجابات:

الرقم	الجملة	نوعه بحسب المقصور	نوعه بحسب الواقع	طريقه
١—	لله ما في السموات	صفة على موصوف	حقيقي	التقديم
٢—	وإنما الشعر لب المرء	موصوف على صفة	إضافي	إنما
٣—	إياك نعبد/ إياك نستعين	صفة على موصوف	حقيقي	تقديم المفعول به
٤—	إنما العيش سهول	موصوف على صفة	إضافي	إنما
٥—	وما أنا إلا من غزية	موصوف على صفة	إضافي	النفي والاستثناء
٦—	وما الحرب إلا ما علمتم	موصوف على صفة	إضافي	النفي والاستثناء
٧—	— عمر الفتي ذكره لا طول مدته	موصوف على صفة	إضافي	لا
	— وموته خزية.. لا يومه الداني	موصوف على صفة	إضافي	لا
٨—	فلما أبي إلا البكاء	صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء
٩—	إنما الناس كإبل مائة	موصوف على صفة	إضافي	إنما
١٠—	لا يعرف الشوق إلا من يكابده	صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء
	ولا الصباة إلا من يعانيتها	صفة على موصوف	إضافي	النفي والاستثناء

تدريبات يطلب حلها

ما طريق القصر في الأمثلة الآتية، وما نوعه بحسب الطرفين، وبحسب الحقيقة والواقع؟

- ١- ما بعثكم مهجتي إلا بوصلكم ولا أسلمها إلا يدا بيد
- ٢- يهتز عطفاه عند الحمد يستمعهُ من هزة المجد لا من هزة الطرب
- ٣- قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام/ ٥٩].
- ٤- إنما الدنيا هباتٌ وعوارٍ مُستتردةٌ شدة بعد رخاءٍ ورخاءٌ بعد شدة
- ٥- إنما يشتري المحامد حرٌّ طاب نفساً لهنَّ بالآثمان
- ٦- وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
- ٧- لحومهم لحمي وهم يأكلونه وما داهيات المرء إلا أقاربنة
- ٨- إنما حسبت للأمر ألف حساب.
- ٩- قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة/ ٧٥].
- ١٠- يلوم في الحب من لم يدر طعم هوى وإنما يعثر العشاق من عشقا



الفصل الرابع

الفصل والوصل

حالات الفصل — حالات الوصل — الجملة الحالية



الفصل والوصل

هذا من المباحث البلاغية التي جعلها العلماء مقياساً للبلاغة، فقد نقل الجاحظ أنه قيل للفارسي ما البلاغة؟ فقال: هي معرفة الفصل والوصل^(١).

والوصل المراد هنا عطف جملة على جملة بالواو، والفصل ترك هذا العطف، إذاً لن يكون لعطف الكلمة على الكلمة شأن هنا، كما أن العطف يغير الواو غير منظور إليه في هذا البحث لأن حروف العطف الأخرى تفيد إلى جانب العطف معاني أخرى، فالفاء تفيد مع العطف الترتيب والتعقيب، و(ثم) تفيد مع العطف الترتيب والتراخي في المدة، انظر إلى ذينك الحرفين (الفاء و(ثم) كيف أدت تلك المعاني في قوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْقَةٍ خَلَقَهُ فَقَلَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَّاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عيس/ ١٩-٢١].

عطف جملة (قدّر) على جملة (خلق) بالفاء لإفادتها الترتيب والتعقيب كما قلنا أي جعله علاقة فهيأه لما يصلح له، وعطف جملة (يسر) بـ (ثم) لأن ذلك مقتض وقتاً، ومعنى (السبيل يسره): سهل له الخروج من بطن أمه، وعطف (أمات) بـ (ثم) لأنه حيي زمناً، وعطف (أقبر) بالفاء لأن ذلك عقب الموت مباشرة^(٢).

أما الواو فليس لها معنى سوى الجمع والإشراك في الحكم بين المتعاطفين بها. والجرجاني صاحب نظرية النظم تنبه على قيمة هذا المبحث، قال: «اعلم أن العلم بما ينبغي أن يصنع في الجمل من عطف بعضها على بعض أو ترك العطف فيها والمحسوس

^(١) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٨.

^(٢) وكذا حروف العطف الأخرى، (أو) تفيد التعيير، (لا) تفيد النفي، (لكن) للاستدراك، (بل) للإضراب..

هما منثورة تستأنف واحدة منها بعد أخرى من أسرار البلاغة ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخالص والأقوام طُبعوا على البلاغة وأوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام هم بما أفرد»^(١).

أولاً: حالات الفصل بين الجمل:

والمراد الحالات التي لا يجوز أن يذكر حرف العطف فيها بين الجمل، اقرأ قوله تعالى: ﴿الْم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة / ٢-١]، فتلك أربع جمل كما يقول الزمخشري: (ألم) جملة برأسها، (ذلك الكتاب) جملة ثانية، (لا ريب فيه) جملة ثالثة، (هدى للمتقين) جملة رابعة. وقد جيء بها متناسقة هكذا من غير حروف نسق لمجيئها متأخية آخذاً بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة.^(٢)

ويمكن دراسة الفصل بين الجمل من خلال ثلاث حالات: (كمال الاتصال) و(كمال الانقطاع) و(شبه كمال الاتصال).

الحالة الأولى كمال الاتصال:

وهي أن يكون بين الجملتين اتحاد تام في المعنى، كأن تكون الثانية بياناً للأولى أو توكيداً لها أو بدلاً منها، وأنت تعرف في النحو أنه لا يعطف بين البيان والمبين، قال الشاعر:

أقسم بالله أبو حفص عمر

ولا يستقيم أن يقول (أقسم بالله أبو حفص وعمر)، ولا يعطف بين التوكيد والمؤكد كقولك (تحدثت إلى الملك ذاته) ولا يجوز أن تقول: (تحدثت إلى الملك وذاته)، قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر / ٣٠]، ولا يعطف

^(١) دلائل الإعجاز (تحقيق د. النابغة) / ١٥٦.

^(٢) الكشف ٢١/١.

بين البديل والمبدل منه قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة/ ٥-٦]، ولم يقل (الصراط المستقيم وصراط).

وسبب ما ذكره النحاة في ذلك أن العطف — في أصل معناه — يقتضي التغاير، ولا تغاير بين البيان والمبين أو التوكيد والمؤكد أو البديل والمبدل منه.

وفي الجمل أيضاً قد تكون الجملة الثانية بياناً للجملة الأولى، قال تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ [طه/ ١٢٠]، فجملة (قال) بيان لجملة (وسوس) وضحت الوسوسة وكشفت فحواها، ولو عطفت عليها لتغير المعنى ولصار القول شيئاً والوسوسة شيئاً آخر، فالبيان متحد بالمبين ولو توسط بينهما عاطف لكان كما تقول العرب: (بين العصا ولحائها) على رأي الزمخشري^(١).

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسْتَفِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون/ ٢١]، بيّنت جملة (نستفيكم) دلالة الجملة التي قبلها (إن لكم في الأنعام لعبرة).

قال زهير بن أبي سلمى:

نعم امرءاً هرمٌ لم تعرْ نائبةً إلا وكان لمرتاع لها وزراً
جملة (لم تعر نائبة) بيّنت جملة (نعم امرءاً هرم) وكشفت فحواها يعني أنه بمدحه من هذه الزاوية.

وقالت الخنساء:

أعيني جوداً ولا تجمداً (ألا تبكيان) لصخر الندى
وقد تكون الجملة الثانية توكيداً للأولى كما في قول المتنبي:
الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحلُ الثاني

(١) الكشف ١/ ١٥٤.

جاءت جملة (هو أول) تأكيداً للجملة التي اشتمل عليها الشطر الأول من البيت، والتوكيد والمؤكد بمنزلة الشيء الواحد لذلك لم يخرج معنى الجملة الثانية قط عن الأولى بل بقيت دائرة في فلكها.

تدبر قوله تعالى يتحدث عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة/ ١٤]، تجدد أن هؤلاء المنافقين يظهرون الإيمان إذا كانوا مع المؤمنين، وعندما يخلون بأسيادهم من اليهود وغيرهم يظهرون حقيقتهم ويقولون: نحن منكم نحن نستهزئ بالمؤمنين ونسخر منهم، جملة (إنما نحن مستهزئون) فصلت عن جملة (إننا معكم) لأنها تأكيد لها، ولا معنى لقولهم (إننا معكم) إلا أنهم يستهزئون بالمؤمنين.

وقل الكلام ذاته في قوله تعالى — والحديث عن النضر بن الحارث — ﴿وَإِذَا ثَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَانَ فِي أُذُنِهِ وَقَرَأَ﴾ [لقمان/ ٧]، فجملة (كان في أذنيه وقراً) أكدت جملة (كان لم يسمعها) لأن من لم يسمع بمنزلة من في أذنيه وقرع يمنعه من السماع.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء/ ٨١]، جملة (إن الباطل كان زهوقاً). أكدت المعنى في جملة (زهق الباطل).

قال ابن نباتة المصري:

لم يبق جودك لي شيئاً أو مله تركني أصحاب الدنيا بلا أمل
جاءت جملة (تركني) مؤكدة لجملة (لم يبق جودك) فوجب فصلها عنها، ولا ينبغي أن يخطر في بالك أن الشاهد جملة (أو مله) لأنك تعرف أنها صفة لـ (شيئاً).

وقد تكون الجملة الثانية بدلاً من الأولى، والبديل ثلاثة أضرب: المطابق مثل قولك (سيف الله خالد نصر الإسلام) والبديل جزء من كل مثل قولك (طفت المدينة شوارعها)، وبديل الاشتمال كما في قولك (هربي الخطيب بيائه).

هذا في المفرد، وهو جارٍ في الجمل، فقد مثلوا للمطابق منه بقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [الزمر: ٨١ - ٨٢]، فجملة (قالوا) الثانية بدل من (قالوا) الأولى وهو بدل مطابق، وآية هذا النوع من البدل أنك إذا حذف من العبارة المبدل منه لا يحتل المعنى، فمن الممكن تقدير الكلام (بل قالوا أئذا متنا) بحذف (قالوا) الأولى وهي المبدل منه.

ومن هذا قول الشاعر:

مَنْ تَأْتِنَا (تلمم) بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِحَا
ومثلوا للنوع الثاني (الجزء من الكل) بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِالْأَنْعَامِ وَبَيْنَ (١٣٣) وَجَنَّتِ وَعَيُْونِ﴾ [الشعراء: ١٣٢ - ١٣٤]، فجملة (أمدكم بأنعام وبنين) بدل جزء من كل من جملة (أمدكم بما تعملون)؛ لأن الأنعام والبنين والجنان والعيون بعض ما أمدهم به تعالى.

ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿يُذَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد / ٢]؛ لأن تفصيل الآيات جزء من تدبير الأمر، والله أعلم.

ومثلوا للنوع الثالث (بدل الاشتمال) بقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا﴾ [يس: ٢٠ - ٢١]، فجملة (اتبعوا من لا يسألكم) بدل من جملة (اتبعوا المرسلين) وهو بدل اشتمال لأن المرسلين يشتملون على هذه الصفة (عدم سؤال الأجر) وعلى غيرها.

وقد ورد في القرآن الكريم بعض آيات تشابهت ألفاظها ومعانيها، لكن جاءت جملتها تارة مفصولة عما قبلها وتارة موصولة بها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة / ٤٩]، فقال (يذبحون) دون عطف على (يسومون) لأن (يذبحون) بيان لـ (يسومون). بمعنى أن الذبح هو السوم لا غيره أو بدل منها بمعنى أن

التدليح جزء من سوم العذاب، والعلة أن هذا الخطاب من قِبَلِ الله عز وجل فلم يرد أن يعدّد المحن عليهم رأفة بهم.

وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم/ ٦]، فعطف (يدبحون) على (يسومون) خلافاً لما جاء في الآية السابقة لأن الذبح هنا كان أوفى من العذاب وزاد عليه زيادة ظاهرة فكأنه شيء آخر غير العذاب، والعطف كما قلنا يقتضي المغايرة، ولأنه أيضاً من كلام موسى عليه السلام، فعّد المحن عليهم لأنه كان مأموراً بذلك تخويفاً لهم بقوله تعالى قبل الآية: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم/ ٥].^(١)

الحالة الثانية: كمال الانقطاع:

وهو أن يكون بين الجملتين تباين تام كأن تختلفا خبراً وإنشاء.

فتكون الأولى خبرية والثانية إنشائية كما في قول الشاعر:

لستُ مستمطراً لقبرك غيثاً كيف يظمما وقد تضمّن بحراً

فالجملة الثانية (كيف يظمما) إنشائية (استفهام)، والجملة الأولى (لست مستمطراً) خبرية؛ فوجب الفصل لكمال الانقطاع بينهما.

وكذا في قول النابغة:

ولست بمستبقٍ أحالاً تلمّه على شعث (أي الرجال المهذب؟)

أو تكون الأولى إنشائية والثانية خبرية كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات/ ١]، فجملة (إن الله شميع) خبرية، وجملة (اتقوا) إنشائية (أمر) لذلك لم تعطف الثانية على الأولى.

^(١) انظر كتاب فنّ البلاغة ص ٢٦٢.

قال الشاعر:

لا تحسب الحمد ثمراً أنت أكله لن تبلغ الحمد حتى تلحق الصبرا
جملة (لن تبلغ) خبرية وجملة (لا تحسب) إنشائية (هي) فوجب الفصل بينهما،
ولا تظن أن الشاهد جملة (أنت أكله) لأنها صفة لـ (ثمراً).

ومثله قول الآخر:

لا تطلب الحمد إن الحمد سلمه صعب وعش مستريحاً ناعم البال
جملة (إن الحمد سلمه صعب) خبرية والتي قبلها إنشائية (هي) فلم تعطف عليها.
ويتبع هذه الحالة (كمال الانقطاع) ما لا رابط فيه بين الجمل أو لا مناسبة في
المعنى، فيجب الفصل عندئذ كما في قولك (أحب العلم، لن يأتي زيد) إذ لا علاقة بين
محبتي للعلم وإتيان زيد.

الحالة الثالثة: شبه كمال الاتصال:

وهو أن تصلح الجملة الثانية جواباً على سؤال صريح أو مفهوم من الجملة الأولى
فتنزل الأولى منزلة السؤال فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال في مثل
قولك: (من تكرم؟ أكرم زيدا).

قال تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ ﴾ [الذاريات/ ٢٨]،
والحديث هنا عن إبراهيم — عليه السلام — عندما جاءه ضيوفه من الملائكة، فأنت
بعدما تقرأ الجملة الأولى (فأوجس منهم خيفة) تشعر أنها تحمل سؤالاً (ماذا قالوا حين
رأوا لونه قد تغير) فيأتيك الجواب (قالوا لا تخف)، فالجملة الثانية فصلت عن الأولى
لأنها جواب على السؤال فيها، وهو ما يسمى شبه كمال الاتصال.

ويسمى هذا الفصل استئنافاً وأمثلة في القرآن كثيرة منها قوله تعالى ﴿ قَالُوا سَلَاماً قَالَ
سَلَامٌ ﴾ [هود/ ٦٩]، فصلت جملة (قال) عن جملة (قالوا) لأنها جواب عن سؤال (فماذا قال).

وقد ذكر الجرجاني رحمه الله أن كل ما في القرآن من (قال) بلا عاطف مقدّر

على هذا الاستئناف^(١)، ومثل له بقوله تعالى ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنْ أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء/ ٢٣ — ٣١].

ومنه قول الشاعر:

زعم العواذل أنني في غمرة صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

كأنه سئل بعد جملة الشطر الأول (هل صدقوا) فجاء الجواب (صدقوا...)

وقول الشاعر:

يقولون إني أحمل الضيم بعدهم أعوذ بربي أن يضام نظيري

كأن سئل بعد قوله (إني أحمل الضيم) أصدقوا أم كذبوا فيأتي الاستئناف (أعوذ بربي) أي (كذبوا) وهذا معروف في كلامنا. يسألك القاضي مثلاً: هل ارتكبت ذلك الإثم؟ فتجيب (أعوذ بالله) أي لم أرتكب.

ومن الاستئناف ما يأتي بإعادة اسم من استأنف عنه مثل قولك: (أحسن إلى زيد، زيد، زيد) حقيق بالإحسان) بإعادة اسم (زيد) مرفوعاً على الابتداء وجملة مفصلة لشبه كمال الاتصال وتقدير السؤال: (لماذا أحسن إليه؟).

ومنه ما يبنى على صفة المستأنف عنه كقولك: أحسن إلى زيد، صديقك القديم أهل لذلك. وهو أبلغ كما يقول القزويني^(٢).

(١) دلال الإعجاز تحقيق د. الدابة ص ١٦٩.

(٢) التلخيص ص ١٨٩.

قال أبو العلاء المعري:

وقد عرضتُ على الدنيا فهل زمني معطرٌ حياتي لغيري بعدما عرضا
جربتُ دهري وأهليه فما تركتُ لي التجاربُ في ودّ امرئٍ غرضاً
فإنه حين أبدى شكايه الزمن حمل السامع على سؤال (ماذا تشكو منه أو لماذا
استحق الشكايه؟) فقال: (إني جربت دهري).

واعلم أن البلاغيين يجعلون من حالات الفصل التي ذكرتها لك حالة تسمى شبه
كمال الانقطاع، وهي أن يكون ثمة جملة مسبقة بجملتين يجوز عطفها على الأولى
منهما ولا يجوز عطفها على الثانية، فيترك العطف لثلاث يظن أنها معطوفة على الثانية،
ومثالهم قول الشاعر:

وتظنّ سلمى أنّي أبغيها بدلاً أراها في الضلال هممُ
قالوا: في هذا البيت ثلاث جمل (تظن) و(أبغي) و(أراها) ولا مانع من عطف
الأخيرة (أراها) على الأولى (تظن)، ولكن عطفها على الثانية (أبغي) لا يجوز لأنه غير
مراد أصلاً، فلا معنى لقوله (أبغي بدلاً وأراها)، ولم أذكر لك هذه الحالة لندرة
الشواهد عليها.

ويجعل البلاغيون من حالات الفصل أيضاً ما يسمى (التوسط بين الكمالين) وهو
ألا يراد إشراك الجملة الثانية مع سابقتها في الإعراب لأن ذلك يغير المعنى، ويمثلون لهذه
الحالة بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ
(١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة/ ١٤]، فلو عطف (الله يستهزئ) على جملة (إنما)
نحن مستهزون) لصارت الجملة الثانية (الله يستهزئ) داخلة في كلام المنافقين وهذا
بالطبع غير مراد.

ولم أذكر لك هذه الحالة أيضاً لإمكان إدراجها تحت حالة الوصل بين الجملتين
لإشراكهما في حكم إعرابي واحد الآتية بعد قليل والتي ستعرف فيها أنه إن لم يُرد

الإشراك فالفصل واجب، والمثال الذي سأذكره لك هو ذات المثال (الله يستهزئ بهم).

ثانياً: حالات الوصل بين الجمل:

المقصود الحالات التي يجب فيها العطف بين الجمل وهي ثلاث أيضاً:

الأولى: إذا قصد المتكلم إشراك الجملتين في حكم إعرابي واحد كأن تقول
عرفت رجلاً يحبه الناس ويحترمونه) فأنت عطفت جملة (يحترمونه) على جملة (يحبه)
لأنك أردت أن تكون هي أيضاً صفة لـ (رجلاً)، ومعلوم لديك أن حال الجملة هنا
حال المفرد لأن الجملة ذات المحل من الإعراب تؤول بمفرد.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد/ ٢٦]، عطفت
جملة (يقدر) على جملة (يبسط) لأن المراد إشراكهما بحكم إعرابي واحد فالثانية
بمنزلة الخبر أيضاً للفظ الجلالة، وتقدير الكلام (الله باسط وقادر).

قال الشاعر مادحاً:

وما زلتَ مذ كنتَ تولي الجميلَ ونحني الحريمَ وترعى النسبَ
عطف جملة (نحني) و(ترعى) على جملة (تولي) وهي خير (ما زلت) فأشرك
الجمل بإعراب واحد. قال الرسول عليه الصلاة والسلام «إنكم لتكثرون عند الفزع
وتقلون عند الطمع» عطف جملة (تقلون) على (تكثرون) لذات السبب.

هذا وإن لم يكن المراد التشريك في الحكم الإعرابي بين الجملتين تُرك العطف
ووجب الفصل نحو قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (١٤) الله يستهزئ بهم
لم تعطف الثانية على الأولى لأنها ليست من مقول المتألفين.

الثانية: إذا اتفقت الجملتان المعطوف بينهما خيراً وإنشاء أي كانتا خبريتين كما
في قولك: (أسعى وراء العلم وأجلّ أهله) فجملة (أجلّ) خبرية مثل جملة (أسعى)
لذلك وجب الوصل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ

[الانشطار/ ١٣ — ١٤]، وفي الحديث الشريف «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ» عطف جملة (ومن كان) الثانية على (من كان) الأولى لأهمها خبريتان.

ومن أمثلة ذلك قول الخنساء في أخيها:

وإن صخرأ لواليننا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشئتو لنحسارُ
وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نارُ
أو كانتا إنشائيتين كقولك (اتبع الفضيلة واجتنب الرذيلة) فجملة (اجتنب) إنشائية وجملة (اتبع) إنشائية أيضاً فوجب الوصل لاتفاقهما إنشاءً.

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَثْتَ وَزَوْجَكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة/ ٣٥]، عطف جملة (كُلَا) على جملة (اسكن) لأهمها إنشائيتان.

وجاء في الحديث «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن يخوف الله بهما عباده، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم»، عطف جملة (ادعوا) على جملة (فصلوا) لاتفاق الجملتين إنشاءً.

قال الشاعر:

وأدن إلى القرى المقرَّب نفسه ولا تُشهد الشورى امرأ غيرَ كاتم
عطف (لا تشهد) على جملة (أدن) لأهمها إنشائيتان.

وقل الكلام نفسه في قول الشاعر:

(فلينك تخلص) والحياة مريرة و(ليتك ترضى) والأنام غضاب
ولا بد في حالة الوصل هذه أن يكون بين الجملتين مناسبة في المعنى أو خيط يربط بينهما، فلا معنى لقولك مثلاً (أقلقني غياب أخي وفاز خالد بالجائزة) علماً أنهما خبريتان لكن ما من مناسبة تجمع بينهما.

والبلاغيون يعيرون أبا تمام في قوله:

والذي هو عالم أن النوى صبر وأن أبا الحسين كريم

لما ذكرته لك من غياب المناسبة فلا رابط بين كرم أبي الحسين ومرارة النوى.

الثالثة: إذ اختلفت الجملتان خيراً وإنشاءً وأوهم الفصل خلاف المقصود، كقولك لمن سألك عن صحة أبيك المريض: هل تحسنت صحة أبيك؟ فتقول له (لا وعافاك الله) فإن حرف العطف في جوابك لا بد منه لأن حذفه (لا عافاك الله) يوهم بخلاف المراد، أنت تريد أن تدعو له وعبارتك توهم بأنها دعاء عليه، والجملتان مختلفتان؛ فالأولى التي تمثلها (لا) معناها (لم تتحسن صحة أبي) فهي خبرية، والثانية (عافاك الله) دعائية إنشائية، وكان الفصل بينهما أول كما عرفت قبل قليل فبينهما (كمال انقطاع) إلا أنه عطف بينهما لثلاث يتوهم عكس المراد.

والبلاغيون لا يكادون يذكرون لهذه الحالة إلا مقالين اثنين، الأول ذكره الجاحظ وهو أن أبا بكر — رضي الله عنه — مرّ برجل معه ثوب فسأله أتبيع الثوب؟ فقال الرجل: لا عافاك الله، وهو يريد أن يدعو له لا عليه، فنبهه أبو بكر على موطن خطئه وقال له: لقد علمتم لو كنتم تعلمون، قل: لا وعافاك الله^(١).

والثاني ذكره السيوطي وهو أن المأمون سأل اليزيدي عن شيء فقال اليزيدي: لا وجعلني الله فداءك، فقال المأمون: لله درك ما وضعت الواو موضعاً قط أحسن منها هنا^(٢).

* * *

(١) البيان والتبيين، ٣ / ٢٦١.

(٢) شرح عقود الجمان / ٦٣.

الجملة الحالية

لما كانت الجملة الواقعة حالاً تارة تدخلها الواو كقولك (لا تغير النهر وأنت لا تجيد السباحة)، وقول جميل:

أتى (وهو مشغول) لعظم الذي به ومن بات طول الليل يرعى السُّهاسها
وتارة لا تدخلها الواو كقولك (جاء زيد يسرع) فجملة (يسرع) الحالية لم تتصل
بالواو، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ [القيامة/ ٣٣].

أقول لما كانت جملة الحال كذلك ألحقها علماء البلاغة ببحث الفصل والوصل
الذي نحن بصده، وقد اهتموا في ذلك بسراج صاحب نظرية النظم الذي تحدّث عنها
وبيّن الحالات التي تتصل فيها بالواو والحالات التي لا تحتاج فيها إلى واو.
وهذه الواو هي واو الحال لكن هذه التسمية لا تُخرجها عن أن تكون مجتلبة لضم
جملة إلى جملة كواو العطف في هذا المبحث.

تعرف أن جملة الحال في العبارة العربية لا بد من أن تشتمل على ضمير يعود على
صاحب الحال كقولك (أقبل زيد يزهو بنفسه) فجملة (يزهو) فعلية يعود الضمير فيها
على زيد صاحب الحال، وقول الشاعر:

متى تأتبه تعشوا إلى ضوء ناره تجدّ خير نار عندها خير موقد
جملة (تعشوا) فيها ضمير مستتر يعود على صاحب الحال فاعل (تأته).

فإن لا يكن فيها ضمير فلا بد لها من الاقتران بواو الحال كقولك: (زارني والفجر
لم يبرز). وقول الشاعر:

كَأَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ وَ(الفجر ضاحك) يَلُوحُ وَيَخْفَى أَسْوَدُ يَتَبَسَّمُ

ولا اقتران جملة الحال بالواو وخلوها منها حالات يمكن أن توجز فيما يلي:

* إذا كانت الجملة الواقعة حالاً فعلية فعلها مضارع مثبت (غير منفي) لم تقترن بالواو كقولك (جئت [أسعى] إلى الصلح)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [الدثر/ ٦].

قال المتنبى:

مالي (أكرم) حباً قد برى جسدي وتدعي حباً سيف الدولة الأمم

* إذا كانت اسمية مصدرية بضمير منفصل وجب اقترانها بالواو كقولك (ألقي) القبض على اللص [وهو يسرق]، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أُنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ٢٢]. قال الشاعر:

لا تبخلن بدنيا و(هي مقبلة) فليس ينقصها التبذير والسرف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمدُ منها إذا ما أدبرت خلف

* إذا تقدم الخبر على المبتدأ في الجملة الاسمية الواقعة حالاً كثر أن تجيء بغير واو، وقد مثل عبد القاهر الجرجاني — رحمه الله — لهذا النوع بقول بشر:

إذا أنكرتني بلدة أو نكرتها خرجت مع البازي (علي سواد)

جملة (علي سواد) حالية اسمية تقدم الخبر فيها (علي) على المبتدأ (سواد)، ومنه قول الآخر:

لقد صبرت للذل أعواد منير تقوم عليها (في يدك قضيب)

ومن يجيء هذه الجملة (التي تقدم فيها الخبر) بالواو قول زهير:

ذكرت سلمى وما ذكرى براجعها و(دونها سبب) يهوي به المور

وكذا إذا تقدمت الجملة أداة مثل (كأنما) في قول الفرزدق:

فقلت عسى أن تبصريني كأنما (بني حواري الأسود الحوارد)

يقول الجرجاني معلقاً لو أنك تركت (كأن) فقلت: عسى أن تبصريني بني حوالي
كالأسود رأيت لا يحسن حسنه الآن ورأيت الكلام يقتضي الواو كقولك عسى أن
تبصريني وبني حوالي كالأسود^(١).

* إذا كانت الجملة الواقعة حالاً فعلية فعلها ماضٍ، وهو لا يقع حالاً إلا مع (قد)
ظاهرة أو مقدرة فإنها تجيء بالواو وبغير الواو كقولك (لقيته قد انتابه الحزن) أو (لقيته
وقد انتابه الحزن) قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اَلَيْسَ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾
[آل عمران / ٤٠]. قال الشاعر:

فآبُوا بِالرِّمَاحِ مَكْسَرَاتٍ وَأُنْصَا بِالسَّيُوفِ قَدْ انْخَبَتْ
جملة (قد انخبت) فعلية فعلها ماضٍ وهي مصدرية بـ (قد) وغير مقترنة بالواو
كما ترى.

ومثال (قد) المقدرة قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ بَصَائِعُهَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ [يوسف / ٦٥]،
أي (وقد ردت إلينا).

وكذا إذا كانت الجملة الحالية بعد (إلا) كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ
قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴾ [الشعراء / ٢٠٨]، جملة (لها منذرون) جاءت بعد (إلا) غير
مقترنة بالواو، وفي قول الشاعر:

وَأَنْتِ الَّتِي مَا مِنْ صَدِيقٍ وَلَا عَدَا يَرَى نَضُوءَ مَا أَبْقَيْتِ إِلَّا (رثى ليا)
ومثال اقترانها بالواو قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾
[الحجر / ٤].

(١) دلائل الإعجاز (تح. د. الداية)، ص ١٥٠.

تدريبات محلولة

السؤال الأول: دلّ على مواطن الفصل في الأمثلة الآتية واذكر السبب:

١— قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة/ ٦].

الجواب: جملة (لا يؤمنون) فصلت عن جملة (سواء عليهم أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) لأنها تؤكد لها وبينهما كمال اتصال.

٢— قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَكَسَى مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف/ ٥٧].

فصلت جملة (إنا جعلنا) عن جملة (ومن أظلم) لاختلافهما خيراً وإنشاءً، فالأولى (ومن أظلم) إنشائية، والثانية (إنا جعلنا) خبرية فبينهما كمال انقطاع.

٣— قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا [الكهف/ ٦٦ — ٦٧].

فصلت جملة (قال إنك) عن جملة (قال له موسى) لأنها تصلح جواباً على سؤال مقدر بعد الأولى (ماذا قال له الخضر؟) فالجواب (قال إنك لن تستطيع) فبينهما شبه كمال اتصال.

٤— حكمُ المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

فصلت جملة الشطر الثاني عن جملة الشطر الأول لأنها تؤكد لها ولأن جريان حكم الموت على الخلق معناه أن الدنيا ليست دار بقاء، فبين الجملتين كمال اتصال.

٥- قال تعالى: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح/ ١٠].

فصلت جملة (إنه كان غفارا) عن جملة (استغفروا) لأن الأولى (استغفروا) إنشائية فيها أمر، والثانية (إنه كان) خبرية فبينهما كمال انقطاع.

٦- ونحن أناس لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

فصلت (لنا الصدر) عن جملة (لا توسط بيننا) لأنها بيان لها فبينهما كمال اتصال.

٧- ولست بخائى أبداً طعاماً حذار غداً لكل غدا طعام

فصلت جملة (لكل غدا طعام) عن جملة (لست بخائى...) لأنها بمنزلة الجواب عن سؤال مؤاده (لماذا لا تدخر طعاماً لغدا) الجواب (لكل غدا طعام) وهذا لأن بينهما شبه كمال اتصال.

السؤال الثاني: دل على مواطن الوصل في الأمثلة الآتية واذكر السبب:

١- قال تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً ﴾ [الكهف/ ٨٤].

الجواب: عطفت جملة (آتيناها) على جملة (مكننا له) لإرادة إشراكهما بحكم إعرابي واحد، فالثانية بمنزلة الخير.

٢- في الحديث الشريف: «أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تحن من خانك».

عطف (لا تحن) على (أد) لاتفاقهما إنشاء فالأولى أمر والثانية (لا تحن) نهي.

٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة/ ٢٢٢].

عطفت (يحب المتطهرين) على (يحب التوابين) لإرادة إشراكهما بحكم إعرابي واحد.

٤- العقل زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثارا

عطفت جملة (السكوت سلامة) على سابقتها لاتفاقهما في الخبرية.

٥- إنما الدنيا متاع زائل فاقتصد فيه وخذ منه ودع

وارض للناس بما ترضى به وأتبع الحق فنعمة المتبوع
وابغ ما اسطعت عن الناس الغنى فمن احتاج إلى الناس ضرع
عطف الجملة: (خذ) و(دع) و(ارض) و(اتبع) و(ابغ) لأنها جميعاً جمل إنشائية
مؤادة بأسلوب الأمر كما ترى.

٦- ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم
عطف جملة (من الصداقة ما يضر) على جملة (من العداوة ما ينالك) لاتفاقهما
خبراً أي أن كلا منهما جملة خبرية.

السؤال الثالث: ميز الجمل الحالية في الأمثلة الآتية وبين حكم اقتراها بالواو:

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَايِرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة/ ١٨٧].

جملة (أنتم عاكفون) حالية وجب اقتراها بالواو لأنها مصدرية بضمير منفصل
(أنتم).

٢- يمشون قد كسروا الجفون إلى الوغى متبسمين وفيهم استبشـارُ
جملة (قد كسروا) حالية يجوز اقتراها بالواو وعندها لأنها فعلية فعلها ماضٍ مصدر
بقدر.

٣- ما لاح برقٌ أو ترَّسم طائرٌ إلا انتنيتُ ولي فؤادٌ شقيقُ
جملة (انتنيت) حالية يجوز اقتراها بالواو وعندها لوجود إلا.

٤- قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [الكهف/ ٣٥].

جملة (هو ظالم لنفسه) حالية وجب اقتراها بالواو لأنها مصدرية بضمير منفصل (هو).

٥- لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاءُ الطفل ساعةً يولدُ
إذا أبصر الدنيا استهلَّ كأنه بما سوف يلقي من أذاها يُهددُ
جملة (كأنه) بما سوف يلقي يهدد) حالية يكثر أن تجيء بغير الواو لوجود (كأن).

تدريب يُطلب حلّه

— دل على مواطن الفصل والوصل فيما يلي، واذكر السبب:

١— قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل/ ١٢٧].

٢— وغدرُ الفتى في عهده ووفائمه وغدرُ المواضي في نبو المضارب

٣— يرى البخيل سبيلَ المال واحسدة إن الكريم يرى في ماله سببلا

٤— قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرْوُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل/ ٧٩].

٥— «الأرواح جنود مجنّدة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف».

٦— لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

٧— (يا معشر بكر! هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر).

٨— قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه/ ٧١].

٩— قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا [الكهف/ ٦٦ — ٦٧].

١٠— أيا من يشتري سَهراً بنوم سعيد من يبيت قريراً عين

١١— عاجلوا الحكمة واستشفوا بها وانشدوا ما حلّ منها في السر

١٢— أفاضلُ الناس أغراضُ لذا الزمّين يخلو من همّ أخلاهم من الفطن

الفصل الخامس

الإيجاز والإطناب والمساواة

أولاً: الإيجاز — إيجاز القصر — إيجاز الحذف.

ثانياً: الإطناب — الإيضاح بعد الإبهام — ذكر الخاص بعد العام —

ذكر العام بعد الخاص — التأكيد — التكرار — الإيغال —

التذييل — الاحتراس — التتميم — الاعتراض.

ثالثاً: المساواة.



الإيجاز والإطناب والمساواة

أولاً: الإيجاز

الإيجاز مصدر فعل أوجز بمعنى قصر، والكلام الوجيز هو الكلام القصير، وفي الاصطلاح البلاغي أن يكون اللفظ أقل من المعنى مع الوفاء بالمعنى (وإلا كان إخلالاً يفسد الكلام) أو كما قال الرماني: البيان عن المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ^(١).

ويُعدّ الرماني المتوفى ٣٨٦ هـ أول من تحدث عن الإيجاز حديثاً بلاغياً في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) وهو الذي قسمه إلى فرعيه المعروفين بإيجاز القصر وإيجاز الحذف.

أ- إيجاز القصر: وهو الكلام القليل الذي يحمل معنى كثيراً من غير حذف، أو هو تضمين الألفاظ القليلة معاني كثيرة من غير حذف، وقد فسّرت جوامع الكلم في الحديث (أوتيت جوامع الكلم) بأنها اجتماع المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع حسن البيان والقدرة على الإيصال بأقرب طريق.

وأمثلة الإيجاز بالقصر كثيرة في القرآن الكريم وفصيح العرب، تدبر قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف / ١٩٩]، والخطاب للنبي عليه السلام، تجد أن الله جمع بهذه الأوامر الثلاثة (خذ) و(أمر) و(أعرض) معاني كثيرة، ففي (خذ العفو) بيان لصلة القاطعين والعفو عن المذنبين والرفق بالمؤمنين، ويدخل فيه التخلص مع الناس بالخلق الحسن وترك الفظاظ في التعامل معهم أي أنه جمع في هذه

(١) النكت في إعجاز القرآن / ٧٤.

الآية كل مكارم الأخلاق.

وفي (وأمر بالمعروف) صلة للأرحام وتودّد إلى الناس وزرع الفضيلة بينهم.

وفي (وأعرض عن الجاهلين) أمر بالصبر والحلم وتنزيه للنفس عن مقابلة سفيه الناس بالسفه.

ومن هذا النوع من الإيجاز قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات / ٣٠ - ٣١]، يقول الجاحظ: إن القرآن جمع بقوله (أخرج منها ماءها ومرعاهها) الشجر والملح واليقطين والبقل والعشب فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح وكل ذلك مرعي ثم قال على النسق (متاعاً لكم ولأنعامكم) فجمع بين الشجر والماء والكأ والماعون كله لأن الملح لا يكون إلا بالماء ولا تكون النار إلا من الشجر^(١).

ومن أوضح الأمثلة هنا قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة / ١٧٩]. أي ولكم في عقاب القصاص القائم على المماثلة لفعل الجاني حياة آمنة بدلاً من عادة الأخذ بالنار؛ لأن القاتل إذا علم أنه سيقتل ارتدع.

وقد كانت العرب تقول في هذا المعنى (القتل أنفى للقتل) إلا أن بين الآية وعبارة العرب تفاوتاً في البلاغة والفصاحة من جهات:

الآية أكثر في الفائدة ففيها كل ما في قولهم (القتل أنفى للقتل) وزيادة معان حسنة كإبانة العدل لذكره القصاص وإبانة الغرض المرغوب فيه لذكره الحياة والاستدعاء بالرغبة والرغبة لحكم الله به.

والآية أوجز فإن الذي هو نظير (القتل أنفى للقتل) قوله (القصاص حياة)

والأول أربعة عشر حرفاً، والثاني عشرة أحرف.

والآية خالية من التكرار الذي فيه على النفس مشقة فإن في قولهم (القتل أنفى

(١) البيان والتبيين ٣ / ٣٣.

للقتل) تكراراً غيره أبلغ منه، ومتى كان كذلك فهو مقصّر في باب البلاغة.

والآية حروفها متلازمة وتأليفها حسن وهو مدرك بالحس وموجود في اللفظ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام (في القصاص) أعدل من الخروج من اللام إلى المهمزة (القتل أنفى) لبعد المهمزة من اللام، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء (القصاص حياة) أعدل من الخروج من الألف إلى اللام (أنفى للقتل) فاجتماع هذه الأمور صار ما في الآية أبلغ مما في العبارة، وإن كان قولهم بليغاً حسناً^(١).

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الرحر / ٧١] — والحديث عن الجنة — فإن كل ما يخطر في بالك من الطيبات والملاذات للروح والجسد تجده في هذه الآية.

ومن كلام البلغاء الذي يندرج تحت إيجاز القصر قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة له (اعلموا أن أكيس الكيس التقى وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أفواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق، أيها الناس إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني وإن زغت فقوموني^(٢)).

وقول عبد الله بن مسعود (خير الأمور أوساطها وشرّ الأمور محدثاتها، ما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، خير الغنى غنى النفس، وخير ما أُلقي في القلب اليقين^(٣)).

ب — إيجاز الحذف: وهو الكلام القليل الذي يحمل معنى كثيراً بحذف شيء من العبارة، قد يكون حذفاً لحرف أو لكلمة أو لشبه جملة أو لجملة، بل قد يكون حذفاً لأكثر من جملة، ولا بد في هذا النوع من الإيجاز من وجود قرينة تفصح عن المحذوف وتشير إليه.

^(١) يتصرف من كتاب النكت في إعجاز القرآن / ٧١ — ٧٢.

^(٢) إعجاز القرآن للباقلاني / ١٣٧.

^(٣) نفسه / ١٤٧.

حذف الحرف: كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ [يوسف / ٨٥]، أي لا تفتأ، وفي هذا الحذف إشعار بسرعة الوصول إلى الفعل، وليس المحذوف مما يخفى أمره على السامع.

وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء / ٣١]، أي لئلا فحذف (لا) واللام^(١). ومنه قول امرئ القيس:
فقلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي
أي لا أبرح.

حذف المضاف: كما في قوله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ [الحج / ٧٨]، أي في سبيل الله غير أن هذا الحذف جعل الغاية من الجهاد قريبة إلى السامع واضحة في نفسه يدركها بسرعة، ويمكن أن يكون من هذا قوله تعالى: ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ﴾ [يوسف / ٨٢]، أي واسأل أهل القرية، فحذف اللفظ المضاف (أهل)، والعقل يدل على المحذوف.

وكذا قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ [الرعد / ١٧]، أي يضرب الله مثل الحق ومثل الباطل، وقد جاء الحذف هنا إيجازاً واختصاراً، ومعلوم لدى السامع أن الله لم يرد ضرب الحق أو ضرب الباطل، وإنما أراد ضرب المثل لكل منهما.

حذف المضاف إليه: أكثر حالات حذفه في القرآن، عندما يكون مع المنادى المضاف كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُخَيِّمُ الْمَوْتَى ﴾ [البقرة / ٢٦٠]، فحذف المضاف إليه (باء المتكلم) من كلمة (رب) المنادى.
ومثله قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود / ٤٥].

ويحذف المضاف إليه بعد لفظي (قبل) و(بعد) المبتدئين على الضم كما في قوله

(١) انظر الكشف ٢ / ٢٧١.

تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم/ ٤]، وكذا في تصديرهم لخطبهم
بـ: أما بعد.

حذف الصفة: كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش/ ٤]، أي من جوع شديد وآمنهم من خوف عظيم. وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مُلْكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف/ ٧٩]، أي سفينة صحيحة بدليل قوله قبله (فأردت أن أعيها) فإنه يدل على أن الملك كان يأخذ الصحيحة، وعدّ البلاغيون من هذا النوع قول الشاعر:

كُلَّ امْرِئٍ سَتَيْمٌ مِنْهُ الْعَرَسُ أَوْ مِنْهَا يَتِيمٌ

أي كل امرئ متزوج، والمعنى إما أن يموت الرجل فتبقى امرأته أيتما، وإما أن تموت امرأته فيبقى هو أيتما.

حذف الموصوف: كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفرقان/ ٧١]، أي وعمل عملاً صالحاً، قال البحري في وصف إيوان كسرى:
وإذا مارأيت صورة أنطاكية ارتفعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شر وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على أصفى أصفى يختال في صبيغة ورس
يريد على فرس أصفر وهذا مفهوم من قرينة الحال.

حذف الشرط: كما في قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران/ ٣١]
وتقدير الم حذف: (إن تتبعوني)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم/ ٣١] أي إن قلت لهم أقيموا يقيموا.

حذف جواب الشرط: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ
أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد/ ٣١]، والتقدير:

لكان هذا القرآن^(١). ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ ﴾ [آل عمران/ ١٠٦]، والتقدير فيقال لهم أكفرتم لأن أَمَا شرطية تفصيلية
كما تعرف.

حذف المبتدأ والخبر والمفعول: مر ذكره في أحوال الإسناد والمتعلقات^(٢).

حذف الحال: كما في قوله تعالى: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ
(٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد/ ٢٣ - ٢٤]، والتقدير: (يدخلون عليهم
قائلين سلام عليكم).

حذف شبه الجملة: كما في قوله تعالى: ﴿ فَأَقْصِرْ مَا آتَى قَاضٍ ﴾ [طه/ ٧٢]، أي
ما أنت قاض به، وفي هذا الحذف قطع لكل نقاش مع فرعون وحسم لكل تردد.

حذف الجملة: كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا ﴾ [البقرة/ ٦٠]، أي فقلنا اضرب
بعصاك الحجر فاضرب فانفجرت، فالمحذوف جملة (فضرب) الفعلية.

حذف أكثر من جملة: وهو نادر في كلام البلغاء كثير في القرآن الكريم كما في
قوله تعالى: ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ [يوسف/
٤٥ - ٤٦]، أي (فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا ففعلوا وأتاه فقال له: يوسف
أيها الصديق). فانظر إلى المحذوف تجد أنه أكثر من جملة (أستعبره) (فعلوا) (أتاه)
(فقال) وهذا لا يستطيعه البليغ مهما كانت درجة بلاغته.

وكثيراً ما تجد مثل هذا النوع من الحذف (أكثر من جملة) في قصص القرآن
الكريم، اقرأ قصة الخلق في الآيات الآتية: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي
الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

(١) انظر سر الفصاحة / ٢١٠.

(٢) انظر من هذا الكتاب الصفحة ١٣١ وما بعدها.

بِحَمْدِكَ وَنَقَدَسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَغْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿البقرة / ٣٠﴾، تجد أن المحذوف عدة جمل ويمكن أن يكون كما يلي: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة» فخشوا أن يفسد الخليفة في الأرض، فتوجهوا إلى ربهم «قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» فعلم بذلك جهلهم ببواطن الأمور وأنهم يقيسون كلامهم على ما رأوه ممن كان قبل آدم من الجن فلما كان ذلك منهم (قال إني أعلم ما لا تعلمون)^(١).

^(١) انظر كتاب الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز، د. مختار عطية / ٤٠٠.

ثانياً: الإطناب

وهو مصدر فعل أطنب، يُقال أطنبت الريح إذا اشتدت في غبار، وأطنبت الإبل إذا اتبع بعضها بعضاً في السير. وفي اللسان أطنب في كلامه إذا بالغ فيه. والإطناب في اصطلاح البلاغيين هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أو ساط البلقاء لفائدة تقويته وتوكيده على حد قول السكاكي^(١).

وينبغي أن نفرق بين الإطناب وبين الحشو والتطويل، فالإطناب بلاغة وليس التطويل كذلك، قال أبو هلال العسكري: الإطناب بلاغة والتطويل عي لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نـزـه يحتوي على زيادة فائدة^(٢).

ولما كان للإطناب والإيجاز قبله فوائد بلاغية جمة قالوا في تعريف البلاغة إنها إيجاز من غير خلل أو إطناب من غير خطل.

وثمة أسباب تدفع المتكلم إلى سلوك الإطناب في كلامه منها: تثبيت المعنى في نفس السامع أو المخاطب، ومنها توضيح المراد، ومنها التوكيد ودفع الإيهام ومنها غير ذلك، وهي على أنواع:

١- الإيضاح بعد الإيهام: وذلك ليتمكن في النفس أكثر، فإن المعنى إذا أُلقي على سبيل الإجمال والإيهام تشوقت النفس إلى معرفته مفصلاً كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ [الحجر / ٦٦]، أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر المقضي فيه وهو إهلاك قومه، فقوله (أن دابر هؤلاء

(١) مفتاح العلوم / ٢٧٧.

(٢) كتاب الصنائع / ٢٢١.

مقطوع مصباحين) إيضاح للإمام الذي تضمنه لفظ (الأمر).

ويتبع هذا النوع من الإطناب التوشيع وهو أن يُؤتى في عجز الكلام بمثنى مفسّر باسمين، أحدهما معطوف على الآخر كقولك: (اجتمع في عمر بن الخطاب خصلتان: الشجاعة والفصاحة)، فلفظ (خصلتان) جاء في عجز الجملة الأولى ثم فسّر بلفظين معطوف ثانيهما على أولهما وهما (الشجاعة والفصاحة).

ومن لطيف ما قرأت من هذا النوع قول أسامة بن منقذ في مدح صلاح الدين:

فأنت إسكندر الدنيا بنورك قد	تضاءل المظلمان: الظلم والضرر
أعدت للدهر أيام الشباب وقد	أظلم المهرمان: الشيب والكبر
وجاد غيث نداء المسلمين فمن	سحابه المغنيان: الدر والبدر
وسرت سيرة عدل في الأنعام كما	قضى به الصادقان: الشرع والصور
وجود كف إذا اخلت تفرق في	تيارها الزاحران: البحر والمطر
مكارم جمعت فيه توافق في	تفصيلها الأكرمان: الخير والخير

٢- ذكر الخاص بعد العام: ويؤتى به للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام، قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة/ ٢٣٨]، فخصّ الصلاة الوسطى وهي صلاة العصر بالذكر لزيادة قدرها ومعرفة فضلها. وقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران/ ١٠٤]، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر داخل في الخير لكن الله خصّهما لفضلهما.

٣- ذكر العام بعد الخاص: وهو لإرادة العموم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة/ ٧٨]، ألا ترى أن قوله (علام الغيوب) أعمّ من العلم بالسر والنجوى. ومن هذا قوله تعالى ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾

وَلَوْلَا الَّذِي وَلِمَنْ دَخَلَ يَتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ [نوح/ ٢٨]،
فـ (للمؤمنين والمؤمنات) يدخل في عمومهما من ذكر قبلهما (لي ولوالدي).

٤- التأكيد: كما في قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب/ ٤]، فقوله (في جوفه) إطناب جاء لإفادة التوكيد؛ لأن القلب لا يكون إلا في الجوف ولكنه في هذه الزيادة (في جوفه) أراد المبالغة في إنكار أن يكون للمرء قلبان. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأنعام/ ٣٨]، فليس ثمة طائر يطير بغير جناحيه لأنه لا يقوى على الطيران إلا بمخفقهما، ولكن الإطناب بذكر (جناحيه) جاء فأفاد معنى التوكيد والإحاطة لتشتمل على كل الطيور، وفي ذلك ما فيه من دلالة على عظم قدرة الخالق عز وجل وامتداد ملكوته.

٥- التكرار: إذا كان التكرار لغرض بلاغي أو فائدة لطيفة فهو إطناب وإلا فهو مذموم لأنه يقدح في الفصاحة ويفض من طلاوتها. وأغراض التكرار كثيرة منها:
أ- التأكيد كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [التكاثر/ ٣ - ٤].

ب- خشية تناسي الأول وذلك عندما يكون الكلام طويلاً فإنه يعاد بتجديداً لعهد كما في الآية ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل/ ١١٩]، فقوله (إن ربك) في عجز الآية تكرر لأنه لما طال الفصل بين إن واسمها في صدر الآية (ثم إن ربك) وخبرها (لغفور) احتيج إليه.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَقَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران/ ١٨٨]، فقوله (فلا تحسبنهم) تكرر ومنه قول الشاعر:

لقد علم الحي الممانون أني إذا قلت أما بعدُ أني خطيها

ج - الترغيب: كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨) يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتَاعٌ ﴾ [غافر/ ٣٨ - ٣٩]، فقوله (يا قوم) الثانية تكرر، الهدف منه الترغيب في أن يهتدوا.

د - التهويل: كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴾ [هود/ ٦٠]، فالتكرار (ألا بعدا لعاد) تمويل وبيان لفظاعة ما عملوا.

هـ - التعلق باللفظ المكرر كما في قول العذري:

تذكرت ليلى والسنين الخواليا وأيام لا نخشى على اللهو ناهيا
بتمدين لاحت نار ليلى وصحبي بذات الغضا تزجي المطي النواجيا
خليلى لا والله لا أملك الذي قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاي بحبها فهلا بشيء غير ليلى ابتلايا

ز - التخصيص: كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة/ ٢٤٣]، فكرر (الناس) لإفادة التخصيص.

ح - إظهار التحسر: كما في الرثاء قال الشاعر:

فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خطت للسماحة موضعا
ويا قبر معن كيف وارييت جوده وقد كان منه السر والبحر مترعا
فكرر (يا قبر معن) تحسراً.

٦- الإيغال: وهو من قولهم أوغل في الأمر إذا أبعد الذهاب فيه، واصطلاحاً الإتيان في عجز الكلام بنعت لما قبله مفيد للتأكيد والزيادة كما في قول الخنساء:
وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فقولها (في رأسه نار) من الإيغال الحسن لأنها لم تكف بكونه جبلاً عالياً مشهوراً

بل زادت لكثرة إيغالها في مدحه وشهرته بـ (في رأسه نار) لما فيه من زيادة في الظهور والانكشاف لأن الجبل ظاهر فكيف به إذا كان في رأسه نار، والنار ظاهرة فكيف إذا كانت في رأس جبل^(١).

ومثله عند الأعشى:

كناطح صخرة يوماً ليوهنّها فلم يضرّها وأوهى قرنه الوعل
فقد تم كلامه بـ (يضرّها) ولما احتاج إلى القافية قال (وأوهى قرنه الوعل) فنزاد معنى لطيفاً.

٧- التذييل: وهو تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ويأتي على ضربين:

أ- تذييل لا يخرج عن المثل لأنه لا يؤدي المراد بذاته وإنما يعتمد على ما جاء قبله كما في الآية: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ/ ١٧] فجملة (وهل نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) تذييل لكنه — كما ترى — معتمد في السياق على ما قبله فلا يجري مجرى المثل.

قال المتنبي:

وما حاجة الأظعان حولك، في الدجى إلى قمر ما واجد لك عادمة
فقوله (ما واجد لك عادمة) تذييل والمعنى لا يحتاج من يجدك إلى القمر، إلا أن هذا التذييل متعلق بما قبله فهو لا يقوم مثلاً مستقلاً.

ومنه قول ابن نباتة:

لم يُبق جودك لي شيئاً أو مُلّه تركّني أصحاب الدنيا بلا أمل
فالشطر الثاني تذييل من هذا النوع.

^(١) انظر الطراز ٣ / ١٣١.

ب — تذييل يخرج مخرج المثل: أي يمكن أن يؤدي المراد بذاته من غير الاعتماد على ما قبله كما في الآية: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء/ ٨١]، فجملة (إن الباطل كان زهوقاً) تذييل يجري مجرى المثل لاستقلاله عما قبله.

وكما في الآية ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ [الأنبياء/ ٣٤ — ٣٥]، فقوله (كل نفس ذائقة الموت) تذييل جارٍ مجرى المثل.
قال الشاعر يرثي ولده:

تَبْدُلُ دَارًا غَيْرَ هَذِهِ وَجَرِيرَةً سِوَايَ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَنْوِبُ
يُجْرِي جَمْلَةٌ (وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَنْوِبُ) مجرى المثل لإمكان اعتمادها على ذاتها.
وقال النابغة:

وَلَسْتُ بِمَسْتَبْقٍ أَحَدًا لَا تَلْتَمِئُهُ عَلَى شَعْتِ (أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْذَبُ)
٨ — الاحتراس: وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه كقولك لمن تحب: (أبغاك الله سليماً معافى) فإن دعاءك له بالبقاء قد يوحى بالآية ﴿ وَمَنْ يُعْمَرْهُ لِنُكَسِّهُ ﴾ فعندما قلت (سليماً معافى) احترست من ذلك المعنى.
ومنه قول طرفة بن العبد:

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مَفْسُودَهَا صَوَّبَ الرِّبْعَ وَدَعَمَةَ تَهْمِي
لأن المطر قد يفضي بالديار إلى الفساد فاحترس بقوله (غير مفسدها) خشية أن يفهم السامع خلاف المراد، أو كما قال الجاحظ: إن الشاعر طلب التخييل على قدر الحاجة لأن الفاضل ضار^(١).

(١) البيان والتبيين ١/ ٢٢٨.

ومنه ما جاء في الآية: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة/ ٥٤]، فلو اقتضت الآية الكريمة على وصفهم بـ (أذلة) لظن ظان أن ذلتهم لضعفهم فاحتس من ذلك الظن بقوله (أعزة على الكافرين).

قال تعالى في خطاب موسى عليه السلام ﴿ وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْشَ وَجْهَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ [طه/ ٢٢]، فقوله (من غير سوء) احتراس من أن يظن موسى أن في يده مرضاً يجعلها بيضاء.

٩- التتميم: وهو أن يؤتى في كلام لا يوهم خلاف المقصود بفضلة كالمفعول أو الحال أو شبه الجملة مما ليس بجملة مستقلة وذلك لنكتة كالمبالغة في قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ [الإنسان/ ٨]، أي مع حاجتهم إليه فقوله (على حبه) تميم، ولعل منه قول زهير:

مَنْ يَلْقَى يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا يَلْقَى السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا
قوله (على علاته) تميم.

١٠- الاعتراض: وهو أن يؤتى بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر وهي جملة لا محل لها من الإعراب، وهذا يكون لأغراض منها:

أ- الدعاء كما في قول الشاعر:

إِنَّ سَلِيمِي وَاللَّهُ يَكْلُوهُمَا ضَنْتَ بِشَيْءٍ مَا كَانَ يَرْزُوهَا

فجملة (اللَّهُ يَكْلُوهُمَا) اعتراض أدى غرض الدعاء.

وقول النابغة:

يَقُولُ رَجَالٌ يَنْكُرُونَ خَلِيقَتِي لَعَلَّ زِيَادًا لَا أَبَالِكَ غَافِلُ

فجملة (لا أبالك) اعتراض معناه الدعاء.

ب - التنزيه كما في الآية ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل / ٥٧]. فجملة (سبحانه) مع تقدير الفعل اعتراضية الغرض منها تنزيه الله عز وجل عن أن يكون له ما يدعون.

ج - التنبيه كما في قول الشاعر:

واعلمْ فعلمُ المرء ينفعُهُ أنْ سوف يأتي كلُّ ما قدرا
اعتترضت جملة (فعلم المرء ينفعه).

ثالثاً: المساواة

وهي أن يساوي اللفظ المعنى لا يزيد عنه ولا ينقص، أو هي العبارة البليغة التي ليس فيها إيجاز ولا إطئاب. كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّكَاةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء/ ٣٢]، فهذه آية أدت المعنى المراد دون زيادة أو نقصان. وكذا في قول الرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة «إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني».

ومنها قول ابن الوردي:

اطرح الدنيا فمن عادتها
تخفض العالي وتعلي من سفل
إنك ترى من خلال الأمثلة التي عُرِضت عليك أن هذا الكلام لا يمكن أن تحذف منه شيئاً ولا يمكن أن تضيف إليه فهو قد تساوت فيه الألفاظ والمعاني.

تدريبات محلولة على بحث الإيجاز والإطناب

السؤال الأول: اذكر نوع الإيجاز في الأمثلة التالية وشرحه:

١ — قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ/ ٣١].

هذا إيجاز بالحذف، والمحذوف هو الخبر، إذ التقدير (لولا أنتم موجودون لكننا مؤمنين).

٢ — قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل/ ٩٠].

هذا إيجاز بالقصر فقد اشتملت هذه الكلمات القليلة على معنى أن الله يأمر الناس جميعاً بالإنصاف والاعتدال في كل الأمور ومقابلة الخير بأحسن منه والشر بالعفو والصفح وإعطاء القربة حقهم من الصلة والبر بهم، وينهى عن كل شيء قبيح قولاً أو فعلاً كالغيبة والنميمة والحسد والبخل وعن كل ما ينكره الشرع بالنهي عنه وهو جميع المعاصي، قال العلماء: هذه الآية أجمع آية في القرآن للخير والشر.

٣ — رأيت الخمرَ جاهدةً وفيها خصالٌ تفسدُ الرجلَ الحليماً
فلا والله أشربُها حيَّاتي ولا أسقيها أبداً نديماً

هذا إيجاز بالحذف، والمحذوف حرف إذ التقدير: لا أشربها.

٤ — قال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت/ ٤٥].

إيجاز بالحذف، والمحذوف شبه جملة إذ التقدير: أكبر من كل شيء.

٥ — قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا

وَلَا تُسْرِفُوا ﴿الأعراف / ٣١﴾.

هذا إيجاز قصر إذ جمعت الآية ثلاثة أنواع من أساليب الإنشاء: النداء والأمر والنهي، وهي تحمل معنى تزيّنوا واستروا العورة عند كل صلاة وطواف، ويباح لكم الأكل والشرب من غير أن تتجاوزوا الحد في ذلك.

٦ — قال تعالى: ﴿ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل / ٢٨ — ٢٩].
إيجاز بحذف أكثر من جملة ويمكن تقدير الجمل المحذوفة بعد (يرجعون) كما يلي:
فذهب الهدهد وحمل الكتاب فألقاه فأخذته وقرأته وجمعت قومها (قالت يا أيها الملأ).

السؤال الثاني: دلّ على مواطن الإطناب فيما يلي وبين نوعه.

١ — قال تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف / ٤]. الإطناب هو في قوله (رأيتهم) وهو تكرار حسن لما طال الفصل في الكلام بين (رأيت) و(ساجدين).

٢ — حليم إذا ما الحلم زين أهله مع الحلم في عين العدو مهيب
الإطناب في (مع الحلم في عين العدو مهيب) وهو احتباس خشية أن يُظن أن حلم المدح نتيجة ضعف أو قهلهل شخصية.

٣ — للمتنبّي:

وتحتقر الدنيا احتقاراً بحرب يرى كل ما فيها وحاشاك فانيها
الإطناب (وحاشاك) هو اعتراض معناه الدعاء.

٤ — قال تعالى: ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ [القدر / ٤].

الإطناب في (الروح) لأن الروح هو جبريل عليه السلام وهو من الملائكة إلا أنه أفرد تعظيماً لشأنه وهو من ذكر الخاص بعد العام.

٥ - يشيب ابن آدم وتشبّ معه حصلتان: الحرصُ والأمل.

الإطئاب في (الحرص والأمل) وهو توشيع لأنه جاء في عجز الكلام بمعنى (حصلتان) وفسره بلفظين معطوف ثانيهما على أولهما (الحرص والأمل).

٦ - لابن المعتز:

صَبِينَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا فطارتْ بِهَا أَيْدٍ سَرَّاعٍ وَأَرْجُلُ
الإطئاب (ظالمين) وهو احتراس حتى لا يُفهم أن الفرس بليدة، فهو لم يضرها
لبلاذها وإنما كان ضربها ظلماً منه.

٧ - للبحثري:

مَا أَحْسَنَ الْأَيَّامَ إِلَّا أَنَهَا يَا صَاحِبِي إِذَا مَضَتْ لَا تَرْجِعْ
فـ (يا صاحبي) حشو لا فائدة منه فلا يُعدّ من الإطئاب لأن الإطئاب يكون
لفائدة.

٨ - للخنساء:

وإنَّ صَخْرًا لَوَالَيْنَا وَسَيِّدُنَا وإنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَّارُ
وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتِمِ الْهَدَاةُ بِهِ كأنه علم في رأسه نارُ
الإطئاب في ذكر (صخرا) مكرراً وهو لغرض إظهار الحسرة.

تدريبات يُطلب حلّها

السؤال الأول:

بيّن أنواع الإيجاز في كل مما يلي واطرح ما تذكر:

- ١- قال تعالى: ﴿وَالْفُلْكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة/ ١٦٤].
- ٢- يخبرك من شهد الوقعة أن: أغشى الوجى وأعفّ عند المغنم
- ٣- «المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء».
- ٤- قال تعالى: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة/ ٥٤].
- ٥- قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقْتِ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف/ ٢٦].

السؤال الثاني:

بيّن الإطناب في الأمثلة الآتية مع ذكر الداعي البلاغي:

- ١- قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبا/ ٣١ - ٣٣].
- ٢- والسعي في الرزق والأرزاق قد قسمت بغي ألا إن بغي للبرء يصرعهُ
- ٣- قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِيَةٌ وَتَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن/ ٦٨].
- ٤- نزر الكلام من الحياء تخاله ضمنا وليس بجسمه سقم

٥- ويهترّ للجلوى إذا ما مدحّه
 ٦- إن تمّ ذا الحجر يا ظلوم ولا
 ٧- كلّ خليل كنت خالئته
 كما اهتر - حاشى وصفه - شارب الخمر
 تمّ فمالي في العيش من أرب
 لا ترك الله له وأضحّة
 كلّكم أروغ من تغلب
 ما أشبه الليلة بالبارحة



خاتمة

نخلص مما جاء في هذا الكتاب إلى أن العرب منذ العصر الجاهلي كان لهم رأيهم في الكلام بليغه وسخيفه؛ وأن بلاغته لم تكن خافية على أي منهم، حتى أقلهم براعة في القول ومعرفة الغث والسمين منه كان يعرف فضل الكلام ويدرك أثره في نفوس المخاطبين، لذلك كانت عنايتهم بالكلام فوق كل عناية.

ثم جاء العصر الإسلامي وكان لسحر القرآن في نفوس العرب ما كان، مما دفعهم إلى الاختصاص فيه ثم الاحتكام إلى بلاغته وفصاحته، وإسلام كثير منهم لجرّد أن استمع إلى بعض آياته.

و لم يستطع المشركون أن يكتموا إعجابهم بسحر القرآن وشدة وقعه وتأثيره، هذا عتبة بن ربيعة — وكان مقدماً في قومه — قام إلى النبي عليه الصلاة والسلام في المسجد وعرض عليه المال والجاه والسيادة ليثنيه عن عزمه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يسمعه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال عتبة: نعم، قال: فاسمع مني ﴿حم﴾ (١) نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿ [فصلت / ١ - ٤]، ثم مضى رسول الله يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنبصت لها حتى انتهى رسول الله إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذلك، وعاد عتبة إلى قومه مذهولاً وقال: سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة^(١).

(١) السيرة النبوية ١/ ٣٠٧.

ثم دفع هذا القرآن العرب وغيرهم من المسلمين إلى التأليف فيه وبيان نواحي الإعجاز التي من أبرزها الناحية البلاغية، وهما بيان هذا الجانب علماء مخلصون كان على رأسهم عبد القاهر الجرجاني — رحمه الله — الذي ردَّ إعجاز القرآن إلى نظمته، والنظم عنده يشتمل على كل فنون البلاغة، وقد أحسن ربط النحو بالمعاني، فبعث في النحو روحاً وحيوية فلم يعد النحو مقتصرأ على الإعراب لأن «الإعراب ليس من الفصاحة التي يعيننا أمرها في شيء إذ لا يتصور أن يكون للرفع والنصب في كلام مزية عليهما في كلام آخر»^(١).

والبلاغة والفصاحة عند الجرجاني مصطلحان ذوا معنى واحد وهما يندرجان تحت نظرية النظم وبشيء من التجوُّز نقول إن النظم عنده هو الأسلوب في عرف مَنْ جاء بعده.

ويمكن حصر آراء الجرجاني بالإعجاز في ثلاثة جوانب:

الأول: أن القرآن معجز ببلاغته.

الثاني: أن بلاغته في نظمته بمعنى أن الإعجاز في النظم.

الثالث: بيان طبيعة النظم ودراسة موضوعاته.

ولعلك أدركت أن هذه الموضوعات شكلت أكثر موضوعات علم المعاني بل كلها إذا استثنينا بعض أنواع الطلب.

وقد قدمنا للكتاب بمقدمة تشرح ظروف تطور هذا العلم إلى أن صار ذا حدود وتعريفات ورسوم، حاولنا — ما أمكن — تجنب التكرار فيها، وهلنا في بحوث الكتاب من المعين الذي صدرت عنه البلاغة عندما كانت فناً خالصاً قبل أن يجف ماؤها ويذوي عودها على أيدي المتأخرين، فكان اعتمادنا على أمهات كتب التفسير والإعجاز والبلاغة والأدب كما رأيت.

(١) دلائل الإعجاز / ٣٠٦.

ولعلك أدركت أننا راعينا في التأليف مستوى الطالب في المرحلة الجامعية، فبسطنا القول في مواضع وأوجزنا في أخرى، وحين كنا نشعر أن الكلام قد اعتراه شيء من الغموض كنا نعمد إلى تيسيره وكشف ما فيه من إهام، كما كنا نستغني ببعض القول عن بعضه وخاصة في حديثنا عن الإسناد وأحواله وندل على أن ما قيل في موضع يمكن القياس عليه في موضع آخر.

وبينا الفائدة المتوخاة من تعلم البلاغة من هذا الوجه (علم المعاني) وهو أن نتدرب على سلامة التفكير ثم كتابة ما نفكر به بالصيغة المثلى؛ لأن من شأن البليغ أن يرتب ألفاظه في عبارته وفق ترتيب المعاني في نفسه، يفكر أولاً بالمعنى ثم ينشئ كلامه مختاراً الألفاظ — مع مراعاة فصاحتها — والجمل — مع مراعاة بلاغتها — والتراكيب مراعيّاً فيها مقتضى الحال، فإن قيمة المفردة أن تصل إلى درجة التألق، وقيمة الكلام أن يحقق الإقناع والإمتاع من خلال وروده إلى قلب السامع وعقله، أليس من تعريفات البلاغة أنها إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ؟

وقد قدمنا في آخر كل بحث نوعين من التدريبات، الأول منها قمنا بحلّه وتركنا الثاني ليعمل فيه القارئ فكره ويتوصل إلى المراد منه بنفسه.

أرجو أن يتقبل الله تعالى منا هذا العمل ويجعل ما فيه من خير في حسناتنا وما فيه من سوء حافزاً لنا على طلب العلم وتحسين العمل، والحمد لله رب العالمين.

أبرز مصادر الكتاب ومراجعته

- ١- أسرار البلاغة — عبد القاهر الجرجاني — تحقيق. محمد رشيد رضا — دار المعرفة — بيروت — ١٩٨٨٢.
- ٢- الإرشاد إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز — عز الدين بن عبد السلام تحقيق: رمزي دمشقية — دار البشائر الإسلامية — ط ١ — ١٩٨٧.
- ٣- إعجاز القرآن للباقلاني تحقيق: أحمد صقر — دار المعارف — مصر — ط ٤.
- ٤- الأغاني — لأبي الفرج الأصفهاني — مصورة عن دار الكتب المصرية — ط ١ — ١٩٢٧.
- ٥- الإيجاز في كلام العرب ونص الإعجاز — د. مختار عطية — دار المعرفة الجامعية — مصر — ١٩٩٧.
- ٦- الإيضاح للقرظيني تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي — مكتبة الحسين التجارية — مصر — ط ١ — ١٩٤٩.
- ٧- البحث البلاغي عند يحيى بن حمزة العلوي اليمني — مخطوط — د. منيرة فاعور.
- ٨- البحر المحيط — أبو حيان الأندلسي — ط ٢ — ١٩٨٧.
- ٩- البلاغة للمبرد — مكتبة الثقافة الدينية — ط ٢ — ١٩٨٥.
- ١٠- البلاغة العربية تاريخها — مصادرها — مناهجها — د. علي عشري زايد — مكتبة الشباب — مصر — ١٩٨٢.
- ١١- البلاغة عند السكاكي — د. أحمد مطلوب — منشورات مكتبة النهضة — بغداد — ط ١ — ١٩٦٤.

- ١٢ — البلاغة العربية قراءة جديدة — محمد عبد المطلب — مكتبة لبنان — ١٩٩٧.
- ١٣ — البلاغة فنونها وأفانها — د. فضل عباس — دار الفرقان — الأردن — ط ٤ — ١٩٩٧.
- ١٤ — البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري — محمد أبو موسى — دار الفكر العربي.
- ١٥ — البيان والتبيين للجاحظ — تحقيق: عبد السلام هارون — دار الفكر — ط ٤.
- ١٦ — الفلخيص للقرظيني — شرح عبد الرحمن البرقوقي — المكتبة التجارية الكبرى — مصر — ١٩٠٤.
- ١٧ — الجامع لأحكام القرآن للقرطبي — ط ٢ — ١٩٥٢.
- ١٨ — جهود المفسرين في البحث البلاغي — مخطوط — د. منيرة فاعور.
- ١٩ — دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني — تحقيق: الداية — دار ابن قتيبة — ط ١ — ١٩٨٣، وتحقيق: رشيد رضا — دار المعرفة — بيروت — ١٩٨٢. وتحقيق: محمود شاكر — مكتبة الخانجي — القاهرة.
- ٢٠ — رسائل الجاحظ — تحقيق: عبد السلام هارون — مكتبة الخانجي — القاهرة — ط ١ — ١٩٧٩.
- ٢١ — سر الفصاحة لابن سنان الخزازي — دار الكتاب العالمي — بيروت — ط ١ — ١٩٨٢.
- ٢٢ — السيرة النبوية لابن هشام تحقيق: السقا والأبياري وشلي — دار إحياء التراث العربي — بيروت.
- ٢٣ — شرح الألفية لابن الناظم.
- ٢٤ — شرح عقود الجمان للسيوطي — مطبعة مصطفى البابي الحلبي — مصر — ١٩٣٩.
- ٢٥ — شروح التلخيص للسبكي والمغربي والتفتازاني.

- ٢٦— الصاجي في فقه اللغة لابن فارس اللغوي تحقيق: د. عمر الطباع — مكتبة المعارف — بيروت — ط ١ — ١٩٩٣.
- ٢٧— الصناعتين لأبي هلال العسكري — تحقيق: د. مفيد قميحة — دار الكتب العلمية — بيروت — ١٩٨١.
- ٢٨— الطراز المتضمن لأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز — يحيى بن حمزة العلوي — دار الكتب العلمية — بيروت — ١٩٨٢.
- ٢٩— الكتاب لسيبويه — تحقيق: عبد السلام هارون — ط ٢ — مكتبة الخانجي — مصر — ١٩٧٧.
- ٣٠— فن البلاغة — د. عبد القادر حسين — عالم الكتب — بيروت — ط ٢ — ١٩٨٤.
- ٣١— الكشف للزمخشري — دار المعرفة — بيروت.
- ٣٢— اللامات للزجاجي — تحقيق د. مازن المبارك — دار الفكر — ط ٢ — ١٩٨٥.
- ٣٣— المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير — تحقيق: محمد يحيى الدين عبد الحميد — المكتبة العصرية — صيدا — ١٤١٦هـ — ١٩٩٥م.
- ٣٤— مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى — تحقيق: د. محمد فؤاد سركين — مكتبة الخانجي — القاهرة.
- ٣٥— معاني القرآن للفراء — تحقيق: محمد علي النجار وآخرون — الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ٣٦— المصباح في المعاني والبيان والبديع — بدر الدين بن مالك — تحقيق: د. حسني يوسف — مطبعة الجماميز — مصر.
- ٣٧— معجم الأدباء — ياقوت الحموي — دار إحياء التراث العربي — بيروت.
- ٣٨— مغني اللبيب لابن هشام الأنصاري — تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله — دار الفكر — ط ١.

٣٩ — مفتاح العلوم للسكاكي — تحقيق: نعيم زرزور — دار الكتب العلمية — بيروت — ط ١ — ١٩٨٣.

٤٠ — الموجز في تاريخ البلاغة — د. مازن مبارك — دار الفكر — دمشق — ١٩٨١.

٤١ — النثر الفني في القرن الرابع — د. زكي مبارك — دار الكتب المصرية — القاهرة — ط ١ — ١٩٣٤.

٤٢ — النحو الوافي — عباس حسن — دار المعارف — مصر.

٤٣ — النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) تحقيق: محمد خلف

الله، ود. محمد زغلول سلام — دار المعارف — مصر.

٤٤ — نهاية الإيجاز في داريه الإعجاز — الفخر الرازي — تحقيق: د. بكري شيخ أمين

— دار العلم للملايين — بيروت — ط ١ — ١٩٨٥.



اللجنة العلمية

د. عمر موسى باشا
د. منى إلياس
د. ناصر حسين علي

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لمديرية الكتب والمطبوعات